ماري ندياي

FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

قلبي في ضيق

رواية

ترجمتها عن الفرنسية

ماري طوق

روائع الأدب الفرنسيّ الحديث

ماري ندياي

قلبي في ضِيق

رواية

ترجمتها عن الفرنسية

ماري طوق

مراجعة

كاظم جهاد

© دائرة الثقافة والسياحة – مشروع «كلمة»

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2674.D53 M66125 2018

NDiaye, Marie, 1967-

قلبي في ضيق: رواية / تأليف ماري ندياي ؛ ترجمة ماري طوق ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2018.

337 ص. ؛ 14 × 21 سم.

ترجمة كتاب: Mon cœur à l'étroit

تدمك: 978-9948-39-353-5

1- القصص الفرنسية– القرن 21.

أ- طوق، ماري. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Marie NDiaye

Mon coeur à l'étroit

© Editions GALLIMARD, Paris 2007

Photo Catherine Hélie © Editions Gallimard.

www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+

إن دائرة الثقافة والسياحة – مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الدائرة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

قلبي في ضِيق

مقدّمة المُراجِع

سبق أن تلقّى القارئ العربيّ عملاً روائيّاً لماري ندياي Marie NDiaye صدرت ترجمته في هذه السلسلة تحت عنوان «ثلاث نساء قديرات». وبالتزامن مع الرواية الماثلة بين يديه ههنا نقدّم له ترجمة رواية أخرى لها عنوانها «طقس سيّئ». والترجمات الثلاث هي من صنيع المترجمة اللبنانيّة ماري طوق.

منذ سنّ السابعة عشرة، لفتت ندياي انتباه النقّاد والقرّاء إلى موهبتها عبر روايتها الأولى «أمّا عن المستقبل الثريّ» *Quant au riche avenir* التي صدرت في منشورات «مينوي» Minuit الباريسيّة الشهيرة في 1985. كان ذلك ظهوراً مفاجئاً لفتاة ولدت في منطقة النورماندي لأمّ فرنسيّة وأب سنغاليّ سرعان ما عاد إلى بلده الأصليّ فعاشت الطفلة ماري وأخوها وأمّهما في الضاحية الباريسية بور لا رين Bourg-la-Reine، حيث كانت الأمّ تعمل في التعليم الابتدائيّ. ثمّ توالت أعمالها، رواياتٍ وقصصاً ومسرحيّات، وكتابات للناشئة، وأغلب هذه الأعمال حافل بشخصيّات مأخوذة جميعاً في لحظة تعيش فيها امتحاناً وجوديّاً عسيراً وتخوض بحثاً عن الهويّة ممضّاً.

لا تشذّ عن ذلك هذه الرواية التي تتقدّم عبر ثمانية وثلاثين فصلاً صغيراً متلاحقة، بلا عناوين، ولا فواصل، بل تكتفي الكاتبة بوضع رقمٍ في بداية السطر الأوّل لكلّ فصل، حتّى لا ينفصم البوح ويتجزّأ النشيد. صوت متوحّد، مونولوغ طويل يتغمّد المحاورات ويسلّمنا إيّاها مدموغة ببصمته، خاضعة لانتقائه، ومؤطّرة بسرده الخاصّ. وما تُصوّره الفصول المتوالية هو استبعادٌ، لا بل نفيٌ غريبٌ يعيشه، حقيقةً أو استيهاماً، مواطنان من مدينة بوردو، الكبيرة. كلاهما معلّمان في مدرسة ثانوية، أنموذجيّان في الظاهر أو كما يعتقدان. زلّة لا تعرف ما هي، خصلة سلبيّة ما، تطبعهما وتتسّبب بزوال حظوتهما في محيطهما الاجتماعيّ. في المدرسة والشارع، تشعر ناديا بكونها محطّ ارتياب ونفور، وزوجها آنج يعود ذات يوم مطعوناً في خاصرته. الزوجة ناديا هي التي تضطلع بالسرد، نتلقّاه من خلال صوتها، ومعها نمضي من غريبٍ إلى أغرب. لا حُكم تصدره الكاتبة، بل تدعنا نقرأ ونسجّل، نتعاطف ونغضب، نرافق ناديا في رحلتها الجهنّمية بحثاً عن خلاص يبدو عسيراً على النوال. شخصية تندفع في جنون متدرّج يسلبها القدرة على التعاطف والاكتراث، وهنا يكمن أحد مفاتيح غربتها.

أدنى التفاصيل مسجّلة بلا ابتذال، لا بل إنّ المبتذَل نفسه له مكانه في مسعى روحانيّ متعرّج ومتماسك. تبدأ غربة الزوجين، التي تصبح، مع إصابة آنج بجرحٍ وتشافيه الطويل، غربة ناديا خصوصاً، تبدأ بالارتياب المبهم ثمّ تنتهي بنبذٍ سافرٍ للزوجين. الصغار هم أداة العدوان، والكبار شهود صامتون أو منافقون. وبالتالي متواطئون. أو هكذا على الأقلّ تتصوّرهم ناديا، وتُصوِّرهم.

«كنّا نشعر بأنّنا بريئان، وبالخزي أيضاً»، جملة مفتاحيّة تردنا في

الصفحات الأولى من هذا العمل. آنج يحتضر، يعالجه وينقذه في النهاية نوجيه، جارهما الكاتب الذي كانا كلاهما يزدريانه. بحث ممضّ عن الخطأ في أجواء كافكوية مكثّفة ببراعة وبصبر. السرّ لا يني يتعمّق، وإذا ما بان خيط من الضوء تلقّفتْه على الفور مساحات من العتمة دائمة التوالد حتّى الكشف النهائيّ. مأساة هي نتيجة لعنة ماحقة أو خطأ أصليّ لا تدري أيّ غوص في بواطن الذّات يمكن أن يتيح تشخيصه، أيّ تشريح للنفس في ماضيها وحاضرها، في كثافتها الشعوريّة وكاملِ عالمها الإدراكيّ، أيّة مسيرة تطّهرية، أيّ غناء.

رواية ناديا للأشياء تأتي لتنقضها وجهات نظر الآخرين: زوجها السابق وأبو ابنها الوحيد، وزوجها الثاني الجريح آنج، وابنها رالف الذي نفى نفسه إلى ما وراء البحار، والكاتب الشهير نوجيه الذي بات يُعنى بزوجها عناية غريبة تتساءل ناديا إن لم تكن موجّهة للقضاء على زوجها رويداً رويداً.

تفاصيل تبدو غير ذات دلالة، ولكنّها باجتماعها تشكّل ملحمةَ وعيٍ شقيّ هو في الأوان نفسه وعيٌ آثِم. ناديا كما كتب بعض النقّاد هي في الوقت نفسه ذئبٌ وحَمَل: أفلا يكون كذلك أغلب الناس؟ أوَ لا يكمن هنا واحدٌ من دروس هذا العمل الأساسيّة؟ هذه الحرب الاجتماعية التي يتبادلها سكّان مدينة كبيرة، أليست مسؤوليّتها متقاسَمة من لدن الجميع؟

البحث عن التميّز والوجاهة واعتراف الآخرين قد يكون هو مصدر الضّلال، والباعث في هذه المتاهة العريضة التي تجرف ناديا بعيداً عن نفسها وعن الغير. نظرة معذّبة، منفصمة، يبين انفصامها في أدنى عباراتها، عبارات متنامية في صحو موجع، تكون الساردة فيها هي المتحدّثة عن مأساتها

وقاضيها الذي لا يرحم. وهذا الشّغف بالحُكم على الآخرين، هذا التعالي المصعّد إلى مصاف خيار أخلاقيّ (هو بالطبع خيارٌ زائف)، والذي يلقى مكمّله الغريب في رغبة مبرمة في الانسلاخ عن الأصل العائليّ أو الطبقيّ أو الاجتماعيّ، إلى حدّ ادّعاء ناديا بأنّ أبويها ميّتان (تُخفيهما لخجلها من فقرهما وبساطتهما!). باختصار، هذه النفاجة المكوّنة من مزيج من الدونيّة والتعالي هي التي تجعلها تحمل على الدوام قناعاً سرعان ما يلتّحم بالوجه، يُخفيه، يصير هو الوجه مع كلّ ما يحمله القناع من التواءات وتشنّجات.

بمقابل التعفّن المتدرّج للجرح الذي تتسبّب به لآنج طعنة تلقّاها في المدرسة، لا نعلم ممّن ولكنّ كلّ شيء في الرواية يشير إلى أنّها جاءت من تلامذته، وبمقابل سيرورة شفائه، يتنامى تحديق لا هوادة فيه بهذا التعفّن البسيكولوجيّ الذي يلفّ ناديا منذ صباها، وبجهودها الممعنة لتسمية الداء، هل هو فيها أم في الآخرين أم في الطرفين، وللخروج منه. هو امتحانٌ ضارٍ تجتاز مراحله وأطواره، وتسمح لنا الكاتبة بمتابعته منخرطين ذاهلين. كلّ تفصيل يكشف عن هشاشة متزايدة، وكلّ محاورة تبين عن نزول مريع إلى القاع.

«كلّ ما تجهلينه يشهد ضدّك»، عبارة كاشفة يقذفها نوجيه بوجه ناديا، فيما هو يعالج آنج. هو بصورة من الصور انتقام الخارج الذي كان الزوجان قد لفظاه، خارجٌ يتجسّد في شخصِ جارهما هذا، الكاتب الشهير الذي لم يكن مظهره يعجبهما، وفي أبويها اللذين حكمتْ عليهما بالمجهولية والعزلة في حارة متواضعة، وابنهما الوحيد الذي تذهب أخيراً للبحث عنه في منفاه الاختياريّ البعيد. هناك تُعاود ملاقاة أبويها وقد آواهما حفيدهما، ابنها هي. ملاقاة صادمة مع الأصل المخفيّ ببشاعة والمستعاد أخيراً كمثْلٍ

طوقِ نجاةٍ ما كانت ناديا تخمّن أنّه أقرب إليها من حبل الوريد. أصلٌ أخفته بباعث بشعور بالعار من تدنّيه المزعوم، فولّد لديها شعوراً بالعار أكبر وأشمل، لأنّ كلّ عار إنّما يتمخّض إلى ما لا نهاية له عن عار آخر. فتوقن أخيراً من أنّ تعاليها الزائف والذي لم يكن له ما يوجبه وارتيابيّتها المطلقة هما أصل الداء، وتنخرط في الواقع الاجتماعيّ من جديد، وتعاود البحث عن عملٍ لها في التعليم.

كما في كلّ روايات ماري ندياي تواجهنا هنا غرابة متواترة، ولكنّها بنت الواقع نفسه. ففي اللّحظات التي تجنح فيها لغة الرواية إلى الفنطازيّة إنّما يشكّل هذا العنصر الإضافيّ وسيلة ناجعة للإبانة عن غرابة الواقع نفسه.

تناوبٌ شديد النجوع للاستبطان والبوح، إذِ الساردة هي في الأوان ذاته الشخصية المحوريّة في العمل أو «بطلته»، تتكلّم كما لو كانت مستلقية على أريكة محلّل نفسانيّ. ثمّة دقّة في الرصد، سجلّ طبّيّ وشاعريّ في آنٍ معاً، ذكّر بعض النقّاد بـ «محاكمة» كافكا. مزيج من الوعي الشقيّ والوعي الآثم وسوء النيّة تمسك الكاتبة بتجليّاته بمشرطِ جرّاح.

وثمّة مقابلات رمزية كثيرة في هذه الرواية. بدءاً بالجرح الذي تسبّبت به لآنج طعنة سكّين، والذي قد يرمز إلى انعطابهما هما الاثنين، وإلى التهميش الذي ألفيا نفسيهما ينقذفان فيه يوماً بعد يوم قبل أن يتحقّق الخلاص النهائيّ، فتستعيد ناديا علاقتها بمحيطها وبالواقع كما أسلفنا، ويشفى آنج ويختار له خليلة كانت هي الأخرى في الماضي محطّ ازدراء ناديا ورفضها. والانتفاخ أو الورم الذي تحسّ ناديا بثقله في بطنها ويحسبه الآخرون حبَلاً بينما هي تعدّت سنّ الخصوبة، ينتصب في جسدها ذاته دمغة ممضّة لكيانها الشائه، ويزول كأنّما من تلقاء نفسه عندما تستعيد سلامها الداخليّ الذي

كانت قد حسبته آفلاً إلى غير رجعة. وأخيراً، الصفحات الطويلة التي تبرع فيها ماري ندياي في وصف ضياع ناديا في بوردو، مدينتها نفسها، تتوه فيها وتفقد معرفتها لفضاء مألوف لديها بمجرّد أن تغادر منزلها. فكأنّ المدينة صار حجَرها نفسه ومعمارها يرفضان ناديا ويبخلان عليها بأدنى معْلم أو نقطة ارتكاز واستدلال. أو كأنّ ناديا، وقد صارت تائهة في ما يدعوه بودلير «صحراء البشر»، باتت لا ترى في المدينة نفسها سوى صحراء مترامية الأطراف لا تميّز فيها جهات الأفق ولا تدرك أبعاد الفضاء.

كما ينبغي لفت الأنظار إلى دأب ندياي، لا في هذه الرواية وحدها، على الإكثار من العبارات أو الفقرات التي تجعلها تُطبَع بحروف مائلة، أبدلناها هنا بحروف مطبوعة ببنط أسود لأنّها أوضح بالعربيّة. تستخدم الكاتبة هذا الفارق الطباعيّ في اللحظات التي يرتفع فيها البوح إلى ذروته ويقرب من أن يكون كشفاً؛ لحظات تبدو فيها ناديا، حتّى نبقى في حدود هذه الرواية، وكأنّها تضع أصابعها على جذور المأساة.

وننوّه أخيراً بأنّ الباحثة كلويه برندليه Chloé Brendlé، في دراسة لها بعنوان «الخطاب الجوّانيّ لشخصيّات ماري ندياي» («Le discours intérieur des personnages de Marie NDiaye»)، تشير إلى أنّ الترنيمة التي تتردّد مقاطع منها في الصفحات الأخيرة من هذه الرواية مستعارة من أغنية تقليدية تنشدها نساء مالي عندما تستعيد امرأة خصوبتها، وهو أمر له دلالة عالية في مسار ناديا: لقد بلغت سنّ الإياس، ولكنّها تستعيد خصوبتها الروحية أو صفاء النفس هذا الذي يعيد ربطها بمحيطها وبالعالَم والحياة.

ولمزيد من الفائدة، يمكن الاختتام هنا باقتطاف بضع فقرات من

المحاورة التي أجراها مع ماري ندياي الناقد ألان نيكولا Alain Nicolas ونُشرت في صحيفة «لومانيتيه» *L'Humanité* الفرنسية (1 فبراير 2007).

«لا أعطي درساً أخلاقيّاً أو موعظة، تصرّح ماري ندياي. نحن جميعاً ضحايا وآثمون. ما يهمّني هو المسار الشخصيّ للساردة، أي أن نرى كيف تنجح في تجاوز محنتها وفهم ما يحدث. أُمسك بها في لحظة من حياة امرأة يكون كلّ شيءٍ فيها موضوعاً تحت طائلة التساؤل. لحظة تبحث فيها عن البقاء من خلال أبنائها، محاوِلةً في الأوان ذاته أن تلتفت إلى أصلها [الذي كانت قد نسيتْه]. وفي حالة بطلة الرواية فإنّ هذه الحارة الفقيرة التي لا تعدّها هي، بتعبير زوجها، «من بوردو حقّاً»، هي المكان الذي كان ينبغي أن تمرّ به لتواجه محنتها».

وتضيف الكاتبة: «نقطة انطلاقي هي فكرة إحساس بالإثم ينبثق على غير انتظار، ومن دون أن تشخّصه ناديا أو تعيَه. هذه السيّدة رتّبت لنفسها حياةً هانئة، هادئة وبرجوازية، ولكنّها أقامتها على رمالٍ متحرّكة. كلّ ما كان يُفزعها، أصلُها، حارتها الأولى، هذا كلّه يعاود الانبثاق بلا سابقِ إنذار. هي وزوجها كانا قد حسِبا أنّهما متطابقان والمجتمع، مقبولان فيه، عاديّان، وما كانا كذلك حقّاً، وها هما يعيان نظرة الآخرين إليهما». «هذه المعلّمة، المفترض بها أن تعرف، تُدرك أخيراً أنها لا تعرف شيئاً ذا بال. ذلك ناتج من إرادتها، هي وزوجها. كانا يرفضان إحراز أيّة معرفة عن العالم، لا يسمعان سوى الموسيقى، وكانت هي تتوهّم أنّها مطّلعة بما فيه الكفاية».

مشكلة هذين الزوجين، على ما تقول الكاتبة، هي الاكتفاء والتعالي والاعتقاد بكونهما «فوق الآخرين». «وليس محض صدفة، تقول، أن يكون جارهما الذي كانا يزدريانه أكثر من الجميع هو الذي يتسلّل إلى

منزلها ويُصبح شيطانها الخبيث». ذلك أنّ لحظة الأزمة هذه تسمح بظهور أشخاص مُقلقين مريبين يبرز من بينهم على الخصوص اثنان: «إنّ نوجيه، جارهما الكاتب، ولانتون، مفتّش الشرطة، تقول الكاتبة، هما من الكائنات الشرّيرة نوعاً ما، «شيطانان حارسان» (على وزن «ملائكة حارسة»)، يعرفان عن الشخوص أكثر ممّا تعرف عن أنفسها».

تدع ندياي الأشياء عائمة عن قصد، لا ندري هل هي واقعٌ أم استيهام: «لا شيء يقول لنا إنّ تغيّر نظرة الصغار والمحيط كلّه للزوجين هو فعليّ. قد يكون شعوراً ولّده لدى ناديا وزوجها إحساسٌ بالذنب. حتّى الجرح الذي تعرّض له الزوج، لا نرى إليه وهو يتلقّاه بطعنة سكّين. صحيحٌ أنّنا نجنح إلى التفكير بعدوانٍ حقيقيّ... ولكنّه يصلنا عبر كلام الساردة، هذه التي تقول «أنا»، وذلك ممّا يعمّق تماهيها [والجرح]...».

كلّ شيء يمرّ عبر الجسد، فالكاتبة تقرّ بصعوبة لديها في التعامل مع التجريدات: «عندما تحسّ الساردة بأنّ الأشياء باتت تُفلت من سيطرتها، فإنّ جسدها نفسه يُفلت منها. تفكّر أنّ انتفاخ بطنها آتٍ من بلوغها سنّ الإياس، ومُحيطها يعتقد أنّها حُبلى، والحال أنّها صارت خاضعة لسطوة الطعام... المجاز عندي مخطوطٌ في الجسديّ، في الملموس».

هذا ما يوحي به العنوان نفسه، «قلبي في ضيق». فكما تلفت إليه الكاتبة نفسها الانتباه، يمكن قراءة العنوان على المجاز وعلى الحقيقة وبشتّى المعاني: قلبٌ مُحاصَر ومأزوم ومُنتكس، ولكنّه أيضاً قلبٌ يتعذّب تحت طبقة الشّحم الباهظة التي تتكدّس حوله وتحاصره.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

1- متى بدأ هذا؟

في البداية، كان يخامرني أحياناً الانطباع بأنّهم ينظرون إليّ شزراً. فهل كانوا حقّاً مستائين منّي أنا بالذات؟

حين أقدمت على ذكر هذا التغيّر المفاجئ أمام آنج، على طاولة العشاء، أجابني، بعد تردّدٍ قليلٍ حياءً أو حرجاً، أنّه لاحظ الشيء نفسه في ما يخصّه. ثمّ سألني وهو يحدّق إليّ إنْ كان التلامذة، برأيي، يعيبون عليه شيئاً ما أم أنّهم كانوا يريدون استهدافي عبره لمعرفتهم بأنّني زوجته.

أثار هذا السؤال حيرتي: فما الذي فعلتُه، وبحقّ من؟

كان القلق بشأني يطفح من عينَي آنج وكأنّه يودّ أن أقول له إنّه هو، هو وحده، من تستهدفه نظرات تلاميذه الخبيثة، أو إنّه إليه بالذات تتّجه نظرات تلامذتي المصوّبة نحوي.

ومع ذلك، ما الذي فعله آنج نفسُه وبحقّ من؟ ألم يكن مدرّساً محاطاً بالتقدير والاعتبار، ألم يكن رجلاً رزيناً ومحترماً على جميع الأصعدة؟

أنهينا طعامنا بصمت، وكلانا واعٍ بالمخاوف التي تختلج في فكر الآخر، لكنّ أحداً منّا لم يكن يجرؤ على المكاشفة بها بصراحة لأنّنا كنّا معتادين على السلام والتناغم والتفهّم التلقائيّ لكلّ ما يحيط بنا. وهكذا، بمعنىً ما، كان خوفنا بالذات يروّعنا وكأنّه وصمة عار.

2- لا ندري

كانت الأمّهات يضممن إلى بطونهنّ صغارهنّ وتحمرّ وجوههم عند وصولي أمام المدرسة. وكان يؤلمني ارتباك تلامذتي المؤسف. أتساءل أيّ اتّهام باطل بحقّي لزم عليهم تصديقه فجأة فما عادوا يجرؤون على رفع نظراتهم نحوي فيما كنت وإيّاهم على تفاهم تامّ؟

وأتساءل مضطربة: ما الذي أخبروهم إيّاه؟

كنت معتادة على الظنّ أنّه لا صيت سيّئاً يخلو تماماً ممّا يبرّره، وأنّه يندر أن يكون ما أثار ردود الفعل حيال السمعة المشبوهة، على تباين الردود وحماقتها وخبثها، قابلاً للجدل.

كنت أفكر أنّ المرء يخمّن دوماً ما يُتّهم به. كنت أفكّر أنّه يستشعر ذلك دوماً. ويجدر بي الاعتراف، وجبيني يشتعل خجلاً من غروري وبلاهتي، أنّه يستحيل عليّ أن أستشفّ مع ذلك الأسباب الكامنة خلف نبذنا في المدرسة، أنا وآنج.

يستحيل عليّ ذلك: الله يعلم أنّني كنت أتحرّى عن السبب، والله يعلم أنّ آنج كان لا ينفكّ في الليل يبحث هو أيضاً عن السبب ويتقلّب في السرير بدلاً من أن يستفيد شرعاً من النوم الضروريّ لعملنا نحن المعلّمَين المتحلّيَين بالصبر والوفاء والجدّ المتواصل. أفترض أنّ آنج لم يعثر مثلي على سببٍ وجيه ومع ذلك فقد أقلعنا عن التطرّق إلى هذه المسألة خشيةَ أن نُكسِبها بكلامنا عنها منحىً خطيراً.

كنّا نشعر بأنّنا بريئان، وبالخزي أيضاً.

3- كلّ تلك السنوات الجميلة

مضت خمس عشرة سنة على عملنا في هذه المدرسة. أحببنا رائحة الأروقة حين كنّا وحدنا في الصباح يفتح كلّ منّا باب صفّه المرتّب الذي، بلوحه النظيف، وأرضه الملمعّة، والترقّب المتواضع لأشيائه الثابتة المثابرة، كلّ هذا الدأب الساكن، إن أمكن القول، يستقبلنا ببداهته ويذكرّنا بودٍّ بمن نكون.

مضت خمس عشرة سنة على عملنا هنا. كنّا في البدء مجرّد زميلين، ثمّ زوجاً وزوجة، أي أنّ آنج هو زوجي وأنّني، أنا ناديا، زوجته.

كان صفّانا متجاورَين وقد اتفّقنا بشكل طبيعيّ تماماً، من دون استعجال ولكن من دون أن نتظاهر بأنّنا نريد أن نرجئ ما سيحدث حتماً. كلانا يحبّ مدرسته بشغف لا يمكن أن يفهمه إلّا عدد قليل من أمثالنا. قلت في نفسي: أليس هذا الشغف مغالياً في الكبرياء خلف مظهر التفاني؟ ألا يستحقّ أن يعاقَب وأن يُردع، ثمّ أن يُحال إلى تعبير أسهل ألا وهو التعلّق بالعمل؟

قلت في نفسي، من غير اقتناع، إنّه ربّما كان يكمن هنا سبب النفور العنيف الذي أثرناه، أنا وآنج لدى تلاميذنا، وأهلهم، والسيّدة المديرة، وجيراننا. افتقرنا إلى التواضع، وحاولنا أن نبلي بلاءً حسناً فَضَلَلْنا سواءَ السبيل.

ولكن هل كان خطأً بهذه الفداحة؟

4- يجب تكبّد المعاناة

جاوزتُ رجلا قصير القامة دون أن أعيره انتباهاً؛ كان يمشي ببطء على حافة الرصيف. ناداني بصوتٍ واهن:

- ناديا!

كان آنج، زوجي، يحمل محفظته تحت ذراعه ويلصقها بعناية إلى حوضه. تقدّمنا سويّة باتّجاه بنايتنا في شارع إسبري ديه لوا[1]، ولاحظت أنّه كان عليّ أن أكبح خطاي لكي لا أسبق آنج. لم نكن نتحدّث؛ لم نعد نجرؤ على أن يسأل أحدنا الآخر إنْ كان نهاره طيّباً ليقيننا التامّ أنّه لا يسعه أن يكون كذلك. وهكذا تقدّمنا صامتَين مطأطئي الرأسين، ناظرَين إلى الأرض، مُعرضَين عن ملاحظة كلّ ما من شأنه أن يضايقنا أو يزعجنا، وعن كلّ ألوان الكيد لأنّنا كنّا مدركَين أنّنا لن نواجهه إلّا بصمت أليم إذ هو يزداد مشقّة إنْ نحن تقاسمناه أكثر ممّا في الإصغاء إليه كلٌّ بمفرده.

الطقس بارد، وددت أن أقول لآنج: هيّا أسرعْ قليلاً، لكنّي لم أقل شيئاً. أبقى آنج سترته مفتوحة بالرغم من البرد، وكانت أزرار أعلى قميصه مفكوكة. لم يكن آنج، زوجي، معتاداً على الظهور مهملاً لا في هندامه ولا في أفعاله. ومع ذلك لم أقل شيئاً لخوفي من لفت الانتباه إلينا.

وطيلة تلك الأسابيع التي تغيّر خلالها تصرّف مَن حولنا بشكل جذريّ، متحوّلاً من اللطف الوقور إلى نوعٍ من الكراهية الذميمة، تسنّى لي أن أفطن إلى الظروف المحيطة بظهور هذا التصرّف أو ذاك. وهكذا بدا لي أنْ لا شيء سيحصل لنا في الشارع طالما بقينا صامتَين. بالطبع، كانت

(1) شارع في الوسط التاريخيّ لمدينة بوردو الفرنسيّة سُمّي كذلك تيمّناً بعنوان الكتاب الشهير للأديب الفرنسيّ مونتسكيو Montesquieu: روح الشرائع *De l'esprit des lois* وتخليداً لذكراه. (جميع حواشي الكتاب هي من وضع المترجمة).

نظرات مسمومة تصوّب نحونا، دون مواربة، وكأنّنا كنّا كلبَين متطفّلَين يبحثان في النفايات، كلبَين أجربَين لا يمكن النظر إليهما إلّا باشمئزازٍ. لكنّ أمراً إضافيّاً لم يستجدّ. كانوا ينظرون إلينا ويحكمون علينا بازدراء، وكأنّنا كلبان قذران.

لويتُ رأسي وهمست لأنج:

- أسرعْ، الطقس قارس البرودة.

كان يلهث، وجبينه متعرّق بالرغم من البرد. شدّ محفظته إليه بقوّة، مكتفياً بالعبوس، دون أن يحثّ الخطى.

قلت له وأنا أشير بذقني إلى المحفظة:

- هل تخاف أن ينتشلها أحد منك؟

اتّجه نحونا شابّ طويل القامة وسمع نبرة صوتي. كان وجهه في منتهى الظرف والودّ، ما حملني على عدم التفكير تلقائيّاً باتّخاذ جانب الحذر. لا بل إنّي بادرته بابتسامة غامضة، متفادية فقط أن أنظر في عينيه. بات آنج الكائن الوحيد الذي أستطيع النظر في عينيه مواجهة، ولكن بشكلٍ بات أقلّ تواتراً بسبب الحرج الذي يعترينا على مرأىً من أعيننا المذعورة، والارتياع الذي ينعكس في عيني كلّ منّا ويجعلنا غير أهلٍ للمواساة إذ امتنع علينا منحها، وعجزْنا عن تلقّيها. حتّى أنّني صرت أنظر إلى تلامذتي الصغار أنفسهم مواربة فأخاطبهم موجّهةً نظري إلى آذانهم أو أعناقهم.

توقّف الرجل حين صار بمحاذاتي، وأخذ يفرك يديه على فخذيه، وقال لي في ما يشبه النباح:

- ماذا هنالك؟ ما الأمر؟

قلت:

- لا شيء.

وانسلّ البرد تحت ياقتي؛ شعرت به ينزلق على طول ظهري، شعرت بأجفاني تطرف. وجعلت رغبة مفاجئة بالتبوّل أحشائي تنقبض. أضاف قائلاً:

- هل نظرتِ إليّ؟ هل ابتسمتِ لي؟ بأيّ حقّ تبتسمين لي أيّتها القذرة؟

استطعت أن أقرأ في عينيه الجميلتين المديدتين ذكاءً فاجأني، دون أن يطمئنني، لا بل بالعكس زاد من خوفي.

قلت:

- لا أعرف. عذراً... حقّاً لا أعرف.

قال:

- أحقّاً لا تعرفين! تبّاً لكِ!

تقدّم نحوي نصف خطوة. كانت شفتاه ممتقعتَين برداً وغضباً. انبعث منهما بخار ساخن استطعت أن أحسّ بدفئه على وجهي. أرجع رأسه إلى الوراء ثمّ أعاده بغتة وبصق على جبيني فبلّل البصاق طرّتي. قلت في نفسي: هذا لا شيء، فقط تبلّل شعري قليلاً، هذا لا شيء.

شددت ساقيّ الواحدة على الأخرى بقوّة. خفضت بصري ووجّهته إلى صدر الفتى، ورأيت هذا الصدر متسربلاً في كنزة حمراء يعلو ويهبط، يحرّكه خوف يكاد يوازي خوفي شدّة. تساءلت:ممَّ هو خائف؟ تراجع صدره ببطء ثمّ ابتعد خارجاً من مجال نظري.

سمعت خلفي خطى آنج، زوجي، تواصل تقدّمها الثقيل. فقلت في نفسي إنّ آنج توقّف وانتظر حتّى يُحلّ الخلاف الذي لا أعرف شيئاً عن أسبابه، ولكنّي أشعر بتردّداته على جبيني المتجمّد، مع ذاك الفتى ذي

الكنزة الحمراء المحوكة بأبسط طريقة، على غرار تلك التي كنت أحوكها فيما مضى لابني وأكسو صدره الصغير بصوفها الناعم الدافئ. قلت في نفسي: حسناً فعل آنج ببقائه على الحياد، فما جدوى تحدّي الشبّان ذوي المناكب العريضة والأيدي التي تهوى العراك ومواجهة غضبهم وخوفهم؟

تابعت طريقي دون أن ألتفت خلفي، مراعاة لِحزْنِنا المشترك. الطقس بارد. تذكّرت أنّ آنج لم يشدّ أزرار سترته ولا تلك الأولى في عُرى قميصه على الرغم من البرد.

الشارع الذي نسكنه هادئ ويعجّ خصوصاً بالأساتذة الذين أحيلوا إلى التقاعد والذين اعتدنا، أنا وآنج، على النظر إليهم بشيء من التعجرف لأنّ مهنتنا تثير زهونا، أمّا أن يكون المرء قادراً على الاقتناع راضياً بمواصلة حياته محروماً من هذه الوظيفة، فذاك ما كان يدهشنا ويبدو لنا مريباً.

سمعته يهمس لي حين وصلت بمحاذاة نافذته في الطابق الأرضي من المبنى:

- يا لتعاستكما! يا لتعاستكما!

كان عند الصباح قد همس بهذه الكلمات لدى ذهابنا أنا وآنج للعمل. توقّفت وقلت له:

- ما الذي يجري؟

ثمّ قلت:

- كيف تجرؤ على التحدّث إلينا هكذا، اسألك بجدّ؟

أغاظني التعاطف المصطنع والمقزّز لهذا الرجل الذي لم نكن نقيم له اعتباراً. ومع ذلك بقيتُ هناك على الرغم من البرد، حائرة، أحدج خدّ جاري بنظرة قاسية. وافاني آنج وهو ينهج. قلت له:

- لا يريد أن يشرح لي لماذا يرى ضرورةً لأن يرثي لحالنا صباحاً ومساءً، هذا مزعج.

قال آنج لاهث الأنفاس:

- لا عليكِ! لا أهميّة لهذا.

وبما أنّ الشيخ نظر إليه بإشفاقٍ متعمّدٍ حتّى لَتدمع منه عيناه، عدّل آنج كتفيه وزمّ شفتيه متجهّماً.

وكرّر الشيخ وكأنّ حساسيّته زادت من تأجّجها الجهود التي يبذلها آنج محاولاً إخمادها: «آه! يا لتعاستكما!»

ومن دون أن أحيّيه، فتحت باب المبنى وصعدت الطابقين وصولاً إلى قُرص الدرج أمام بابنا. تناهى إليّ بعيداً خلفيَ التنفّس الشاقّ الناهج لآنج؛ قلت في نفسي إنّه كان يتوجّب عليّ انتظاره ومساعدته في صعود الدرج فأحمل محفظته وأسند ذراعه. لكنّ خوفي من اكتشاف السبب الذي أضعف فجأةً الرجل الصلب الذي كانه آنج في جميع الظروف كان يردعني عن المسارعة لنجدته.

قلت في نفسي: لا يحتاج آنج لأحد، وهو رغم برودة الطقس لا يتكبّد عناء تزرير سترته ولا قميصه، لأنّ لديه، قلت في نفسي، بنية لا تُقهر.

رحت أذرع شقّتنا الصغيرة الأنيقة متظاهرة بالانشغال بحيث إنّه حين دخل آنج أخيراً لم أرفع نظري نحوه. استطعت بالضبط أن أسمع لأيّ حدّ كان ينهج محدثاً صفيراً شبيهاً بذلك الذي يصدره المشخِّرون أثناء نومهم. تهاوى آنج على إحدى الكنبات وانزلقت محفظته على السّجادة. باعد ذراعيه وحنى رأسه برفقٍ إلى المسند.

قلت مذعورة:

- حسناً، ما الأمر؟ وأنا أدرك بطريقة مبهمة فحوى الأمر أو طبيعة تلك المصيبة التي حلّت بنا، لكنّي حاولت قدر الإمكان، من خلال أسئلة وإيماءات (كنت أكرّر قولي: ما الأمر؟ وأنا أرفع ببطء يديّ إلى وجنتيّ) أن أرجئ اللحظة التي لن يعود باستطاعتي فيها التظاهر بعدم المعرفة وعدم الفهم.

كان قميص آنج ينشقّ عن فجوةٍ دامية عند مستوى كبده تقريباً.

قلت:

- حبيبي، حبيبي.

لم أكن معتادة، بسبب طبعي المتحفّظ والصموت، أن أنادي آنج بهذه الطريقة. لكنّي أضفت قائلة:

- حبيبي، حبيبي، وأنا أضغط على وجنتيّ وأسحقهما، راغبة في الاقتراب وعاجزة عن تحريك ساقيّ، غير قادرة إلّا على تكرار ما لا أقوله عادةً: آنج، أوّاه يا حبيبي!

5- كيف حدث أنّني لم أكن على علمٍ بما يجري

قلت:

- عليكما بالمجيء.

ووصلتا على الفور. كانتا تمتازان بحسّهما العمليّ والواقعيّ. كانتا طويلتي القامة وجسيمتي البدن على غرار آنج إلّا أنّهما تظهران حيويّة يبدو أنّها كانت تتجدّد دوماً من تأرجح التنانير الطويلة الفضفاضة المخشخشة التي درجتا على ارتدائها منذ المراهقة متجاهلتين الموضة. كان وجهاهما متشابهين، وكنت أخلط بين اسميْهما غالباً.

جئتا بالقرب من والدهما، قلقتَين متوتّرتَين ولكن من دون أن تظهرا أيّة دهشة أو ذهول وكأنّهما -قلت وأنا في حيرة من أمري- كانتا هنا في مواجهة وضعٍ سبق لهما توقّعه والتفكير فيه لا بل تمحيصه. قلت في نفسي إنّهما، بلا أدنى شكّ، معتادتان على معايشة ما تمرّان به في تلك اللحظة. ولكن كيف كان حدوث هذا ممكناً وأنا على هذا الجهل المطبق به، وأنا على هذه الغفلة؟

تمتمت أنّ آنج يرفض أن يُصطحَبَ إلى المستشفى؛ وكان هذا هو السبب في أنّني استدعيتهما. قلت بامتعاضٍ وأنا أرفع كتفيّ قليلاً:

- هذا ليس منطقيّاً.

قالت تلك التي يفترض أنّ اسمها غلاديس:

- على العكس، هذا منطقيّ جدّاً.

وقالت الأخرى وربّما كانت بريسيلا:

- لن يذهب إلى المستشفى. الأمر محسوم.

ورمتني بنظرة مندهشة يلوح فيها شيء من التبرّم.

ثمّ قالت:

- وفي آخر الأمر سيتسبّبون له في المستشفى بكلّ أنواع المتاعب.

قلت بطريقة آليّة:

- عن أيّ متاعب تتحدّثين؟

إلّا أنّني لم أكن أحرص على معرفة ذلك في تلك اللحظة.

قلت بصوتٍ عجول:

- ما العمل؟

كانت ابنتا آنج تدوران بحميّة ونشاط حول الكنبة التي يرتاح عليها

آنج صامتاً، متيقّظاً. كان يستمع إلينا ويتفحّصنا من دون أن يتظاهر بأنّه أضعف من أن يعطي رأيه. امتنع عن إعطائه لأسباب أخرى.

وقفت على مسافة بضع خطوات، ومع أنّه بدا لي جليّاً وضروريّاً أن أشارك في العناية التي شرعت غلاديس وبريسيلا في إظهارها لآنج، إلّا أنّني لم أحرّك ساكناً. شبكت أصابع يديّ حول بطني واكتفيت بالابتسام لآنج كلّما تلاقت نظراتنا وكان يبادلني ابتسامة متشنّجة، أليمة.

استطعت أن أشعر تماماً بِهوانه كما بِهواني وكأنّهما تيارٌ واحد يحملنا نحن الاثنين، لا يتركنا بضع ثوانٍ حتّى يجرفنا معاً دون أن يسمح لنا بأن نتلامس ونتعانق. سمعت تحت قدميّ الجلبة الخافتة المألوفة لجيراننا.

قلت:

- حان وقت تناول الطعام.

قالت غلاديس:

- أحضري لنا ماءً فاتراً وضمادات وكحولاً.

قلت:

- يا إلهي، أظنّ أنّه لم يعد لدينا ضمادات.

وتدفّقت الدموع من عينيّ.

قالت بريسيلا:

- أسرعي وأحضري لنا ضمادات من الصيدلية.

قلت:

- بإمكاني أن أطلب من الجارة.

قالت غلاديس أو بريسيلا:

- لم يعد الوقت يسمح بطلب أيّ شيء من أيٍّ كان. اذهبي واشتري

منها بسرعة.

ارتديت معطفي وخرجت في البرد القاتم. عدوت بخطىً صغيرة نحو الصيدليّة، متعثّرةً، مغمغمةً كلمات متنافرة. تناهت إليّ أصوات الأجراس المألوفة، الدقّات المتناغمة الرشيقة معلنة تمام الساعة السابعة، وكانت تعني لنا، منذ وقت ليس ببعيد، ببساطتها ودفئها، أوان التوقّف عن تحضير درس الغد والذهاب لاحتساء جرعات صغيرة من أوّل كأس نبيذٍ جيّد (كان آنج يقول عندئذٍ: أليست هذه هي اللحظة الألذّ؟ يقولها بدلالٍ كنت أحسّ به وأفهمه وأحبّه لأنّنا كلينا كنّا نعرف أنّ نهارات عملنا ليست مصنوعة إلّا من لحظات لذيذة كانت أفضل ما يمكننا الحصول عليه)، وها إنّ الأجراس الأليفة تقرع فيما كنت أترنّح على الرصيف المفروش بالصقيع، مُطرِقةَ البصر أتمتم دون أن أتوصّل إلى السيطرة على نفسي: ما الذي يحدث لنا، ما الذي يحدث لنا، ها إنّي أشعر أنّني صرت في منتهى الغربة عن نفسي ويستحيل عليّ القول أيّ وجهين لنا نحن الاثنين هما الحقيقيّان: وجهانا أنا وآنج ونحن نتذوّق وضميرنا بريء مرتاح مشروبنا اليوميّ، أم وجهانا أنا وآنج فيما تفرّقنا في ذاك المساء المصيبة والذلّة، إذ كان يبدو قليل الاحتمال أن تكتنف الحقيقة نفسها هذين المشهدين.

توقّفت مصغية إلى صوت الأجراس مستعيدةً أنفاسي. كان الشارع مقفراً تعبره ريح الشمال.

كانت الريح تزمجر وتحجب بزمجرتها رنين الأجراس التي كانت قد توقّفت ولا شكّ عن الصدح حين تراءى لي أنّي لا زلت أسمعها.

عاودت سيري حثيثاً. أحسست على وجهي الجامد ببرودة إطارَي

نظّارتيّ الحادّين. تركت الشارع لأسلك جادّة لانتاندنس[1]، ومع أنّه لا أحد هناك أيضاً، ظللتُ مطرقة البصر بحكم العادة، عادة اكتسبتها بسرعة قياسيّة. انزلقت نظّارتاي، وكالعادة أعدت رفعها على أنفي، وأنا أشعر بالاحتكاك البارد للإطارات المعدنيّة، وكان زجاجهما الذي يغشاه البخار يلامس رموشي المبلّلة بالدموع.

6- أحابيلُ صيد لانيّةٍ

قلت وكأنّني لم أكن واثقة من أنّه يمكن القبول بهالي:

- من فضلك أريد علبة ضمادات كبيرة.

وأظهرت لها الأوراق الماليّة وأنا أفتح محفظة نقودي على مصراعيها، مقرّبة إيّاها من الصندوق.

قالت بصوت لطيف:

- لا تشغلي بالك.

رميتها بنظرة. تذكّرتها. كنت الزبونة الوحيدة. وفي ذلك الدفء العطر، وأريج السكاكر بالعسل، والمراهم الحليبيّة، تلك الرائحة المحبّبة للمعرفة والدّقة، سمحت لنفسي بأن أخفّف قليلاً من حذري. نظرت إليها مواجهة كما في السابق. كان طفلها تلميذي منذ بضع سنوات ولكن هل كان صبيّاً أم بنتاً؟ وجوه جميلة يقظة لا عديد لها، فيض من الكمال الطفوليّ يمتزج في ذاكرتي ليصير وجهاً واحداً مجرّداً عذباً ذا فوارق رماديّة.

ووالدة التلميذ هذه هل كانت حسنة العشرة أم سيّئتها؟ كانت عيناها القاتمتان تروزان عينيّ. كانت الكآبة وأسىً له علاقة بي يجعلانهما أكثر

---

(1) أي جادّة المعتمديّة، وهي جادّة للمشاة مشهورة بفخامتها.

اسوداداً بعد.

قالت:

- أعرف ما حصل ولا أتقبّله.

لم تأتِ بحركةٍ وكأنّ التحدّث إليّ في هذه اللحظة بدا لها أهمّ من خدمتي. في الخارج، كانت الريح تصفر بشدّة مرسلة عصفاتٍ غير مسموعة من المكان الذي كنت أقف فيه مستندةً إلى منضدة الصيدليّة، واستطعت أن أرى خلف الواجهة الأوراقَ الميتة وقصاصاتِ الورق محوّمة في الاتّجاه نفسه. كان آنج وابنتاه في انتظاري، ابنتاه اللتان لم أعرفهما إلّا يافعتين كانتا تحاولان عبثاً أن تجفّفا الدم النازف من خاصرة والدهما، وربّما كانتا مندهشتين وقلقتين من تأخّري في العودة وبحوزتي الضمادات.

لكنّها لم تتحرّك من مكانها. كانت عريضة الوركين، راسخة، مهيبة. كان تودّدها ورغبتها في الإقناع وإظهار براءتها يجمّدانها أمامي صورةً تجسّد الألم والمواساة. قلت في نفسي: كانت تتوقّع رؤيتي قلقة المزاج، لكنّها كانت تخشى أيضاً ألّا تراني على هذه الحال.

قالت:

- أخبروني ماذا فعلوا به. آه، لا، لست موافقة أبداً على كلّ ذلك. فما الذي سيتبقّى لنا إذا كان الأساتذة، الأساتذة الجيّدون مثلك ومثل زوجك...

وتهدّج صوتها يعكرّه الغضب والإشفاق. توقّفت عن النظر إليّ وراحت تراقب بشيءٍ من الأسى الباب المزجّج الذي تُرى عبره الجادة الحزينة والترام الذي لا يزال حديث العهد يجتازها على فترات منتظمة،

بصفيره العابر، مضاء وشبه فارغ. قلت وأنا أبذل جهداً للتحدّث بهدوء:

- تفضّل ابنتا زوجي عدم نقله إلى المستشفى، لذا يلزمني علبة كبيرة من الضمادات.

قالت عابسة مذعورة:

- لا، لا، لا يجدر به إطلاقاً الذهاب إلى المستشفى. آه، لا أعرف في أيّ حال سوف تجدينه هذا فيما لو رأيته مجدّداً، سيقولون لك إنّه لقي مصرعه بين أيديهم وإنّه توجّب عليهم إحراق جثّته بأسرع ما يمكن وبالطبع ستدركين أنّها ليست الحقيقة. ولكن ماذا سيكون بوسعك أن تفعلي، ماذا سيكون بوسعك أن تفعلي؟ إيّاكِ والمستشفى، لن يُعالجوه بشكلٍ سليم.

قلت:

- في الوقت الحاضر، يجب أن أعود لأعتني بزوجي. شعرت من جديد بالدموع تتدفّق إلى حافة عينيّ.

قلت:

- وهذه الضمادات، ألن تعطيني إيّاها؟

قالت:

- بلى، سأعطيك إيّاها لأنّني لا أوافق إطلاقاً على ما يجري. ربّما لا يجدر بي أن أخدمك ولكنّي سأفعل ذلك لكي أعبّر عن استنكاري وأثبت لك أنّني، من ناحيتي، لا أنسى من أنتما حقّاً.

أدخلت يدها تحت الطاولة ووضعت أمامي علبة ضمادات. كانت مجموعة كاملة من العلب المتشابهة تماماً موضوعة خلفها. خطر لي أنّ تلك العلبة بالذات كانت مهيّأة استعداداً لزيارتي المحتملة. ولكن لماذا استبَقت

الصيدلانيّة هذه الزيارة وهذا الالتماس؟

ولكنّني استدرت بسرعة، استعجالاً منّي لموافاة آنج، ونهياً لنفسي عن أن أطرح على تلك المرأة الأسئلة التي تعتمل في داخلي، وكنت أتمنّى ألّا أسمعني أنطق بها، رغم معرفتي بضرورة طرحها. قلت في نفسي: لا يزال أمامي بعض من الضبابيّة والذّهول، وبعدئذٍ سأكون قادرة على أن أتقبّل رويداً رويداً معرفة ما يُعيبونه علينا، وأسباب حقدٍ كهذا لا يترك لديهم آثاراً، حقد بمثل هذا الاكتمال والصدق. ما جدوى الاستعجال في معرفته ما دامت هذه الأسباب ليست إطلاقاً منوطة بشيء فينا لن يكون في مقدورنا تغييره؛ ما جدوى المبادرة إلى الشكوى العقيمة وإدراك ضعفنا نحن أنفسنا؟

ومع ذلك، وفي اللحظة التي وضعت فيها يدي على مقبض الباب، مرّ الترام أمام الصيدليّة صامتاً مسرعاً وعلى متنه السيّدة المديرة لمدرستنا وحيدة في مقدّمته. قبالة الزجاج، كان وجهها الهادئ الصارم الشديد البياض يشلّه ضوء مصابيح الترام الباهر. وفجأة تبدّلت ملامح هذا الوجه الذي كان في غاية الجمود والبياض ليكتسي بدهشة مرتاعة ونفور ورعب ما إن التقت عيناها عينيّ عبر الزجاج. شيّعتني السيّدة المديرة بنظراتها إلى حين انعطف الترام عند زاوية الجادة، دون أن تبارح وجهها هذه الهيئة المرتعبة التي لم يسبق لي أن رأيتها قطّ عليها في أيّ ظرفٍ كان.

كانت الريح تزمجر على طول الواجهات القاتمة. وبغتة انهمر وابل غزير من المطر وانهال على باب الصيدليّة؛ أفلتُّ من يدي مقبض الباب والتفتُّ صوبها وأنا ما زلت مضطربة لرؤيتي الأثر الذي تركه وجهي بالذات على وجه السيّدة المديرة؛ أتُراه كان شيئاً آخر غير وجهي؟ أكان وجودي في هذا

المكان وفي هذه اللحظة بالذات؟ أم سيماء التهديد والرعب والنقمة التي ربّما اتّشح بها وجهي على غير علم مني؟

حينئذٍ وجّهت إلى الصيدلانيّةً السؤال الذي كنت قد تمنّيت الاحتفاظ به:

- ماذا فعلوا بزوجي؟

حملت يدها ببطء إلى فمها. خلتُ للحظة، إذ رأيت ملامح وجهها ترتجف، أنّها سوف تتغيّر كما تغيّرت السيّدة المديرة ذات الوجه الرخاميّ، الوجه المداهن والمتكلّف والشبحيّ، متحوّلة إلى رمزٍ للنفور. لكنّها اكتفت بالسعال الخفيف خلف يدها. قلت في سرّي: إنّها تحكم السيطرة على نفسها لأنّها كانت تستعدّ للصراخ، أو على الأقلّ، للتأوّه حين فوجئت برؤية وجهي مجدّداً بعدما أدرت لها ظهري مستعدّة للخروج. قلت في نفسي: لم تكن تتوقّع أنّه يتوجّب عليها أن تطيل جهدها للنظر إليّ مواجهةً، لذا كان تركيزها ومراقبتها لنفسها قد ضعفا.

قلت والألم يضنيني:

- ماذا فعلوا بزوجي؟

قالت:

- ألا تعرفين؟ هل تريدين أن تعرفي؟

قلت:

- لا أريد ولكن يبدو لي أنّه يتوجّب عليّ معرفة ذلك.

قالت:

- أجل، أجل، أفهم قصدك.

إشفاقٌ دبقٌ انداح من جيبِ قلبها المثقوب وكأنّه قيح. كانت نظرتها وقد اهتدت،

إذا صحّ القول، إلى الطريق القويم، طريق الرحمة، قد عادت تغمرني بدفئها وعذوبتها، بطيبتها الراضية.

فتحت فمها دون أن تقول شيئاً، وقد بدا عليها التردّد، والاضطراب.

تذكّرتها. كانت في مجلس الأهل في المدرسة منذ بضع سنوات. كانت أمّاً مندفعة، عريضة الوركين، مشاكسة، قليلة الرضى، تذكّرتُها... أبدت استياءها حيال رحلة مدرسيّة كنت قد نظّمْتُها متحجّجة بأنّ المتحف الذي قمنا بزيارته كان يحتوي عدّة صور عن أجساد متلاصقة وأفخاذ بيضاء، مقزّزة، وأقدام بعروقٍ نافرة زرقاء تتكئ على مؤخّرات بيضاء، مقزّزة. أمّا اليوم فقد بات وجهها حائراً كما لو أنّها، وقد اهتمّت لأمري، ما عاد يتوجّب بها أبداً أن تراني من جديد، دون أن يكون بإمكانها أن تفعل شيئاً. أحرجتني هذه الحميميّة، وهذه المشاعر المعلنة.

قالت:

- عليّ والحالة هذه أن أروي لكِ ما حدث.

قلت وأنا أشدّ بكلّ قوايّ على الكيس الصغير الذي يحوي علبة الضمادات:

- الوقت يداهمني.

ولكنّي لم أخرج مع أنّي رغبت في الخروج، أمسكني حماس نظرتها الرطبة، وحركاتها المتباطئة، وتحفّظها المصطنع. لم يعد بوسع شيء أن يمنعها آنذاك من أن تروي لي ما يتوجّب روايته، ما يتوجّب عليّ إرغام نفسي على الرغبة في سماعه، لا شيء، حتّى إذا كان الوجه الشاحب الهاذي للسيّدة المديرة يلتصق فجأة بالزجاج، وحتّى إذا كان زبائن يدخلون ويرونها منصرفة للتحدّث إليّ، مائلة نحو وجهٍ هو وجهي الذي لم يكن

يفترض به أن يوحي إلّا بالصمت. ثمّ انتابني الذعر لدى تفكيري بغلاديس وبريسيلا محاولتَين بصعوبة أن توقفا الدم، وتخيّلت آنج منشغل البال عليّ لتأخرّي في العودة، غارفاً ربّما من معين قواه القليلة التي تبقّت له.

ولكن لا شيء عاد بإمكانه ردعها عن أن تخبرني ما تعرفه عن الحادثة. قالت لاهثة الأنفاس:

- إنّها ليست غلطة أحدٍ بعينه بل هي أيضاً غلطة الجميع. أخبرتني ابنتي. لم تفعل شيئاً، فقط رأت، ولم تستقبح ما رأته لأنّ تلك الأفكار الخبيثة استمالتها هي أيضاً، وتستميل الآن حتّى الأطفال الأبرياء على الرغم من جهودي كي... كي أفهمها أنّه يجب ألا... وأنّ هذا ليس تصرّفاً مستحسناً. يا إلهي ما أصعب إفهام الآخر أصول التصرّف... أليس كذلك يا سيّدتي؟

قلت بعد هنيهة، مذهولة قليلاً من سماعها تدعوني «سيّدتي»:

- ولكن في هذه الحالة بالضبط، ما هو الأمر السيّء؟ وما هو الحسن؟ لا أعرف بعد عمّا تتحدّثين.

منذ كم من الوقت لم أسمع أحداً يناديني على هذا النحو؟ ذلك أنّ عبارات الاحترام باتت منبوذة، فهم ينادونني مباشرة باسم عائلتي أو بكلّ وقاحة: «يا أنتِ».

قالت:

- كلّ ما يتسبّبون لكما به من معاناة، وكأنّكما مذنبان وأنّه لا يحقّ لهم معاقبتكما، وهكذا فإنّ كلّ واحدٍ ينتقم على طريقته.

تحدّثت بعجلة كبيرة لخشيتها ظهور أحد ما أو لعلّها خائفة ليس من

أن يفاجئها أحد تتحدّث إليّ بل أن يحول ذلك دون إنهاء قصّتها. قلت في نفسي إنّها لا تقول الحقيقة ولا تعرفها. أخبرتها ابنتها أمراً لا تعرف عنه، هي الأمّ، شيئاً.

قلت رغماً عنّي وكانت أذناي تطنّان:

- ليست هذه الحقيقة.

قالت وقد فوجئتْ، وبنبرة يشوبها الغضب:

- بلى، إنّها الحقيقة.

شددْتُ بقوّة على علبة الضمادات بحيث إنّ الكرتون انسحق بين أصابعي. أخذ ذقني يرتجف إذ ألمّ بي غضب مفاجئ لا بل غيظ حاقد.

قلت حانقة:

- من لا يعرف الحقيقة، يصمت. ما تخبريني إيّاه لا معنى له. ماذا بإمكاني أن أفعل حيال أكاذيب مماثلة؟ قولي لي. محالٌ أن يكون الأمر متعلّقاً فعلاً بزوجي. الأمر محالٌ بكلّ بساطة، بكلّ بساطة. وانتهى الموضوع.

تراجعَتْ إلى الخلف، ثمّ سألتْ وعلى وجهها تعبير محايد:

- لماذا؟

ردّدْتُ بذهولٍ قائلة:

- لماذا؟ لأنّه لا يمكن إلحاق مثل هذا الأذى الفظيع برجلٍ رقيق القلب ومحترم، رجلٍ لم يرتكب أيّ ذنب. إنّها مسألة حسّ سليم، وهذا سبب كافٍ لرفض سماع مثل هذه الفظاعات. أليس كذلك؟

لم أضف شيئاً. هززتُ كتفيّ. كانت جلبة الريح التي تصفر دون توقّف تضعف قواي. قالت أيضاً، ببطء، بشيءٍ من الحياد اللطيف:

- إذن يبدو لك أنّ مثل هذه الأمور إذا حصلت فهي تتعلّق حتماً برجل آخر غير زوجك؟

قلت:

- نعم.

كان صوتي واهناً. نظرت إليّ بانتباهٍ وفضول.

ردّدْتُ:

- نعم

قالت:

- ولكن (والتصقت عندئذٍ رُسَابة بيضاء بشفتيها الرطبتين، فمسحتُ شفتيّ بشدّة، وشممتُ نَفَسَها الحامز، متذكرّة وجهها المشاكس، المحتدّ، خلال اجتماعات مجلس الأهل في المدرسة، هذه المرأة التي لا تملّ الشكوى والاحتجاج، والتي صارت ترثي لحالي وتريد مساعدتي، وكان هذا يرعبني)، ولكنْ، قالت، ما الذي يجعل رجلاً آخر غير زوجك، رجلاً ناضجاً وقادراً على الدفاع عن نفسه يستحقّ، هو، أن يفعلوا به ما لا تريدين أنت أن تصدّقي أنّهم فعلوه بزوجك؟ لا رجل في هذه المدينة يستحقّ ذلك، وكذلك زوجك أسوةً بغيره من الرجال، لا أكثر ولا أقلّ.

بدت مضطربة. هزّت رأسها وأرادت أن تمسك بيدي ثمّ غيّرت رأيها. سحبت يديها بسرعة. ثمّ أضافت:

- هذا ما عليك أن تفهميه، آه، أتوسّل إليك ألا فافهميه: الأمر هو أنّكما... أنت وزوجك، ليس لديكما ما يميّزكما. وهذا الذلّ لا يطالكما أنتما تحديداً دون غيركما، فمن ذا الذي يعرفكما، هل

تفهمينني؟ من يعرفكما خلا بعض الأفراد الذين هم مثلي... كما قلت لك، الأمر لا يتعلّق بكما أنتما تحديداً... كيف أعبّر لك عن قصدي... الأمر يتعلّق بمزاياكما الثابتة... بهذا التصلّب والنقاء، بطبعكما وعاداتكما، آه، كيف أعبّر لك عن قصدي...

قلت:

- نحن مثلكم.

قالت:

- هذا ما تظنّينه، ولكن، يا إلهي، أنت لا تفهمين قصدي وأنا لا أعرف كيف أعبّر لك عن... أنتما مختلفان جدّاً، وفي غاية... التباين مع الآخرين، ولكن إمّا أنّكما تجهلان ذلك وإمّا، لا أعرف، لا تريدان سماعه، لكنّي أعيد وأقول إنّ الأمر لا يتعلّق بكما أنتما بالذات، وما تثيرانه، في بعضهم، ليس فيّ، أتفهمين، ليس فيّ، من اشمئزازٍ وكراهية، لا يمكنكما أن تشعرا بهما حيال نفسيكما، ليس بعد على أيّة حال، و... سامحيني، الأمر في غاية الصعوبة، إنّكما تحملان على وجهيكما ما لا يحتمل الآخرون رؤيته... على أيّ وجه... وهذا شيء منفّر حقّاً، ليس لي، لا، ليس بعد، ولكنْ... ربّما سيعتريني هذا الشعور لاحقاً، فكيف بالمستطاع مقاومة الحجج، والتأثير الخفيّ للجوّ السائد... الأمر في غاية الصعوبة، وابنتي بالذات، وهي طفلة كانت تحبّ معلّمتها في المدرسة حبّاً جمّاً، كانت تحبّك كثيراً، صدقاً، ثمّ عادت إلى المنزل وهي تتفوّه ضدّك وضدّ زوجك بأقسى العبارات لدرجة أنّني استغربت ابنتي، وهي فتاة صغيرة في منتهى الخجل واللطف، عندئذٍ أشحت نظري عنها دون أن

أقول شيئاً. كنت أرتجف. خرجتُ من المنزل، كنت أظنّها مسكونة بشيطانٍ ما، خرجتُ تفادياً للتبعات، ولكن لا، لم يكن في تصرّفها أيّ شيء خارج عن المألوف بل فقط النفور المليء بالضغينة التي بدأ كلّ واحدٍ يشعر به حيال أناسٍ مثلك ومثل زوجك، وهذه الأمور، آه أجلْ، تنتشر، ومن الصعوبة بمكان مقاومتها...

قلت:

- هل تقصدين أنّها نوع من الموضة؟

قالت:

- لا، بل قولي إنّها موجة غضبٍ عارم.

وأخذت تضحك، ضحكاً متوحّشاً عصبيّاً قالبةً شفتيها وكاشفةً عن لثّتها، كمثل ذلك الضحك، تذكّرتُه وأنا أرتجف قرفاً، الذي به واجهتْ تلك المرأة اعتراضي الحسن النيّة خلال اجتماع مجلس الأهل في المدرسة، ونهشتني بأسنانها القويّة الفتّاكة، أسنان الصيدلانيّة.

قلت في نفسي تلقائيّاً: يا إلهي، هل صرت أتلقّى دعم عدوّتي وصداقتها؟ ألا تذكر ما فعلتْ بي آنذاك؟

قالت:

- أَوَ تعتقدين أنّ ذلك سيمرّ مرور الكرام؟ لا، وإن أردت الصدق، أنت لا تقدّرين ما يجري حقّ قدره. أجل، ربّما سيأتي الوقت، أخيراً، لتدركي ذلك.

صفعت نفحة هواء رطب ظهري. خَفُتَ هدير الترام بوضوحٍ، وبات غير مسموع وسط دمدمة عصفات الريح.

مرّرتْ يداً مرتجفة متوتّرة على المنضدة وكأنّها تريد أن تمحو كلّ أثر

لصلة بينها وبيني، ثمّ أقفل زبونٌ الباب خلفه، وفجأةً توقّفت دمدمة الريح.

أدخلتُ رأسي قليلاً بين كتفيّ. شعرت برقبتي تحرقني. وعندئذٍ رفع فأسه التي ما زالت ملّطخة بِدَمِ الآخر، دمِ الأستاذ المنكود حظّه، وبضربة انهال على جمجمة الـ...

قالت:

- مساء الخير يا سيّدي.

ندّت عنها حركة خفِرة، رفعت ثلاث أصابع نحوي برشاقةٍ وكأنّها تقول: «اذهبي!» وبان في نظرتها قلقٌ، مع أنّ التحبّب الذي تفرضه المهنة قد زادها رقّة. استدرت ببطءٍ ثمّ هرولت إلى الخارج مطأطئة الرأس، ومن حنجرتي تتصاعد همهمة ألقت في نفسي صدمةً وخجلاً. لأنّه لا فأس لديه ولم يكن في ذمّته أيّ دم أُريق، ولا أيّ رغبة في الانهيال على أيّ جمجمة كانت.

7- لا حاجة بنا إلى أصدقاء، لا، شكراً!

استطعت أن أسمع عبر الباب خشخشة تنّورتيْها الفضفاضتَين على طراز تنّورات الهنديّات.

كم من الوقت مرّ منذ خروجي من الشقّة، عجزت عن تقدير ذلك. حثثْتُ الخطى على طول طريق العودة، ليس دون أن ألتقي مرّة أخرى بالترام رقم 8 الذي مرّ من الجهة الأخرى وعلى متنه، دوماً أو من جديد، السيّدة المديرة الذي بدا لي وجهها الشاحب مصوّباً عمداً نحو ظهر السائق، عن رغبةٍ أو خوفٍ من النظر باتّجاه النافذة. لكنّي، في الواقع، لم ألمح على هذا الوجه شيئاً من شأنه أن يزعجني على نحوٍ خاصّ خلال

الثواني القليلة التي مرّ فيها الترام الصامت بمحاذاتي (كنت على وشك أن أجتاز السكّة فتراجعت إلى الخلف بقفزة واحدة)، وغمرني بنور حافلاته الباهر العنيف، ذاك النور الذي كان من التوثّب والقوّة بحيث يقذف على مسافةٍ بعيدة من جهتَيِ القطار سطوعاً قمريّاً.

كان في قلبي بعضٌ من فرحٍ. قلبي أرعن وبهج! لم يحدث لي أيّ مكروه، ما من فأس شجّت جبيني، ولا من قبضةٍ حطّمت صدري، ولا من شتيمة انطلقت ملعلعة من...

كان مطر جليديّ يتساقط. الجادّة مقفرة وتشعشع بالأضواء الكامدة. ومع ذلك ففي قلبي بعضٌ من فرحٍ. ولا أيّ مجهول حاول هذه المرّة أن يؤذيني.

فتحْتُ الباب فاستقبلني وجهاهما الصارمان المتجهّمان. لاحظتُ أنّ إحداهما محمرّة الأجفان، مع أنّها كانت في العادة امرأة باردة وعلى شيءٍ من انعدام الإحساس.

قلت بصوتٍ متهدّج:

- جلبت الضمادات.

قالت غلاديس:

- آه، الضمادات، أخيراً.

وقالت بريسيلا:

- لم نعد نعرف ما الذي يمكن فعله.

لحقتُهما إلى غرفتنا. كان كياني بكليّته يأبى الدخول. ومع ذلك أرغمت ساقيّ على الحراك ودخلت خلف غلاديس في الغرفة الصغيرة حيث كنّا أنا وآنج ننام كلّ ليلة، وحيث، على ما كان يبدو لي، لا أحد سوانا دخل مذ سكنّا الشقّة. وحده مصباح كان مضاءً في جهتِي من السرير.

زعق قائلاً:

- ها قد أتت سيّدتك.

قلت وقد جعلني الاشمئزاز أنتفض:

- ماذا يفعل هنا؟

التفتت بريسيلا نحوي متحقّقة من غضبي. ثمّ قالت:

- صعد إلى هنا. أراد أن يساعدنا.

قال الشيخ:

- جلبت لكما خبزاً ولحماً مقدّداً.

قلت مستاءة:

- لم يكن يجدر بكما أن تسمحا له بالدخول إلى بيتنا. يا إلهي، هذا... هذا الجار الفظيع!

وأضاف قائلاً:

- وأتيتكما بقليل من النبيذ، نبيذ قريتي اللذيذ، لكي أثبت لكما أنّني لا أتردّد في تقاسم الخبز والنبيذ واللحم المقدّد معكما. هذا كلّ شيء. وأنا الوحيد، أقول إنّني الوحيد فعلاً، في هذا المبنى، الذي يكنّ لكما مشاعر مماثلة، وهذا ليس فقط، كما بإمكانكما التصوّر، بسبب مهنتكما الشبيهة بتلك التي كان لي الحظّ بممارستها خلال...

قلت:

- اعذرني، اعذرني، لا أريد أن أسمع أيّ شيء آخر. عليك أن ترحل حالاً. ثمّ توجّهت لبريسيلا بالقول: لا أستطيع القبول بوجود هذا السيّد هنا. لم ننحدر بعد إلى هذا المستوى لكي...

قال:

- عفوكِ، لقد انحدرتما في الواقع إلى الدرك الأسفل، ولكنّ المسألة ليست هنا، لأنّه، وبعد كلّ حساب، لستُ ممّن يستعذبون اللّذة المريبة للتضحية...

قالت بريسيلا وقد رمقتني بنظرة أليمة مصدومة:

- لكنّه رجل طيّب، وأمثاله قليلون.

قلت:

- أرجوكَ، ارحلْ من هنا. أرجوكِ يا بريسيلا، اجعليه يرحل. هذا إذلال محضٌ.

صرخت غلاديس:

- ولكن ألا فاصمتي! انظري إلى أبي: إنّه يُحتضر!

وضعت للحال يديّ على أذنيّ. كيف بإمكانها أن تتكلّم هكذا أمام الجار؟

قال:

- أدركت أنّه يجب أن أساندكما بالرّغم من معارضة الجميع، حين بدأ صوت واهٍ يجول ويجول في رأسي أشبه بصوت عصفور صغير مذعور، وأقنعني أنّكما هالكان، وتذكرت أنّنا نحن معشر الأساتذة المتفانين، المهتّمين بمهنتنا لا غير، لسنا مهيّئين إطلاقاً لمواجهة أوقات مماثلة. ثمّ أضاف بصوته الشاكي القانع الرتيب: إنّ ألماً مماثلاً كان سيدمّر فعلاً حياتي أسوة بكما، وأعرف أنّني أدين للحظّ وحده بأنّي لم أعقد زواجاً مع امرأة مثل...

قلت:

- آه، لكن الأمور ليست بالسوء الذي تتصوّره.

وقالت غلاديس متوسّلة:

- توقّفا، أنتما تعذبّان أبي المسكين.

قلت:

- عليه إذن بالرحيل.

كان جالساً قرب السرير، على كرسيّ منخفض، وركبتاه الهزيلتان بمحاذاة ذقنه الذي عرته رجفة خفيفة، وقد بدا مرتاباً وقلقاً في الوقت نفسه. رأيته متجمّعاً في مقعده، متشبّثاً بطريقة خفيّة بحافّتيه مصمّماً على عدم السماح لأحدٍ بإزاحته من مكانه. رمقني بنظرة حاقدة ومستفزّة. سأذهب حين أستحسن ذلك. لسْتِ أنت من يقرّر. وواجبي سأتّمه حتّى النهاية. كان يرتدي ملابس رثّة ومتسّخة وممزّقة. وكانت لحيته طويلة رماديّة وشعيراتها متراصّة.

قلت في نفسي فجأة: لم يسبق له قطّ أن كان أستاذاً لكنّه يكذب لكي يتقرّب منّا.

سألته:

- في أيّ مدرسة كنت تدرّس؟

قالت بريسيلا:

- أيّ أهميّة لذلك!

وقال وهو يجهد ليبدو رصيناً:

- في مدرسة فولتير في جادّة لويس بينو. درّست التاريخ والجغرافيا.

- ومن كان مدير المدرسة؟ سألت هكذا دون داعٍ لأنّي أجهل من يكون.

- كان المدير في ذلك الوقت... لم أعد أعرف... ربّما كانت السيّدة

برنار هي المديرة.

قلت مثبّطة العزيمة:

- آه، ممكن!

تمتمت من جديد وأنا أشبك يديّ على صدري:

- هذا ممكن، في نهاية المطاف.

كانتا تقفان من جهتي السرير متصلّبتين ومتوتّرتين، يجمّدهما جحودهما وعجزهما عن الفهم. لم تحبّني هاتان الفتاتان يوماً وكانتا تفضّلان أن يبقى والدهما مع أمّهما حتّى إذا أجازتا لنفسيهما تغيير رجل كلّ عام؛ ثمّ ما شأني بما تفعلانه؟

اقتربْتُ من سريرنا وأذناي تطنّان. ما همّي من كلّ ذلك، من كلّ ذلك، من كلّ ذلك.

غمرت رائحة الدم الغثّة النتنة منخريّ.

رفع آنج، وقد بدا أكثر حيويّة ممّا كانت ابنتاه تريدان الإيحاء به، عينيه صوبي وأدركَ في الحال أنّني كنت أعلم ماذا فعلوا به، ومن جديد كان الشعور بالعار يحدق بنا كلينا، هذا العار القديم الذي عرفناه بعمقٍ وألزمنا بالتسليم بأنّنا تميّزنا بالطريقة الأكثر ابتذالاً، حتّى لو كنّا نجهل السبب.

خفض عينيه في الحال. كان وجهه شاحباً، لامعاً، يتصبّب منه العرق بطريقة مقزّزة. أمسكت بلطفٍ يده الموضوعة على الغطاء الملطّخ بالدم.

قلت بصوت يكاد لا يُسمع:

- حبيبي.

ضغط بأصابعه على أصابعي. كان ينهج متنفّساً بصعوبة، ومع ذلك شعرت أنّه يبذل جهداً ليبقى متكتّماً كعادته دوماً.

قلت في شهقة:

- حبيبي.

ثمّ التفتُّ إلى الشيخ الذي، لفرط ما قرّب وجهه ليسمع، لامس الأغطية بلحيته المقرفة.

قلت:

- عُدْ لمنزلك. أعطيك مالاً إن أنتَ رحلتَ الآن.

قال وقد بان عليه أنّه أهين في كرامته:

- لست بحاجة للمال.

تمتم آنج:

- هيّا دعك من هذا.

قال:

- أُورِثْتُ مرّات عدّة في حياتي.

قالت غلاديس:

- والآن كفاكِ لؤماً مع الناس الكرام.

قلت:

- كلّ هذا لا يطاق.

وسقطتُ جاثية قرب السرير. ثمّ دفنت وجهي المحموم في الفراش ضاغطة يد آنج على جبيني وشعري.

قلت بالصوت الأكثر خفوتاً الذي كنت أقدر عليه، صوت بدا وكأنّه صدِئ، ذابل:

- أرأيت، أرأيت يا حبيبي، نحن، آه يا حبيبي، أناس محترمون وهذا أمر يُسجّل لنا، أجل، لم نقدر على منع أنفسنا من إظهار احترامِ

حتّى للإهانات التي كنّا هدفاً لها، أجل، ذاك الاحترام المكتوم والجبان. وحتّى لهؤلاء الذين كانوا يهينوننا، كان لدينا ذاك النوع من الاحترام، لأنّنا نحترم كلّ قانون عامّ ما إن يصدر أو كلّ شكلٍ لقانون عامّ، أجل، نحترمه. وإذا كان هذا القانون معاكساً لنا وجائراً ومنفّراً، فإنّنا نقول في أنفسنا إنّ القانون لم يوضع ليرضي الجميع بشكل مطلق وإلزاميّ وإنّ القانون، وإن يكن شكليّاً، ليس موضوعاً لإرضائنا، نحن تحديداً، وإنّ هناك، من جهة أخرى، عدداً لا يستهان به من القوانين التي تناسبنا أو تعمل لصالحنا. ألم يكن هذا ما خَطَرَ لك يا حبيبي، يا حبيبي التعس الحظّ، حين كنت تمشي خلفي وأنت تحاول أن تخفي جرحك خلف حقيبتك، ألم يكن هذا ما قلته في نفسك تقريباً: بعد كلّ حساب لا أحد يُفترَض به أن يسرّني بأن يعاملني كما أستحقّ فعلاً، وهناك بالطبع حالات عليّ فيها أن أقبل بأن أُعامَل كما لا أستحقّ، في سبيل خير عامّ لا أدركه؟ بلى، هذا ما كنت تفكّر به، بدافع الفخر، وهذا ليس أمراً حسناً، ليس كذلك على الإطلاق...

قال الشيخ بظفر:

- عليك باحترامي أسوةً بالجميع.

تمخّط بصخب بمنديل من ورق ثمّ صنع منه كرة ورماه أرضاً ثمّ دفعها تحت السرير بضربة من قدمه.

سأل من جديد مصطنعاً التواضع:

- هل أستطيع التدخين؟

قالت بريسيلا:

- سأجلب لك منفضة.

تمتمتُ:

- ليس لدينا منفضة. نحن لا ندخّن. آه يا إلهي، التدخين ممنوع هنا ولا جدال في الأمر.

عاودت رفع رأسي. كان طرف أنفي مكشوطاً بسبب إطارَي نظّارتيّ اللتين لم أنزعهما عندما مرّغت وجهي في الفراش.

قلت لابنتَيْ آنج:

- وأنتما، لَمَ تراعيان هذا الرجل إلى هذا الحدّ؟

همس آنج بنفاد صبرٍ يائس:

- دعيهما، دعيهما.

وانتزع بحنقٍ يده من يديّ ثمّ استدار إلى الجهة الأخرى من السرير.

قال متأوّهاً:

- أريد أن أنام.

قلت:

- أريد أن أراه... الجرح.

شعرت أنّ نظارتيّ ملتويتان، وأنّ وجهي متوهّج وملتهب، وشعري مشعّث. ابتسمت غلاديس خطفاً بالرّغم من قلقها. أيّ ابتسامة خبيثة انطلقت من خبث روحها الذي كان محتجباً، أيّ قساوة يحتويها كلّ هذا الجسد، ومع ذلك فإنّهما ابنتاه المحبّتان والمحبوبتان من لدنْه، ابنتان سافلتان قد يعطي من أجلهما، إن يستوجب الأمر، حياته كلّها.

بريسيلا التي كانت مختفية، دخلت الغرفة من جديد ووضعت على الأرضيّة بين ساقي الشيخ وباحترام خاصّ، غطاء حُقّ المربّى.

قالت:

- إليك بالمنفضة.

قبّل يدها وكانت عيناه بليلتين.

قلت في نفسي بغتة: وماذا لو كانتا هما اللتان دبّرتا مكيدة لكي تُدخلا الجار إلى بيتنا، فما معنى ذلك وما هي الاستنتاجات التي يتوجّب عليّ أن أخلص إليها؟

لم يأتني أيّ جواب من أيّ نوع كان. شعرت بأنّي كنت معجونة بالاضطراب والخوف والتردّد. مددت يدي لأرفع الغطاء الذي كان يغطّي آنج حتّى الصدر، لكنّه أعاده إلى حيث كان متذمّراً متشبّثاً به بقبضتيْه المشدودتين تحت ذقنه.

قلت بلطفٍ:

- دعني أرى.

قالت غلاديس:

- لم يعد يريد أن نلمسه، يدّعي أنّه لا يزال لديه الحقّ ليلزمنا بألّا نلمس جرحه، وحتّى بألّا نتفحّصه.

هزّت رأسها عاجزة حزينة ومع ذلك بدت ساهمة وخاضعة بشكلٍ غريب.

قلت بحزمٍ:

- إذن علينا استدعاء الطبيب.

انقلب آنج على ظهره وعلى وجهه تكشيرة الألم. لم يعد وجهه معروفاً وقد زاده العذاب نحولاً وكذلك نوع من الغضب المتواصل الذي لم أعهده قطّ في علاقتي به، ولم أكن لأتخيّل رؤيته لكثرة ما كان آنج يُظهر في العادة

تسامحاً لا يكلّ وصبراً يقرب من الجبن، أحياناً.

صرخ بصوتٍ أجشّ:

- لا! لا! هل هذا مفهوم؟

وأطلق تأوّهاً طويلاً جعل جسدي كلّه يرتجف. وسمعت فيه، ليس فقط الألم بل الغضب والاضطراب على حدٍّ سواء.

قلت متوسّلة:

- ماذا يجدر بنا أن نفعل؟ أرجوك آنج؟ ما العمل؟

استدار في السرير مبيناً لنا ظهره، متشبّثاً دوماً بالغطاء وكأنّه كان يخشى أن أخفضه عنوة. ثمّ أغمض عينيه وكان يشدّ على أجفانه، ويئنّ قليلاً.

قلت لابنتيْ آنج:

- يا أنتما! بدلاً من أن تكتفيا بالنّظر هكذا! قولا ما الذي تقترحان فعله؟

جثت بريسيلا بالقرب من الشيخ. أرجعت شعرها الطويل إلى الخلف وداعبه الشيخ بيده خلسة دون أن يسعى لإخفاء ذلك. لم أستطع أن أمتنع عن إبداء صيحة تعجّب.

قلت:

- ما الذي يحدث هنا! كم من الأمور الجديدة عليّ!

قالت غلاديس على الفور:

- هذا لا أهميّة له.

وفجأة، وقد أخذني دوار، جلست على حافّة السرير ملتصقة بآنج فشعرت في حقويّ بحرارته المرتجفة. إنّه مصاب بالحمى ولذا كان ربّما يتصرّف معي بهذه الغرابة.

خلعت نظارتيّ وحجبت عينيّ بيديّ ومكثت هكذا بضع دقائق أفكّر، ولكنّي كنت عاجزة في الواقع عن جعل أفكاري تتعاقب بطريقة منطقيّة وناجعة. كانت موجة من الكلمات المشوّشة تتدحرج في ذهني. شعرت بأنّي كنت، خلافاً لما يتطلّبه الموقف، شاردة الذهن وخائرة القوى تماماً في آنٍ معاً. كلّما حاولت تجميع أفكاري أفلتت منّي وحين كنت أتوصّل أخيراً إلى الإمساك ببعضها بدت لي دون فائدة أو نتيجة ترجى منها، وهكذا جعلتُها تجري بِحريّة وغرقْتُ من جديد في الغياب اللامفهوم.

خلفي، لم يعد آنج ينبس بكلمة. وهذا أراحني وكأنّني أُعتَقُ من ألم. يا للراحة الدنيئة لأنّه من ذا الذي يتألّم أكثر ههنا، من الذي يحتاج حقّاً للتخلّص من عذابه؟ أخفضت يديّ وارتديت من جديد نظّارتيّ الملتويتين. التقت نظرتي بنظرة الشيخ. بدا قلقاً أو أنّه تظاهر بانشغال البال. بريسيلا الجاثية إلى جانبه رفعت إلى وجهه المنفّر عينين مليئتين رجاءً.

قال:

- لا أعرف، لا أعرف لكنّي أعتقد أنّ...

قالت غلاديس متوسّلة:

- أن ماذا؟

- لديّ شعور بأنّ والدك، ذاك الرجل الذي أحبّه مع أنّه لم يتكرّم عليّ يوماً بتحيّة الصباح، أقصد بتحيّة صادقة وودّيّة، لديّ شعور بأنّه يحاول، يحاول أن يتظاهر، كما ترين، وكأنّ شيئاً لم يكن...

- ماذا تقصد؟

لَم بدت غلاديس وكأنّها تأمل استيضاحاً حاسماً من هذا الرجل الذي اعتبَرناه دوماً أنا وآنج في سرّنا عدماً معدوماً؟

حاولت أن أتذكّر ما إذا كنّا أظهرنا ذات مرّة احتقارنا علانية. كنّا نتقصّد بشكلٍ سافر التظاهر بعدم رؤيته عند نافذته في الطابق الأرضيّ في حين أنّنا كنّا نلامسه لدى مرورنا، والتظاهر بالانتفاض جافلَين لدى سماعنا تحيّته ثمّ بالردّ عليها باستياء مصطنع، وتريّث، وبعدئذ كنّا نحثّ الخطى لكي لا نسمع شيئاً ممّا قد تحدّثه نفسه بإضافته؛ ولكن هل كان هذا تصرّفاً بغيضاً إلى هذا الحدّ؟ هل كان غريباً فعلاً؟ كان الوحيد في المبنى كلّه الذي لم ندعُه إلى احتساء كأس نبيذ على شرف ولادة حفيدتي، ولكن هل كان لزاماً علينا تقدير الجميع؟

لا، لا، لم يحدث معه شيء جدير بالملاحظة. كان كلّ شخصه يوحي لنا ببساطة بالضجر والحزن.

لم يعد يقول شيئاً. أبدت بريسيلا صبراً وراحت تلهو بحليةِ تنّورتها. كان يمدّ أحياناً إصبعه نحو شعر بريسيلا اللّمّاع ويلامسه دون خجل أو تحدّ، وبدا لي أنّها كانت تبتسم له بلطف كمن تسرّه المداعبة. أمّا غلاديس، فراحت تذرع الغرفة دون أن تفارق الشيخ بنظرها.

تنحنح الشيخ وقال بتواضع:

- اعتبرني والدك دوماً رجلاً تافهاً، أو بالأحرى، ربّما كان سيحكم عليّ بوصفي أحقر الكائنات لو خطرَ له أن يسأل نفسه عن رأيه بي، إلّا أنّه لم يخصّص لي ثانية واحدة من تفكيره، وهذا دليلٌ على أنّني لم أكن موجوداً بالنسبة له.

قالت غلاديس:

- أيُعقَلُ هذا؟

وسمَ الانزعاج والألم والحيرة وجهها بلطخاتٍ حمراء. نظرت إليّ بشيءٍ من الحقد، وكأنّها كانت تعزو إليّ تأثيري على والدها وجعله رجلاً بمثْلِ

هذا التكبّر. هززت كتفيّ استخفافاً: غفا آنج. كان جهله لما يقال عنه، وبراءة شخيره الخفيف يضفيان، قلت في نفسي، سخفاً وبلاهة على كلمات الشيخ.

قلت وأنا في ذروة القلق:

- ماذا تريد أن تثبت؟

قالت غلاديس متوسّلة:

- لا تكوني بهذه العجرفة.

كانت مذعورة تسند خدّيها بيديها الاثنتين. فأدركت أنّها كانت تخشى أن يصمت ذاك الذي كانتا تتجرّعان كلماته بنهمٍ لا يوصف.

أعدتُ سؤالي متبرّمة:

- ماذا تريد أن تثبت؟

لكنّه لم يعرني أيّ اهتمام. ودون أن يرمقني بنظرة، توجّه إلى ابنتَيْ آنج، وهما امرأتان شابّتان مكتنزتان كوالدهما ولديهما شعر ذو غزارة مذهلة، وكانتا تربّيان معاً أولادهما الكثيرين بعد أن تخلّتا عن أزواجٍ كُثرٍ غير مُرضين.

قال:

- والحالة هذه، سيُفاجأ والدكما فعلاً لدى علمه أنّني أعرفه تمام المعرفة.

قالت بريسيلا:

- لا، لن يُفاجأ البتّة.

قالت غلاديس:

- لا بل كان مسروراً لرؤيتك تدخل إلى الغرفة منذ قليل.

قلت في نبرة استهزاء خبيثة:

- ذاك جديد آخر. ثمّ أضفت: على فكرة كيف حال الأولاد؟

قال وقد بدا مسترضياً وراضياً:

- على أيّة حال، إنّه على الارجح يجهل أنّني أمضيت كلّ هذه السنوات وأنا أراقبه، تُلهمني العاطفة غير المشروطة وكذلك الإعجاب الذي يقارب الشغف... إذا صحّ القول... الذي أوليه لأعماله...

قلت بنبرة أقلّ قساوة:

- نعم، أعماله.

قالت بريسيلا:

- أيّ أعمال؟

- اهتمّ آنج دوماً بـ...

وقاطعني الشيخ قائلاً:

- مقالات شتّى نشرها والدكما في مجلّات ممتازة مكرّسة للتربية والطرق الجديدة في التعليم في المدرسة الابتدائيّة، هذه المقالات التي قرأتها واحتفظت بها بعناية، أثبتت لي أنّ والدكما لم يكن فقط رجلاً ذكيّاً ومثقّفاً بل كان أيضاً مفكّراً حقيقيّاً في ما يتعلّق بمهنته. وبما أنّ هذه المهنة كنت أنا نفسي...

قلت:

- كاذب، محتال.

صرخت غلاديس:

- لا يحقّ لك الكلام على هذا النّحو!

قال بصوت عذبٍ رقيق وكأنّه صوت كاهن يعلو على الصغائر:

- بارعة في الشتائم لكنّها تجهل كلّ شيء عن ماهيّة القرائن.
قلت:
- أعرف ما فيه الكفاية لأمتنع عن التعاطي معك. أسألك أن ترحل من بيتي.

وعندئذٍ أمسك بحافّتي المقعد متشبّثاً بهما. التقت نظرتي بنظرته القاتمة الباردة، المخادعة لكن غير المجرّدة تماماً من رغبة ما في المصالحة أخرجتني فجأة عن طوري. نهضت بوثبة واحدة جاعلة الفراش حيث ينام آنج نوماً عسيراً يرتجّ. ذهبت لأمسك بالشيخ من كتفيه متهيّئة لطرحه عن كرسيّه أرضاً إن لزم الأمر، لكنّ هذا القرف الذي تولّانا دوماً حيال جسده الضعيف المتهدّل، اللامتوازن بغرابة لسمنته في بعض المواضع ونحوله في أخرى، جسده المتبطّل الذي يبدو وكأنّه التجسيد الحيّ لالتباسه المشين وربما لازدواجيّته الجنسيّة (لأنّ لديه بالرغم من لحيته تصرّفات أنثويّة غريبة)، هذا القرف الذي كنّا نجد، أنا وآنج، متعة غامضة في أن ينتابنا معاً، جعلني أخفض ذراعيّ.

بقيتُ أمامه، متصلّبة غضباً، آملة فقط ألّا يعتبر تراجعي إذا ما لحَظَهُ خوفاً. **إنّ تبطُّل المتقاعدين هذا الذي لا يطاق، هذا الإقصاء الطويل والكئيب والرسميّ لِما كان يكاد يشكّل بالنسبة لي ولآنج المحور الوحيد الأهمّ في الوجود، ألا وهو عملنا، على أيّة حال هذا التبطّل بالذات هو ما كان ينفّرنا منه ويجعلنا نكرهه كرهاً فظيعاً: كان مجرّد منبوذ لا أكثر، وكان مدركاً ذلك ويستجدي صداقتنا وتعاطفنا. لم يكن عليه استجداؤنا على هذا النّحو. ناهيك عن أنّ الحرمان من العمل حرمان من الحياة نفسها.**

نخرَ الشيخ، فمدّت له بريسيلا منديلاً من ورق. تمخّط على عجلٍ ومن جديدٍ صنع من منديله كرةً وقذفها تحت السرير بحركة رشيقة بسيطة ثمّ

مسح منخريه بإبهامه وسبّابته.

قال:

- كنت أشعر أنّ والدكما سيرتكب الخطأ الذي يرتكبه الآن، ومع ذلك فإنّي بالطبع أحبّه كما كنت أشرح لكما منذ قليل، لكنّي أعرف أيضاً أنّه يعاني من نقيصة، هي الكبرياء، وهي بالرغم من كلّ شيء، عليّ الاعتراف بذلك، أحد الأسباب التي لا يمكن تجاهلها وتجعل من والدكما الرجل المرموق الذي تعرفانه.

قلت:

- ليس آنج متكبّراً. هذا قول سخيف. آه، نسيت، لا أريد أن أتجادل معك.

قالت غلاديس غاضبة:

- إذن اصمتي ودعيه يتكلّم.

قلت:

- أنتم جميعاً في غرفتي، لمَ عليّ أن أرضى بذلك وأصمت؟

قالت بريسيلا:

- الوضع تغيّر.

قال:

- نحن لا نريد إلّا مساعدتكما فما المهين في ذلك؟ لا شيء مهين إذا ما فكّرنا في الأمر.

قلت:

- لا شيء خطير إلى هذا الحدّ. سنواجه الموقف.

شعرت باحمرار مفاجئ يجتاح وجهي. عاودت الجلوس برفقٍ لصق

ظهر آنج. كان شعره الأشيب يبين من الغطاء منتفشاً بشكلٍ لم يسبق لآنج أن سمح لأحدٍ برؤيته، ولا حتّى أنا، زوجته، لأنّه كان يستيقظ دوماً قبلي ويهرع كلّ صباح لتمليسه بزيت خاصّ بالشعر. وها قد لاحظْتُ بين الخصلات المشعّثة فروة رأسه تتخلّلها بقع بنيّة. انحنيت فوقه لأسوّي له شعره بحركة خفيفة من يدي قدر الإمكان. لكنّي ما كدت ألمسه حتّى انتفض في نومه وبدأ يتلفّظ كلمات غير مفهومة. حينئذٍ خشيت أن يصوغ فجأة عبارات مفهومة وأن يكشف عمّا لا يجدر به أن يكشف في جلسة كتلك، فسحبت يدي، وهدأ روع آنج في الحال.

قال الشيخ مماحكاً وبتواضع زائف:

- وهذه الكبرياء، كما قلت آنفاً، ليست مدانة بحدّ ذاتها، أبداً لم أدنها، ولا حتّى، يمكنني القول، عندما كانت هذه الكبرياء توقّع مبدئيّاً على الحكم بالإعدام الحقيقيّ الذي وجّهته أحكام والدكما المسبقة بحقّ شخصي الفقير، لأنّني، وكما كنت أصف لكما الوضع، لم أكن ببساطة موجوداً في نظره. ومع ذلك عليكما أن تعرفا أنّني لا حقد لديّ. لماذا كلّ شيء يوحي لي الآن بأنّ تلك الكبرياء اللعينة تدفع والدكما إلى نكران تعرّضه لحادثٍ؟ آهٍ، أرى ذلك وأشعر به. يريد لإصابته أن تشفى بمعجزة وعلى وجه السرعة حتّى لا يعود يحكى أنّه أصيب بأدنى جرح. يريد العودة إلى عمله وألّا يتحدّث أحد عن الموضوع بشيء. لذا فإنّ هذه الحالة النفسيّة هي أسوأ ما يمكن أن يحصل لامرئٍ في لحظة كهذه، عليكما فهم ذلك جيّداً، وأنا أتيت إلى هنا محاولاً إقناع والدكما أنّه يجب ألّا ينسى جرحه، هل تدركان هذا؟ عليه ألّا ينساه ولا بأيّ حالٍ، ولا بذريعة عمله أو عنفوانه أو

أيّ شيء آخر. لأنّه كما، تريان إذا عاد للسقوط في رذيلته أو أصرّ على رغبته في التظاهر بأنّ حالته ليست حرجة بشكل جادّ فإنّ هذا تحديداً ما سيجعل الأمور تسير بشكل أسوأ، أسوأ بكثير.

أخذتُ أضحك بشيء من الحماس الزائف:

- وإذا كانت حالته حرجة فما دخلك أنت؟

قال وهو ينحني بطريقة تكاد لا تُرى:

- السيد نوجيه. ريشار فيكتور نوجيه.

قلت:

- لم أكن أسألك عن شيء وخصوصاً عن اسمك. آه، لم أعد أذكره منذ الآن.

قالت بريسيلا متمتمة:

- إنّه اسم متميّز.

قالت غلاديس:

- لو كان أبي مستيقظاً وسمع هذا الاسم لارتجف متأثّراً.

قلت:

- لا أعرف هذا الاسم ولا أريد أن أعرف عنه شيئاً.

رمقني بنظرة حزينة تبرز فيها، مع ذلك، سخرية مهينة لي، ما أثار غضبي الشديد. بحثت عن جواب مفحم. ولكن حين هممت بالنطق بالكلمات الأكثر تجريحاً، فإنّ الدموع هي التي انهمرت من عينيّ ومن فمي.

قلت:

- أنا متعبة حقّاً... عليَّ... غداً... أن أعود إلى المدرسة. لو سمحتم، دعوني أرتاح.

قال وقد بدا عليه القلق:

- لا أنصحك بالعودة إلى المدرسة.

قلت وأنا أحاول أن ألجم فواقي المتشنّج الباعث على الإشفاق.

- وما همّني أنا من نصائحك؟

قالت بريسيلا:

- نغادر الآن ونعود غداً.

نهضَتْ ببطء وكأنّما على مضضٍ. شعرْتُ لدى ابنتَيْ آنج بضغينة شديدة حيالي أجّجها للتوّ -ذلك أنّ هذا الحقد كان قد استكان على مرّ السنين- رفضي الاعتراف للجار بالنزاهة أو بالنفوذ أو بإمكانِ قرابة فكريّة معنا.

ونهض، بدوره، متردّداً مثلها. وكأنّهم ثلاثتهم كانوا يتصوّرون أنّ غيابهم سيجعل حالة آنج تتراجع بشكلٍ بالغ الخطورة، أو كأنّهم كانوا يتصوّرون أنّ جديّتهم، ومبالغتهم الدراماتيكيّة في تصوّر الأحداث هي التي تمسك به على حافة الهاوية التي سأدفعه إليها ما إن يستديروا على أعقابهم، بسببٍ من غفلتي ووقاحتي، أو كأنّهم كانوا يخشون أن أرتكب فعلاً وقحاً أو خطيراً أو أن أتصارع، مثلاً مع آنج، ليدعني أعاين جرحه...

رافقتهم ثلاثتهم إلى باب مدخل الشّقة.

كانت قامته من القصر والاحديداب لدرجة أنّني رأيت بكلّ وضوحٍ مقدّمة جمجمته المخطّطة ببعض الخصلات الدهنيّة.

هل كان يعيش في الفقر؟ تساءلت وقد داهمني انزعاج عابر، لأنّه لو كانت هذه هي الحال فإنّ فقره كان يلزمني، رغماً عنّي، بأن أحترمه.

قال متوقّفاً على العتبة وملتفتاً صوبي بوجهٍ مفعمٍ بالقلق:

- على أيّة حال، هناك، في المدرسة، تسبّبوا له... بذاك...

قلت بجفاف:

- لا تهتمّ بي.

قال:

- ليس الأمر متعلّقاً بك. إنّه، نوعاً ما، مبدأ عامّ. لا يجدر بك العودة إلى هناك.

قلت:

- لن أدع أبداً تلامذتي يرسبون.

- تلامذتك؟ هل تعتقدين حقّاً أنّهم لا علاقة لهم بما حصل؟ هل تعتقدين فعلاً أنّهم على الأقلّ لم يشاركوا بذلك بالفكر أو بالنيّة أو بالرغبة؟ وأنّهم لم يتمنّوا علناً أو سرّاً هذا الاستعراض لـ... آه، وما أدراني أنا... للجبروت على سبيل المثال؟

قلت مصدومة:

- تلامذتي ليسوا هكذا. لقد تغيّروا، نعم، وهذا على الأرجح لفرط ما سمعوا أحاديث أهاليهم المشينة، ولكنّهم محرجون أكثر ممّا هم حاقدون. وأضفت: آسفة لإنكار أقوالك، ولكن إذا كنت حقّاً أستاذاً متقاعداً، فسوف تفهم موقفي، وسيبدو لك بديهيّاً أنّني لا أستطيع أن أقوم بشيء آخر إلّا باستعادة مكاني في الصفّ منذ الصباح الباكر. ستفهم ذلك إذا كنت تعرف معنى التعليم.

قالت غلاديس:

- اعذرها. ويحك! أنت تجلبين لنا العار.

ووضعت يدها على فمها وعضعضت أعلى إبهامها وقد علا الاحمرار وجهها كلّه.

قالت بريسيلا للشيخ:
- والدنا لن يكلّمكَ على هذا النّحو. إنّه مثقّف أكثر من ناديا وسيتذكّر اسمك.
قال ساهماً بعض الشيء:
- لم يتكرّم والدك قطّ بـ...
وضعتُ يدي على الباب المشرّع، منتظرةً ذهابهم بفارغ الصبر. عساني لا أرى من جديدٍ أيّاً منهم. ليتركونا بسلام، ليتركونا حتّى لو لزم الأمر أن نموت بسلام.
تنفّست بريسيلا بصخب. في عينيها الفاتحتين الحائرتين استطعت أن ألمح التماعة حنوٍّ خفيفٍ عابرٍ. هائلاً كان تعبي، وشاقّاً كان أيضاً شعوري بالوحدة، ما جعل رغبتي في مواجهة الجميع تتضاءل.
قالت بريسيلا:
- بصراحةٍ جئنا إلى هنا لنساعدك في الاعتناء بوالدي ولكن أيضاً لننصحك بالرحيل بأقصى سرعة ممكنة، مع والدي إذا ما قدر على ذلك، وإذا لم يكن قادراً فوحدك، على أمل أن يوافيك حالما يتعافى.
قال نوجيه:
- سيكون ذلك التصرّف الأكثر حكمة.
قالت غلاديس بلهجة مسترضية:
- ليس لديك الخيار إن أردت الصدق.
أطلقْتُ ضحكة خافتة، أشبه بنباحٍ حادّ. وبقيتُ صامتة.
قالت غلاديس بحذرٍ:
- يمكنك الذهاب مثلاً إلى بيت ابنك.
أهنفْتُ مجدّداً. ألهب الغضب المسعور رأسي. عندئذٍ أمسكت بريسيلا

بيدي وضغطتها على صدرها بالرغم من تراجعي.

وقالت بخشوع:

- عليك القيام بذلك من أجلنا جميعاً.

قال:

- إذا قرّرت، بالرغم من هذه التحذيرات، عدم الرحيل بالرغم من كلّ شيء، فهذا سيكون خطأ، اسمحي لي بتكرار ذلك، ولكن إذا كنت في النهاية تصرّين على هذا الخطأ، فليكن معلوماً لديك أنّني... سأكون هنا قربكما أيّاً تكن الشروط والظروف.

قالت غلاديس:

- أليس لديك ابن؟

قالت بريسيلا بصوت حزين تَعِب:

- إذا بقيت فإنّ الإعصار سيجرفنا نحن أيضاً في نهاية المطاف.

قال:

- سأكون دوماً إلى جانبكما.

التزمت الصمت مبقية على شفتيَّ مزمومتين، ممتلئة غيظاً ممّا كان يشبه، على الرّغم من كلّ ما تبقّى، رغبة أليمة في الاستسلام لصدر بريسيلا والتوسّل إليها لكي تهتمّ بكلّ شيء. ولكن أن يجيز لنفسه، هو، مغتنماً ضعفي، أن يقترح عليّ اللجوء إلى منزله (أفلم يكن يتمتم لهما بأنّه يستطيع حتّى إيواءنا إذا استلزم الأمر؟) فهذا ما لا أقدر على تحمّل سماعه. نظر إليّ بعينين لم يكن فيهما برودة أو سخرية بل كانتا تلتمعان برجاء اعتبرته مهيناً لي ولآنج.

قلتُ لابنتَيْ آنج بصوتٍ أشبه بصفيرٍ متصاعدٍ من فمٍ شبه مغلق:

- الإعصار؟ أيّ إعصارٍ؟ يا إلهي كلّ شيء يسير على أكمل وجه. أنتما لستما مثلنا. ثمّ أضفتُ: بمَ يمكن أن يطالكما ما يخصّنا؟ ما يهاجموننا ويهينوننا بسببه لا دخل لكما به لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، أليس كذلك؟

قالت غلاديس بنبرة تحدٍّ:

- وبمَ يتعلّق الأمر إذن؟

تردّدتُ ثمّ قلت:

- لا أستطيع تسميته. لا أعرف كيف أدعوه ولا كيف أصفه. وأضفت: حتّى لو استطعت فلن أقوله لأنّي أكون بذلك استسلمت لمشيئتهم بنذالةٍ.

قال:

- لا، لا تستسلمي، في حين أنّ الأمر يقتضي أحياناً، ولو قليلاً...

قلت:

- أسدّ أذنيّ عن كلّ ما تقوله... لم أعد أسمعك أبداً، ولن!

8- أعملوا فيه سكّينهم

كان آنج لا يزال نائماً حين دخلتُ إلى غرفتنا من جديد. كانت الشقّة غارقة في الظلام، ووحده المصباح الصغير على طاولة السرير كان مضاءً. رحت أتخيّل في الصالون والمطبخ شكل الأثاث الأليف ومع ذلك بدا لي وكأنّني ألج منزلاً مجهولاً قد تتسبّب زلّة قدمٍ منّي فيه بكارثة.

شعرت أنّني باردة الإحساس حيال منزلي بالذات الذي صنتُه بكلّ إتقانٍ وبكثير من الحبّ. تهيّأت لإنارة الغرف لكنّ خوفي ردعني. وماذا

لو بان كلّ أثاث وكلّ غرض مختلفاً عن ذاك الذي اخترته وعرفته، وماذا لو رأيت فيه الابتسامة البغيضة للكائنات التي تتمتّع بحياةٍ مغفلة وغير متلائمة بشكل غامض مع حياتي، مع حياتنا؟ كيف بالإمكان التأكّد من أنّ ذلك لن يحصل؟

عاودت الريح انتحابها. ارتجفت النوافذ قليلاً. اقتربت لأسدل الستائر ثمّ عاودت فتحها ما إن أغلقتها. وماذا لو حدث شيء ما؟ عندئذٍ يمكن للجيران في الجهة المقابلة أن يروه على الأقلّ ويشهدوا أنّني لم أفتعل شيئاً بمحض إرادتي؟

ومع ذلك كان الشارع بأكمله مظلماً، ما من نور التمع عند أيّ نافذة. لم تكن الفوانيس تضيء المطر الناعم بنورٍ شاحبٍ فضيّ إلّا فيما ندر، ذاك المطر الناعم الذي يكاد لا يُرى إلّا في تلك الهالة الضوئيّة.

وتساءلت: هل كان مثل هذا الصمت يرين في المبنى عند التاسعة مساءً، وهل كان للصمت في العادة شبهة الانتظار المفعم بالاستياء وكأنّ الصمت نفسه، قلت في نفسي شبه غاضبة، كان يتهيّأ للخيانة؟

وهاتان الفتاتان، كم هما مخادعتان حقّاً! لم تأتيا إلّا لهذه الغاية، لحثّنا على الهرب.

تكلّمت بصوتٍ منخفض لكنَّ رنّة صوتي جعلتني أنتفض.

سمعت ضجّة خافتة، أشبه بخربشةٍ على باب المدخل. هرعت لأزلج الباب (لم أكن قد فعلت ذلك، قلت وأنا أرتجف مندهشة) ثمّ التصقت بكلّ طولي على الباب ويداي موضوعتان عليه وأذني لصقه. بداية، لم أسمع شيئاً- إن لم يكن خفقاناً مبهماً، بعيداً- لا شيء إلّا دقّات قلبي المجنون، ثمّ أخيراً، صوته، الذي يصطنع اللطف، المُلحّ، الوديّ ولكن بِودّه المخاتل، المفتعل. هل ظلّ هنا جامداً على العتبة منذ انصرافهم؟ أم أنّه عاود الصعود دون ضجّة كي يتلصّص؟

قال:

- دعيني أدخل. لديَّ الكثير لأُعلمك به.

- لقد سمعتَني. عليّ أن أرتاح.

حاولت إبقاء نبرة صوتي مهذّبة وحياديّة.

قلت:

- عليك العودة إلى بيتك. ماذا سيفيدك أن تبقى هنا في البرد، ماذا؟

جعل الخوف يديّ رطبتين. وحملني دوارٌ على إغماض عينيّ. خشيت من السقوط والانهيار لصق الباب فيسعى عندئذٍ إلى الدخول إلى بيتنا بطريقةٍ ما أجهلها.

دافعاً مصراع الباب بهدوء، مبعِداً كتلة جسدي الهامد، ثمّ داخلاً إلى المكان، منتصراً ومخيفاً، سائراً نحو الغرفة، متمدّداً على السرير بالقرب من آنج، ثمّ، بحجّة الاعتناء به، مباعداً ربّما فتحتَي الجرح، ملوّثاً إيّاه بيديه القذرتين، ممتدحاً بعباراتٍ غامضة ما يعتقد أنّه كبرياء آنج... آهِ، ولكن كان عليّ أن أتفادى بأيّ ثمن أن أنهار آنذاك.

- افتحي ولو للحظة، وسأُعْلمك بما يتوجّب عليك معرفته، وبعدئذٍ أذهب هادئاً مطمئّناً. ثمّ قال (بلهجة تغالي في اللطف، شبه متعطّفة): أنا أستاذ سابق كما تعرفين وهذه الصفة ينبغي أن تكون كافية لتتخلّي عن كلّ حذر حيالي لأنّني لا أريد إلّا حمايتك. ثمّ أضاف بحزمٍ أكبر: هيّا افتحي لي.

- لا... أتوسّل إليك...

قال:

- سيّد نوجيه.

- أتوسّل إليك يا سيّد نوجيه، سنرى غداً.

قلت ذلك وقد أضعفتني رغماً عنّي الرقّة المخادعة لصوته الذي أضفى عليه في ذلك الوقت وتيرة تكاد تكون منغَّمة.

- هل أعود غداً؟ هل ستفتحين لي بلطف؟

اسمعْ...

قال:

- أعود غداً. يسعدني أنّك ناديتني باسمي. تلفّظي بهذا الاسم أمام زوجك وسترين، سيكون متأثّراً، متأثّراً للغاية.

ثمّ، من جديد، ران الصمت، ذاك الصمت الثقيل، المرصوص الذي لا تعكّره أيّ جلجلة تنظيف أوانٍ أو أيّ ضجّة صادرة عن تلفازٍ ولا حتّى، كما لاحظت، حفيف خطى السيّد نوجيه نازلاً الدرج ليعود إلى منزله. كان الأمر كما لو أنّني كنت أجدني فجأة مصابة بالصمم.

أو أنّه كان لا يزال هنا، خلف الباب، راغباً في أن يفي بدقّة بوعده بالبقاء دوماً هنا، لا شيء بإمكانه حثّه على الرحيل، ولا أحد، وسيُحكَمُ علينا بالعيش معه، في هذا التجاور البغيض الأشبه بتقرّح في الجلد يجب التعوّد عليه في آخر الامر.

تراجعت نحو الصالون المظلم. شعرت أنّني مراقبة وأنّ مشيتي متصلّبة، وبحركة واحدة عنيفة أغلقت الستائر. كان العرق يتصبّب منّي. بدا لي أنّ المطر بات يقرع النوافذ بقوّة متزايدة، ومع ذلك فإنّ هذا القرْع كنت أراه دون أن أسمعه، وأربطه في ذهني بضجّة مألوفة لكنّ هذه الضجّة لا أستطيع تميّزها، وكأنّ الشقّة أصبحت فجأة مجهزّة بعزلٍ تامّ للصوت. ما كنت أجرؤ بعد على إشعال المصابيح ولا أيضاً على تحديد الفكرة المرعبة وغير الواضحة التي وردت على خاطري وأرادت أن تحثّني على التسليم بأنّي لم أكن أملك أيّ فكرة عما سيحصل ولا عمّا سأراه لو أنّي تركت الضوء

ينير الصالون حيث كانت مفروشاتي الجميلة العزيزة الغالية الثمن تخفي، ربّما، مسرورة لخداعي، مجهولين مثيرين للريبة وحرّاساً يعادونني. وقلت في نفسي، ربَّما كان الجار موفداً لهدف أوحد وهو أن يحوّل انتباهي عمّا يدور في الواقع هنا بالذات في صالوني ولم أكن لأخمّنه بسهولة.

وقفت جامدة، متحجّرة. أرهفت السمع بالرغم من هذا الشعور بأنّني محاطة تماماً بالقطن المندوف. بدا لي أنّني سمعت نفَساً لاهثاً، أكانَ نفَسي أنا؟ لا، بل كان نفَساً آخر، آتياً من مسافة أبعد. شبكت ذراعيّ بقوّة منعاً ليديّ من ملامسة خديّ ومضاعفة خوفي من جرّاء ذلك. تراجعت ببطء كلّي نحو غرفتي. وعندئذٍ سمعت بوضوحٍ نفَس آنج، أكانَ هو ما سمعته؟ أكان نفَسي ونفَسه معاً؟

وحين صرت في الغرفة، أغلقت الباب والمزلاج الصغير. ثمّ، متعبة، جلست على السرير برفقٍ لئلّا أوقظ آنج. ولكن ألم يكن يجدر بي إيقاظه؟ هل كان نومه طبيعيّاً، هل كان جيّداً أن ينام هكذا؟ شعرت في داخلي أنّه لا رغبة لي بعد في إيقاظه، خشيت من ألّا أعرفه، من أن يكلّمني بطريقة غريبة، وخشيت أيضاً من أن يراني في هذه الحالة القريبة من الذعر التي رمتني بها أسرار صالوني الملتبسة. وشيئاً فشيئاً استعدت هدوئي مرتابة من ظنوني بالذات. قلت في نفسي: انهضي، عودي إلى الغرفة الأخرى، أشعلي كلّ الأنوار، وتأكّدي من أنّه لا شيء تغيّر.

لكنّي لم أنهض. طوّقتني العتمة الثقيلة. حتّى حضور آنج نفسه بدا لي مثقلاً بالخطر والمحاذير التي لا تفسّر، طالما كان نائماً فالخطر مستكين. وهكذا تفاديت النظر إليه، النظر إلى زوجي بالذات الذي كنت أشاطره كلّ شيء، لم أنهض، احتفظت بعينيّ مسمّرتين إلى مزلاج الباب الصغير.

ربّما كنت سأشعر بهلعٍ حقيقيّ لو رأيت هذا المزلاج الصغير يتحرّك ثمّ ينفتح تحت ضغط اقتحامٍ عنيفٍ لبابِ الصالون، لكنّي كنت من الاقتناع بأنّ هذا لا بدّ حاصل لدرجة أنّني كنت مستاءة من عدم رؤية حصوله. فعلى الأقلّ، قلت في نفسي، أعرف مع ماذا كنت أتصارع وضدّ من. لكنّي هل كنت سأعرف فعلاً برغم كلّ شيء لو اقتُحم البابُ بعنف؟ هل ستكون لديّ القدرة على فهم ما يدور أمام عينيّ؟ وهل سأدرك ممّا يجري حولي شيئاً؟ كانت هذه الأسئلة ترهقني.

في الباحة الخلفيّة التي تطلّ عليها النافذة الوحيدة للغرفة، كانت الريح تتوغّل في نحيب متواصل. انحنيت من أعلى السرير لألقي نظرة عبر الزجاج. لمحت في الأسفل جمجمة نوجيه الصلعاء تحت المطر وهو منهمك في إفراغ نفاياته في حاوية القاذورات. ما إن خفضت بصري نحوه حتّى رفع نظره وتلاقت نظراتنا. انفرجت شفتاه عن ابتسامة غامضة ممرّراً لسانه على شفتيه تكراراً. فجأةً لم يعد من أثر لتواضعه، ولا لرغبته المقرفة في المصالحة بأيّ ثمن – لا شيء من كلّ هذا، بل فقط التعبير الجليّ طوعاً لرغبة واضحة، واثقة. **سأنال منك. الأيّام بيننا. سأنال منك وسنصبح... صديقين، أليس كذلك؟**

أشحت نظري عن النافذة وفي قلبي حقد، ونقمة. تُرى ماذا كانت تتّمة ما يخطّطه لنا أنا وآنج؟ وتساءلت: ما هو الدور الذي كانت تضطلع به ابنتا آنج؟ وآنج نفسه، في نومه المصطنع ربّما؟ لا، لم يكن ممكناً أن يتظاهر آنج، وهو الجريح، بأيّ شيء كان، لم يكن هذا في صلب طبعه. ولكن طبعه، ماذا صار بحاله؟ في وضعٍ خاصّ كهذا، في وضعٍ كان، هو نفسه، يتّصف بعنفٍ يعاكس تماماً طبع آنَج؟ قلت في نفسي محبطةً: وما أدراني، ما أدراني؟

وعندئذٍ شعرت برغبة حاولت أن أطردها لو أنّني لم أرَ منذ قليل نظرة نوجيه المفترسة، رغبة كنت سأبذل قصارى جهدي لطردها لو لم تخطر لي فكرة أنّ آنج كان يصطنع النوم؛ لكنّ هذا غير ممكن، قلت في نفسي، كان ينام، نوماً منهكاً أشبه ببهيمة بائسة معذّبة تغرق، بين مصيبتين ألّمّتا بها، في شبه غيبوبة. هذه الرغبة، لم أعاكسها ولم تزعجني بما يكفي لأبقي أصابعي جامدة وجسدي متصلّباً ومتجمّعاً في الفراش.

جثوت على السرير وأمسكت المصباح الصغير الموضوع قربه على الطاولة بيدٍ، وباليد الأخرى، حسرت عن آنج الغطاء الذي يدثّره حتّى الذقن، وما رأيته جعلني أنتحب مذعورة.

لم يستيقظ آنج. ترنّح المصباح في يدي. وأحدثت السلسلة الصغيرة، القاطعة الكهربائيّة، رنيناً في أسفل المصباح. **يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي!** حاولت أن أثبّت يدي، ولكن عبثاً، كانت السلسلة الصغيرة ترنّ على إيقاع ارتجافي. **يا إلهي، آهِ يا إلهي القادر على كلّ شيء.** أردت ان أعيد الغطاء إلى حيث كان لكنّ أصابعي تشبّثت بالنسيج الملطّخ بالدم تدعكه وتعركه ممتنعة عن إعادته إلى مكانه. كنتِ تريدين أن تنظري فانظري إذن، انظري.

أخذ آنج يهزّ رأسه يمنة ويسرة على الوسادة وكأنّ الضجّة الخافتة للسلسلة الصغيرة في أسفل المصباح تؤذيه بشكل فظيع. **انظري، انظري إذن إذا كنت تحبّينني، وما رأيتِه إيّاكِ ونسيانه.**

تمتمت:

- آهِ، يا حبيبي المسكين!

وكم تمنّيت في تلك اللحظة أن يفتح آنج عينيه حتّى يثبت لي، بنظرة هادئة، ضجرة، أنّ جرحه لا يعنيه بشيء، وأنّ الثقب الذي يحفر في

جسده بالذات كان عابراً وقد طاب له هو أن يؤويه. لكنّ عينيْ آنج بقيتا مغمضتين، وظلّت أجفانه مشدودة بقوّة. اكتفى بتحريك رأسه على الوسادة المبلّلة بعرق أحمَر قانٍ (أكان ذلك دماً في شعره؟) وبدا لي أنّ هنالك في عذابه، وفي نومه المعاند، حقداً أرعن حِيالي.

لم يسبق لآنج أن أظهر أنّ تصرّفاً قمت به يوماً حمله على الشعور بضغينةٍ إزائي. مذ تزوّجنا كانت حياتنا على الدوام متّسمة ليس بالشغف والوله بل بالوئام، وكان تفاهمنا من تلك التفاهمات التي تميّز الصداقة الأبديّة، تلك التي نجدها في الكتب، لأنّه لا آنج ولا أنا كان لدينا أصدقاء استطعنا الحفاظ عليهم. وهكذا فإنّي عجزت عن فهم الحقد الصامت المهان الذي كان يرشح من كلّ جسد آنج المتشنّج. وعزوت على الفور سببه لابنتيه. وما أدراني بما أمكنهما أن تفعلاه، أو أن تقولاه. تذكّرت أنّني وجدت لدى أولادهنّ، في المرّات النادرة التي التقيت بهم فيها جموداً ملفتاً في النظرة، وتعبيراً ما على وجوههم الصغيرة الشاحبة ينمّ عن قسوةٍ بالغة ووقاحة وتهكّم؛ هاكم ما كان عليه أولاد هاتين المرأتين. والحال، ألم يكن آنج يولي هاتين الابنتين أبلغ معاني العواطف؟ أمّا ما استطاعتا تغييره في غيابي وفي بيتي، ولدى آنج وفيه، فكنت أجهله.

كان ثمّة عطب في إخلاص آنج لي. بدلاً من أن تحاولا الاعتناء به فإنّهما زادتا من فداحة مرضه من خلال التلاعب بجرحه، ونكئه بطريقة لا شفاء منها، وإلى هذا الألم دسّتا سمّ الشكّ تجاهي، ولكن لِمَ فعلتا هذا كلّه؟

توقّف الجرح، عند مستوى الزائدة، عن النزف. ومع ذلك بدا أنّ أحداً لم ينظّفه. أحدقت قشرة من دم قاتم بالفجوة الفارهة ولم أجرؤ على تخيّل أيّ أداة عريضة وحادّة في الوقت نفسه قد أحدثتها، وكأنّها، قلت في نفسي،

إزميل ضخم للخشب أو محفر غُرز طويلاً في جسد آنج بعد إيغاله.

كان آنج لا يزال يرتدي قميصه المزدان بمربّعات. ولاحظت بغضبٍ أنّ ابنتيه لم تقصّا أو تنتزعا قطعة القميص التي شجّها السلاح وأنّ القماش صار ملتصقاً بالدّم المتجمّد. لم تفعل ابنتا آنج شيئاً ولم توقفا تدفّق الدم ولم تطهّرا الجرح ولم تحاولا أن تلأماه.

ولكن هاتين الابنتين المحبوبتين من والدهما، ما الذي فعلتاه طيلة ذاك الوقت، وأيّ أمر لعين صرف انتباههما؟

كان سائل سميك وأصفر يرشح ببطء من اللحم الممزّق في عمق الجرح. بدا لي أنّ لهذا التقيّح رائحة خبيثة ومع ذلك بدا إمكان أن يكون الجرح في طريقه إلى التعفّن بعيد الاحتمال.

وفجأة رفع آنج ذراعه. كانت حركته سريعة خاطفة وغير منتظرة إلى درجة أنّ يده اصطدمت بالمصباح الذي كنت أمسكه بيدي فسقط أرضاً وانطفأ.

صرخ آنج بصوت مخنوق:

- نهيتكم عن النظر إلى جرحي.

ثمّ انتزع الغطاء من أصابعي القابضة عليه وتدثّر به مجدّداً بغضب مسعور، وقال بالصوت الأجوف الكامد نفسه الذي صار يبين فيه أسىً يدمي القلب:

- كم مرّة عليّ أن أكرّر لذك؟

كان هذا الصوت الجديد وسط الظلام يروّعني.

قلت:

- آنج، هذه أنا.

فقال آنج:

- دعوني بسلام. أريد أن أترك لحالي.

- آنج، هل تشعر بألم؟

- دعيني بسلام، دعوني بسلام جميعكم.

انتصبت من جديدٍ على قدميّ، بطريقة خرقاء، وأنا أرتجف ألماً وقلقاً. تلمّست طريقي باحثة عن المصباح ووضعته على الطاولة قرب السرير. ذهبت باتّجاه باب الغرفة، وألصقت أذني إلى الدرفة لعلّي أسمع ما كان يجري في الصالون، ثمّ عدت وجلست على السرير أبعد ما يمكن عن آنج، راغبة في ألّا أتسبّب له بأيّ انزعاجٍ لكن عاقدة العزم على عدم تركه مع أنّه كان يطلب ذلك بهذه الطريقة الملّحة الشاكية التي لم يكن يستخدمها قطّ، يطلبه كمن فقد ذاكرته، قلت في نفسي، بهذه الطريقة الأنانيّة، الجاحدة التي بدت وكأنّها كانت تتعمّد محو كلّ صلة تربطني به.

ألم يكن يجدر بي مع ذلك أن أرغمه على خلع ثيابه (لأنّه كان لا يزال يرتدي تحت الغطاء بنطاله وحزامه وجوربيه)، وأن أغسل جراح آنج، وأضمّدها، وأن أجعله يبتلع قرصَيْ مهدّئ للآلام؟ كيف السبيل للتصارع مع زوجي المتضائل، ثمّ بعد انتهاء الصراع، رأب شرفنا؟ كيف بالإمكان تصوّر ظروف بهذه السفاهة وهذه المأساويّة؟

وكيف بالإمكان خصوصاً تخيّل اجتياز ظلمات الصالون للوصول إلى غرفة الحمّام حيث كانت توضع الأدوية، والعودة تالياً إلى الغرفة بأن أجتاز في الجهة المعاكسة الصالونَ الذي يرجّع أصداء حفيف ولهاث لا أستطيع تحديد مصدرهما واستبيان معناهما ولكنّ أوّل صورة ترد على خاطري هي صورة السيّد نوجيه المستغرق في فجوره والذي كان يتعمّد أن يكون مسموعاً من آنج ومنّي على حدّ سواء ولكن خصوصاً من آنج المتحجّر

في بؤسه، الجامد على سرير ألمه وحزنه، لكن ماذا كان يريد منّا، ما الذي يريد أن يأخذ منّا ممّا قد يكون بقي لدينا، ماذا كان يريد إفهامنا؟

عاودت النهوض والذهاب نحو باب الغرفة لأرهف السمع ملتصقة به وأتأكّد من أنّ المزلاج موصد جيّداً. ومن جديدٍ سمعت حفيفاً وتأوّهات آتية من الصالون. تصبّب العرق المشبع برائحة الخوف النفّاذة من جبيني وعنقي. ما كانت هذه الأصوات إذن؟ أكانت العاصفة والريح القويّة؟ ولكنّي ذكرت أنّني في الصالون نفسه، منذ قليل، لم أكن أستطيع تميّز جلبة هبوب الريح.

همست وشفتاي ملتصقتان بدرفة الباب:

- سيّد نوجيه؟

ثمّ قلت بصوت أعلى:

- سيّد نوجيه أهذا أنت؟

وقلت في نفسي على الفور: آهِ، كان مستحيلاً أن يدخل لأنّني وضعت سلسلة الأمان، هذا مستحيل. ماذا كان إذن؟ لكأنّي، وقد بتّ عارفة أنّه كان مستحيلاً دخول نوجيه إلى الشقّة، وعارفة ويتوجّب عليّ التسليم في الوقت نفسه بأنّ هذا الأزيز وهذا الحفيف كانا من صنع المستحيل، أقول لكأنّي ما عدت ملزمة بالتفكير بهما ولا بالتعذّب من جرّائهما، بل كان عليّ فقط أن أترك بين هذه الأشياء وبيني حيّزاً من الحذر.

منهدّة تعباً، ذهبت لأتمدّد على السرير محاذرةً أن ألمس آنج. استطعت أن أرى في الظلام عينيه مفتوحتين على مداهما، محدّقتين إلى السقف، جامدتين ومتيقّظتين أسوةً بجسده الساكن، المتصلّب، المتألّم. لم أجرؤ على التحدّث إليه. قلت في نفسي، أيّ حزن، أيّ حزن يكمن في خشيتي وحيرتي أنا

نفسي! لأنّ كلّ ما كان يدور في رأسي، كنت قد اعتدت على سرده لآنج الذي كان هو الكائن الوحيد في العالم الذي لم أخشَ قطّ رأيه، الكائن الوحيد الذي لم يرهقني، ولا للحظة واحدة من حياتنا المشتركة، بانتقادات أو ملامات تخصّ تعلّقي بمهنتي، وكان الوحيد في الواقع الذي ترفّع عن أن يقابل بعنفٍ بين ابني، على سبيل المثال، وبين مدرستي، ويتّهمني بالاهتمام بمدرستي أكثر من ابني. وها أنذا أنهى نفسي هذا المساء عن مدّ يدي لأداعب جبين آنج بلمسةٍ رقيقة... فلمَ أصبحت فجأة عدوّته؟

9- الطعام يواسينا، خطأ جسيم ارتكبناه

نهضت بوثبة واحدة من سريري ما إن غمر النهار الرماديّ الغرفة بنور متجهّم. نظرت إلى آنج باحتراس. لم يعد ينام. شعرت باندفاعة حبّ وتعاطف ترميني باتّجاهه فاحتضنت رأسه بيديّ متجاهلة تراجعه، قبّلت شفتيه حيث شممت رائحة دم ونتانةٍ. دفعني برفق والتفّ بغطائه جيّداً بحيث إنّني، قلت في نفسي: إذاً أخلد إلى النوم مجّدداً فلن أستطيع كشف الغطاء للاهتمام بجرحه دون أن أوقظه.

ما الذي لم يكن يتوجّب عليّ بأيّ حالٍ من الأحوال النّظر إليه؟ ولمَ كان يتصوّر أنّني أتوق لرؤيته؟ ألم يكن يعرفني، ألم يكن يعرف أنّني كنت أتفادى قدر الإمكان كلّ ما يتسبّب بهلعي؟

قلت بمشقّةٍ:

- آنج، تدرك جيّداً مثلي أنّه يجب فعلاً الاعتناء بجرحك.

فقال آنج بصوتٍ واهن:

- لم يعد هذا ضروريّاً.

قلت باستياء بالغ:

- ما معنى هذا؟

قال آنج:

- معناه أنّه لم يعد ضروريّاً، هذا كلّ شيء.

شعرْتُ بالغضب يتصاعد في صوته، بهذا النزق الذي كان يفاجئني.

قلت بسرعة:

- تعتقد أنّك فهمتَ شيئاً يدقّ عن إدراكي وأظنّ، من ناحيتي، أنّك تريد تجنيبي إيّاه، ولهذا تتصرّف بقسوة وغموض. ولكن عليك أن تعرف حقّاً أنّه لا شيء أعجز عن فهمه وأنّني، من جهة أخرى، ربّما سبق لي أن علمت بكلّ شيء. آنج، حبيبي، لا يجدر بك أن تحميني من أيّ شيء.

ولكن هل كان الأمر أكيداً؟

قال آنج بنبرة تلوح فيها كآبة لا متناهية:

- كلّ هذا كلام خلّاب.

ثمّ أضاف:

- حذارِ، تبالغين في الكلام.

ثمّ أغمض عينيه بحركة مُجافية ليقطع الطريق أمام أيّ كلام. لم يتلفّظ بالجملة الأخيرة كمن يعطي نصيحة بل بالأحرى كمن يتوعّد.

كنت مصدومة. لم أستطع الامتناع عن هزّ آنج من كتفه، مع أنّ جبينه تغضّن في الحال ألماً. للمرّة الأولى غالبني نوع من الغضب بدوري، وإذ رأيته مكشّراً، فكّرت ببساطة: ألم أكن أتعذّب أنا أيضاً من أن يعاملني بهذه القسوة؟

قلت له بنبرةٍ مريرةٍ:

- وإذا كنت أتكلّم فأيّ ضيرٍ في ذلك؟ أبدو وكأنّني الوحيدة هنا التي لم تكتشف ما يستحقّ الاعتبار! آهِ! لكنّي لن أمضي الوقت وأنا أطلب المغفرة عن كلّ خطأ يبدو أنّني اقترفته، أضفتُ، وغضبي ما لبث أن تلاشى إذ رأيت وجه آنج الضامر وأجفانه الرماديّة، وتساءلت بقلقٍ عن الوسيلة لإنجاده رغماً عنه.

قرع أحدهم باب المدخل.

همس آنج:

- إنّه الجار.

قلت:

- هذه المرّة، سيبقى في الخارج.

تململ آنج مضطرباً. ثمّ همس بقلقٍ مشوب بالغضب من جديد:

- إيّاك أن تفعلي... أدخليه بالطبع.

انفتحت أجفانه عن نظرة كَدِرَةٍ، حانقة، مجرّدة تماماً من العاطفة.

كانت الضربات تجعل الباب يرتجف. غادرت الغرفة، واجتزت الصالون، ثمّ انتزعت سلسلة الأمان وفتحت الباب على مصراعيه.

قال بلهجة معسولة:

- اللحم المقدّد الذي جلبته لك البارحة، ألم تأكليه؟

قلت:

- لا.

الأمر سواء، هاكِ لحماً مقدّداً طازجاً مقطّعاً إلى شرائح. ومن ثمّ، قال باندفاعٍ فرح: هاكِ أيضاً خبزاً، خبزاً شهيّاً ساخناً عجنته وخبزته بنفسي،

وهذا أيضاً مربّى الخوخ وقد صنعته في المنزل، وسامحيني على الإلحاح، ومن ثمّ جلبت الزبدة أيضاً، لا أعرف إن كان لديك منها، وكلّ هذا لك ولزوجك، وحقّاً، ستجلبين لي عظيم السرور لو تفضّلت وقبلت بأن... على أيّة حال، كان هذا متّفقاً عليه...

قلت:

- طلب منّي زوجي ألّا أطردك.

حاولت أن أمنح وجهي تعبيراً يبين فيه التأفّف والامتعاض وقد بدا لي الوحيد القادر على درء هذه الحميميّة الكريهة التي يبذل قصارى جهده لكي يضمّنها أدنى نبرات صوته. ومع ذلك فإنّ رائحة الخبز الدافئة جعلتني ضعيفة لا بل ممتنّة له. كنت أتضوّر جوعاً بحيث إنّ شفتيَّ أخذتا بالارتجاف. تنحّيت لأفسح له بالدخول. وعندئذٍ رمقني وهو يتقدّمني بنظرة سريعة إلى وجهي الذي كان أعلى من وجهه، وكان يمتزج فيها الانتصار والخضوع على حدٍّ سواء.

كان يرتدي عفريتة[1] قديمة مع «سويت شيرت» كُتِبَ عليه: University of Columbia. ذهب توّاً إلى المطبخ. **لكأنّه في بيته، كان يظنّ أو يعرف أنّه لن يُطرد ثانية وأنّه احتلّ المكان.** وضع المؤونة على الطاولة ودعاني للجلوس بحركةٍ ودودٍ خالية من السخرية. ثمّ التفت إلى ماكنة القهوة، فتح الخزانة حيث الفناجين وأخرج القهوة من درجها، وكلّ هذا كان ينجزه بدقّة ورشاقة ولباقة وكأنّه يعرف تماماً ماذا يتوجّب عليه فعله، ملائماً كلّ حركة وغايتها.

(1) أو عفريتة salopette: نوع من الملابس مكوّن من قطعة واحدة تغطي الجزءين العلويّ والسفليّ من الجسم.

قلت:

- عليّ الذهاب إلى المدرسة بعد قليل.

قال:

- بالطبع، بالطبع، ما من مشكلة.

ولكن هل كان جائزاً أن يمكث هنا ويحضّر القهوة كما كان يفعل آنج، أن يمكث هنا، على هواه، مجاملاً وظافراً في آنٍ معاً، هذا الكائن الذي كنّا لا نكاد نحتمل رؤيته بضع ثوانٍ كلّ يوم؟

قلت:

- كما ترى، لا نحتاج إلى خادم.

ودون أن يلتفت قال بصوت خافت ولكن بنبرةٍ جادّة:

- وإلى صديق، أفلا تحتاجان إلى صديق؟

عندئذٍ قلت وقد أغاظتني وقاحته:

- أنا وآنج كنّا دوماً في غنى عن الأصدقاء. بإمكانك الوثوق بكلامي. وإن أردت الصدق حقّاً فالأصدقاء يزعجوننا، وانتهى الأمر.

انتزعت قطعة من رغيف الخبز فتصاعد من لبّه لهبٌ. وضعت قطعة الخبز في فمي وكان طعمه لذيذاً شاحذاً للعزيمة لدرجة شعرت معها بوخزٍ مؤلمٍ ينخر فكّي وخديّ وزوايا عينيّ. ومع ذلك، قلت في نفسي، إنّ من صنع هذا الخبز كان يجلس قبالتي، ويقطع شريحة من الخبز ويدهنها بطبقة سمينة من الزبدة التي أحضرها، قطعة صفراء شهيّة منثورة عليها حبيبات، ثمّ يضع فوقها مربّى الخوخ.

قال وهو يمدّ لي شريحة الخبز باحترامٍ مبالغ فيه:

- عفوكِ! تفضّلي، كُلي.

نهض ليسكب لي فنجاناً كبيراً من القهوة. لاحظت بقرفٍ يديه الرخوتين والسمينتين وأظافره القذرة. كانت الشعيرات الرماديّة تغزو وجهه كلّه. وحين كان يترك نفسه على سجيّتها، تغدو عيناه باردتين بحيث كنت أشعر بالإحراج.

ومع ذلك فهو من صنع هذا الخبز.

قفز على قدميه قائلاً:

- والآن لنهتمّ بجريحنا.

قلت:

- لا يريد أن يقترب منه أحد.

ابتسم ابتسامة صغيرة واثقة. ثمّ حضّر شريحة خبزٍ جديدة ووضعها على صينيّة إلى جانب القهوة المعدّة لآنج. خرج من المطبخ حاملاً الصينيّة وسمعته يتمتم:

- كنت سوف أنصحك بعدم الذهاب إلى المدرسة، ألست على حقّ؟

أكلت شريحة أخرى رقيقة من جامبون «بايون[1]» المطيّب واللدن الذي أحضره هو أيضاً. وكان كلّ هذا الطعام لذيذاً ومنشّطاً بشكلٍ لا يوصف ولكن بما أنّه كان هو الذي يقدّمه فقد ترك في فمي طعماً حامزاً.

ثمّ تهيّأت للذهاب إلى العمل بالضبط كما كنت أفعل كلّ صباح. اجتزت الصالون وعاودت اجتيازه وأنا أغنّي رافضة إعارة الانتباه لهذا الشعور الذي لم يكن يفارقني بأنّ الغرفة كانت مليئة بحضورٍ غريب وأنّ

---

(1) بايون Bayonne: مدينة فرنسيّة تقع في إقليم البيرينيس على المحيط الأطلسيّ أو البيرينيس الأطلسيّة.

هذا الحضور كان في الأساس معادياً. وعلى هذا الانطباع الخانق الذي كنت أعرفه صحيحاً، رفضت مع ذلك أن أستغرق فيه. قلت في نفسي وكنت أخشى من أن أتأخّر على المدرسة: سنرى فيما بعد. ومع ذلك لم أستطع أن أمتنع عن إرهاف السمع ناحية الغرفة التي كان يصلني منها همسُ محادثة.

لم يكن يريدني أن أسمعه. ولكن ما المؤامرة التي كانا يحضّرانها ضدّي؟

استحممت وارتديت كنزة وبنطالاً أسودين (لأنّني امرأة مكتنزة) وسرّحت شعري القصير والمصبوغ بالأحمر ثمّ أصلحت نظّارتيّ المسحوقتين.

دفعت باب الغرفة برفقٍ. كان آنج لا يزال نائماً متدثّراً بغطائه، لكنّ نوجيه كان أدخل الوسادتين مسنداً كتفيه فارتفع جذع آنج قليلاً وبات رأسه مرجَعاً إلى الخلف وعنقه ملتوياً بعض الشيء. كان نوجيه جالساً على السرير يسند له رأسه بيدٍ، وباليد الأخرى يقرّب الخبز من شفتي آنج. نظر إليّ آنج ومشاعر الخوف والحرج والتوجّس تقتم نظراته. ما رأيت ذلك حتّى طردته من ذهني على الفور.

قلت:

- أوه، سأتأخّر على المدرسة، هل تأكل يا عزيزي؟

قال نوجيه:

- هذا الطعام الجيّد المكوّنات ممتاز لحالته. أنا لم أكفّ قطّ عن صناعة خبزي بنفسي، وحتّى في الفترة التي كنت لا أزال أمارس فيها التعليم كنت أنهض ساعة أبكر من اللازم لكي أحضّر خبزي، كنت أحبّ مهنتي كما تحبّانها لكنّي كنت أحبّ وأحترم الخبز أكثر،

هذا الطعام المقدّس.

استفزّني، أراد أن يتحقّق ثانية ممّا إذا كنت أشكّ بماضيه كأستاذ. آهِ، في الواقع، ما همّ ما فعله في حياته وما كان ينوي فعله أيضاً.

سألت:

- هل نظرت إلى... الجرح؟

كم كنت أتحرّق للخروج! فجأة، كانت الغرفة بهوائها المحبوس النتن قليلاً (رائحة التعفّن هذه التي كانت تلازمها، قلت في نفسي) ترهقني.

قال:

- سنهتمّ بالأمر. لا تقلقي. لن أدع زوجك يتظاهر بأنّ كلّ شيء يسير على ما يرام.

عاجلته بالقول مكابرة:

- كلّ شيء يسير على ما يرام.

قال بنبرةٍ قاسية:

- لا أوافق إطلاقاً على عودتك إلى المدرسة.

فقلت:

- ليس فقط مكاني هناك ولكن عليّ أيضاً أن أخطر السيّدة المديرة بأنّ آنج سيتغيّب لبعض الوقت لكي تجد من يحلّ مكانه، وهكذا لا أحد، وخصوصاً الأولاد، سيتأثّر بـ...

صرخ آنج متوسّلاً:

- لا تذهبي!

لكنّي هززت رأسي وقد أخذني دوار إزاء فكرة بقائي في الشقّة، وتمضية النهار بين الصالون المليء بالأرواح المجهولة والشريرة، والغرفة

القائمة برائحتها النتنة.

قلت بحماس:

- إلى هذا المساء!

ما زلت أرى الخوف والخجل يقتهان نظرة آنج لحظةَ كان نوجيه يقرّب فنجان القهوة إلى فمه، ما زلت أرى ذلك متعمّدة تجاهله. سمعت ارتطام البورسلين الخافت بأسنان آنج وكأنّه كان يحتفظ بها مشدودة أو كأنّ نوجيه يريد إرغامه على الشرب. قلت في نفسي: صنع نوجيه قهوة لذيذة جدّاً. ألم يكن يفترض بي أنا زوجته أن أساعد آنج على الأكل وأعينه على الشرب، وعلى الذهاب إلى المرحاض؟ لماذا كان يقبل هذه المساعدة من الجار ولا يقبلها منّي؟ على أيّة حال، هل كان يقبلها حقّاً؟ تساءلت أيضاً وأنا في ذروة الانزعاج. لأنّ كلّ شيء كان يثبت لي أن آنج لا يمتثل لهذه الرعاية إلّا كرهاً.

لم يكن قد توقّع أن يذهب الآخر إلى هذا الحدّ، وأن يعزّز موقعه إلى حدّ أن يلعب دور «الماما» معه.

10- ألعلّ ذلك انتهى؟

للمرّة الأولى منذ أشهر كان طلّابي ينتظرونني مصطفّين في الملعب وليس مبعثرين كما اعتادوا أن يفعلوا مذ كففنا أنا وآنج عن أن نكون محترمين، لدرجة أنّه صار شيئاً مألوفاً أن نمضي كلّ صباح قرابة ربع ساعة ونحن نحاول تجميعهم فيما كان زملاؤنا، الذين قلّما كانوا مهتمّين بالتدخّل، قد سبقونا إلى صفوفهم وباشروا عملهم.

في ذاك الصباح، تحت السماء الغائمة، كان جميع الأطفال مصطفّين

بانتظامٍ شبه صامتين. اقتربتُ من السيّدة المديرة التي كانت تراقب المدرسة من عتبة مكتبها، تحت السقيفة[1]، وتنظر إليَّ أتقدّم نحوها دون أن يختلج أدنى عصبٍ في وجهها الأبيض القاسي. قلت في نفسي متعزيّة: يطمئنها أمر ما يتعلّق بي. شبكت ذراعيّ فوق معطفي المغلق بإحكامٍ لأنّ الطقس ما برح شديد البرودة.

كان الطقس شديد البرودة!

قلت:

- سيتغيّب زوجي لبعض الوقت.

قالت:

- حسناً، وما السبب؟

قلت:

- أتجهلين السبب؟

قالت السيّدة المديرة:

- نعم، أجهله.

وعرفت، استناداً لما أخبرتني به الصيدلانيّة أنّها تكذب، ومع ذلك فقد أراحني جوابها بطريقة غريبة، كما لو أنّ السيّدة المديرة كانت تريد أن تشير لي، حتّى ولو بكذبةٍ، أنّها لم تكن عدوّة.

قلت وأنا أهزّ رأسي:

- لا أستطيع التحدّث عن ذلك. ولكنّ كلّ شيء سيسير على ما يرام، وأقترح على أيّة حال أن أضمّ تلاميذ زوجي إلى صفّي، إذا كان هذا ممكناً.

(1) جزء مسقوف من ساحة الملعب في المدرسة.

قالت السيّدة المديرة:

- آه، لا أعرف.

بدت نظرتها بعيدة، حالمة. وكان ذقنها يتقلّص مكتسياً بثنيّاتٍ صغيرة، ثمّ قالت بجهدٍ:

- لا أعرف هل أنّ الأطفال سيوافقون.

قلت:

- ولكن منذ متى حقّاً يُطلَبُ رأي التلاميذ في هذا الخصوص؟

علت حمرة خفيفة خدّيها الشديدي البياض. أشاحت بيدها ملامسة وجهي بأطرف أصابعها. ثمّ سألت وقد ظهر عليها الاندهاش:

- هل تركتِ زوجك وحده؟ ألا يحتاج إليك؟

قلت:

- مكاني هنا.

هل كانت تريد إذن، هل كانت تأمل سرّاً أن ترانا نختفي كلينا نحن الاثنين؟ نحن أفضل معلّمَين في هذه المؤسّسة؟

قالت بجفاف:

- لا تعطي المسألة أكبر من حجمها.

- أحبّ مهنتي وأمارسها بكلّ ضمير.

قالت السيّدة المديرة:

- نعم، ولكن في مثل حالتك، إنّها لفضيلة تقريباً.. لكنْ، ألا تقتضي الفضيلة أن...

وأطلقت ضحكة هي أشبه بنباح لئيم متوعّد.

دقّ الجرس وعدّلت السيّدة المديرةُ من تعبير وجهها فحلّ الحياد

الرحيم مكان السخرية العدوانيّة.

ذهبتُ للبحث عن تلامذتي الصغار وقلبي متخفّف من أحزانه كما لم يكن كذلك منذ زمنٍ طويل.

كان الطقس مكفهرّاً وبارداً والهواء صفيقاً ومثقلاً بضبابٍ كثيفٍ تصاعد من النّهر، ولكن تولّاني الشعور أخيراً بأنّه كان يمكننا أنَ نأمل أنا وآنج السير بحذرٍ إلى تحسين حياتنا.

تساءلت هل يجب اعتبار ما تعرّض له آنج البارحة وكأنّه ذروة آلامنا. نعم، بالطبع، بالطبع.

بدا لي في هذا الصباح أنّ الأولاد كانوا يرمقونني بنظرات صافية ومباشرة، وحين كنت أجرؤ على النظر إليهم مباشرة، لم يكونوا يشيحون بنظرهم ولم يظهروا لي أيّ انزعاجٍ أبداً، ولا أيّ تلميحٍ بأنّني أستحقّ أن أعاقب أو أن يُقضى عليّ. بدا لي أنّهم كانوا يتصرّفون نحوي كما في السابق تقريباً، أكثر خجلاً بقليلٍ وأكثر توحّشاً، كان عليّ التسليم بذلك، وكأنّني كنت معلّمة جديدة ولم يكونوا واثقين تماماً من اتّزان ردود فعلي، وكأنّهم كانوا قد نسوا، باختصار، المعلّمة التي كنتها والتي أحبّوها بكلّ ثقة حسب ظنّي. شعرت أنّ هذا التهيّب الخفيّ الذي يثقل جوّ صفّي كان يحزنني. قلت في نفسي ها إنّه يتوجّب عليّ أن أعمل على أن أعود ثانية ما كنته بالنسبة لهم. أعيد تلاميذ آنج إلى منازلهم. وهذا كان سيرضيه فهو يكره أن يحلّ أحد مكانه.

في وقت الفرصة، توجّهت إلى الثلّة الصغيرة لزملائي المتجمّعين في الملعب. توقّفت على مسافة ثلاثة أمتار منهم، خافضة بصَري، متظاهرة بانشغالي بنظافة حذائي، ثمّ إذ شعرت بدلائل إيجابيّة صادرة منهم،

وبذبذبات وديّة آتية من الحلقة التي كانت تنفتح بطريقة خفيّة لتفسح لي مكاناً، انسللت بين اثنين من زملائي، بصمت.

توقّفت أحاديثهم في الحال. وبعد هنيهة من الحرج، سأل أحدهم متجهّم الوجه متمتماً:

- كيف حال آنج؟

قلت بضحكة صغيرة بهجة:

- حاله جيّدة.

قال آخر:

- يا للحادث المحزن.

قلت:

- أيّ حادث؟ ليس هنالك من حادث.

قال بنبرةٍ مستاءة:

- من الأفضل اعتبار الأمر حادثاً بكلّ بساطة.

شعرت بالذبذبات الخفيّة الودود التي بثّتها جماعة الأساتذة لدى اقترابي وقد تلاشت، لا بل كان لديّ انطباع بأنّ حلقتهم عادت فالتأمت لتطردني منها. عندئذٍ أردفت بصوتٍ عذب:

- سواء كان حادثاً أم لا، فإنّ آنج سيعود قريباً جدّاً.

لكن آنج كان يحتضر آنئذٍ. أليس كذلك يا حبيبي آنج؟ تُرى ما الذي كان يفعله الجار بجسد آنج؟

قلت دون أن أستطيع الامتناع عن الاستهزاء:

- تركته بحراسة سيّد يدعى نوجيه.

- نوجيه؟

- نوجيه الكاتب؟

حيّرتني دهشتهم المرتابة. من كان نوجيه هذا ؟ هل سبق لي أن سمعت بهذا الاسم يوماً؟

قلت غير متأكدّة:

- نعم، على الأرجح.

ثمّ سألت إحدى النساء بلهفة متحمّسة:

- على الأرجح أم بالتأكيد؟

اتّجهت أنظار زملائي كلّهم إليّ. بدا لي أنّ ترقّبهم المليء بالخشوع كان يشيع في الجوّ الضبابيّ جلبة حادّة، صفيراً متوعّداً كان إيقافه منوطاً بجوابي. تظاهرت بالابتسام، ورفعت نظّارتيّ عاليتين فوق أنفي.

قلت وأنا أخفي اضطرابي:

- إنّه هو فعلاً.

لأنّه كيف كان من الممكن أن يعرفوه فيما كنت أجهله وكيف كان اسمه وحده يؤثّر فيهم فيما كان لي مجهولاً؟

وتبع ذلك صمت متروٍّ أو بالأحرى خاشع. ما عدت أفكّر في خفض بصري ولا في أن أظهر لأحدهم مللاً أو غضباً وهو ينظر إلى عينيّ.

قال أحدهم ببطء:

- هذا غريب.

وقال آخر:

- وأخيراً، زوجك في أيدٍ أمينة، في أيدٍ رائعة.

لدى سماع صوته، شعرت وكأنّه كان يتأسّف لأنّه ليس آنج. آهٍ، منذ متى لم نثرِ الحسد، نحن اللذَين كنّا طيلة الوقت نسبح في تلك المياه،

الدافئة والمحيية للحسد الذي كان يشعر به الناس المحيطون بنا إزاء حياتنا وطمأنيتنا؟ من جديد شعرتني محمولة على أجنحة فرحٍ وثقةٍ لا حدود لهما. صرت أتحرّق للعودة إلى الشقّة لأشارك آنج بما استنتجته اليوم: خفَّت حدّة الرغبة في إيذائنا، واضمحلّت الكراهية التي كنّا نثيرها، وهذا الغضب المسعور الخالص، البدائيّ الذي كان يستولي على البعض، لا لشيء إلّا لرؤيتنا. وذهبت إلى حدّ التساؤل، في غمرة تفاؤلي، إن لم نكن نبالغ في تصوير فداحة ما حصل لنا، حتّى إنّي تساءلت إن لم نكن اختلقنا كلّ ذلك. **هل سعوا حقّاً لقتلنا؟ أيّة مزحة، ربّما! أيّة مزحة مشؤومة فعلناها ربّما بأنفسنا!**

عدت إلى صفّي وأنا أنفث بفرحٍ غيوماً صغيرة من البخار. قلت عدّة مرّات خلال فترة ما بعد الظهر:

- كم أنتم وُدَعاء يا أولادي.

حدث أنّه في اللحظة التي كنت ألفظ فيها هذه العبارة للمرّة الثالثة، شهقت فتاة صغيرة بالبكاء. تساءلت عندئذٍ هل كنت استعملت العبارة الصحيحة: هل تلامذتي ودعاء أم أنّ القرف كان يجمّدهم؟ كانوا خاملين على غير عادتهم وكأنّ أحدهم جعلهم يبتلعون جرعة قويّة من المهدّئات.

اقتربت من الفتاة التي كانت تبكي ورأيتها تحني ظهرها محاولة أن تتفلّت من يدي المربّتة على كتفها، ومنصاعة مع ذلك، غير متجرّئة على التوسّل إليّ كي لا ألمسها. يتسبّب لي مثْل هذا التصرّف بكآبة عابرة.

هل كان كلّ شيء يعاود مجدّداً؟

مرّرت يدي على ظهرها الضيّق وعلى عظام كتفها المرتعشة، وشعرت بالخفقات المتسارعة لقلبها الصغير الأشبه بعصفورٍ مرتعب.

تمتمتُ:

- اهدئي، اهدئي، لا أحد سيؤذيكِ.

قالت:

- سترين، سترين.

نخرت الفتاة الصغيرة وهزّت رأسها برفقٍ. بدا لي أنّ الدمع كان يطفح من عينيها، المفعمتين إشفاقاً ويأساً، ما إن ترفعهما نحوي. لكنّي قرّرت أنّه لا شيء يجب أن يؤثّر في ذاك اليوم، على طريقتي الجديدة في النّظر إلى الوضع.

صفّقت بيديّ وأعلنت بفرحٍ لتلامذتي أنّ باستطاعتهم الخروج للّعب في الملعب والبقاء هناك حتّى انتهاء الدوام.

لم أستطع الامتناع عن الإضافة:

- لأنّكم كنتم ودَعاء جدّاً اليوم!

لم يهتف أحد منهم لذّة أو إثارة أو دهشة امتنانٍ، كما كانوا يفعلون منذ بضعة أشهر. تردّدوا قليلاً في النهوض، وكأنّهم ليسوا واثقين من أنّها فكرة جيّدة أو كأنّهم مجبرون على إطاعتي، ثمّ خرج بعضهم من الصفّ بشيءٍ من الإحراج الحذر، وتبعهم الآخرون بطريقة خرقاء.

رأيت فتىً يرمي نظرة مختلسة إلى كرسيّ ومكتبي. حاولت أن أرى أنا أيضاً إلامَ ينظر. احمّر وجهه ثمّ عراه فجأة شحوب شديد. يا إلهي إلامَ كان ينظر؟ ما الذي كانوا يرونه جميعاً وكنت عاجزة عن رؤيته، ما الذي كانوا يعرفونه وكنت أجهله؟ أين كنت طيلة ذاك الوقت حين توجّب عليّ فعلاً أن أرى وأعرف؟

ولاحظت أنّهم جميعاً يتجنّبون المرور قريباً جدّاً من المنصّة حيث مكتبي، وبما أنّهم كانوا مجبرين على المرور بالقرب من المنصّة للوصول إلى الباب،

خطر لي فجأة أنّ هذا ربّما كان السبب في تلكّؤهم في الخروج للّعب. كان هناك شيء ما، في زاوية مكتبي يخيفهم أكثر من أيّ شيء آخر. ما أغرب هؤلاء الأطفال! وكم سيكون طويل الأمد وشاقّاً أن أجعلهم يستعيدون حيالي تصرّفاً طبيعيّاً، وأن أجعلهم ينسون أنّني انتُقِصَ من قدري وكُرِهت، أو أنّني قد أكون صدّقت بقوّةٍ الأمرَ (أي أنّنا انتُقِصَ من قدرنا وكُرِهْنا)، ما جعل نظرة تلامذتنا تتغيرّ حيالنا. أجل، وهكذا فإنّ كلّ ما حدث كان بسببنا وكانت مسؤوليّة انعدام الفهم المرعب هذا تقع علينا كلَينا أنا وعزيزي آنج.

كنّا متكبّرَين، ومتباهيَين أشدّ التباهي بنوعيّة عملنا، كنّا ولا شكّ نتصرّف بغطرسة وازدراء، والإشارات التي كانوا يُظهرون لنا من خلالها أنّنا كنّا مقيتَين، ضخّمنا أهميّتها وخطورتها أيضاً بدافع الكبرياء.

وقلت في نفسي: ولكن لمَ وُجِّهَت لآنج مثل هذه الطعنات؟ ألم يكن ما حدث حقيقيّاً؟ هل افتعل آنج الاعتداء عليه ثمّ زاد في خطورة جرحه عمداً؟ أم أنّه لم يكن هناك هجوم وأنّ آنج هو الذي... أو لعلّه لم يحصل شيء؟ إلّا مجرّد حادث رمى بآنج، المعتاد على التحكّم المطلق بحياته، في المتاهة؟

استغرقت وقتاً لأرتّب صفّي (رتّبته بعناية فائقة وكأنّني لن أعود إليه أبداً).

قُرِع الجرس. ارتديت معطفي (وقد لمحت شيئاً غريباً، غامضاً، لكنّي محوته في الحال من مجال رؤيتي) ورفعت حقيبتي الضخمة ذات الثنيات المتعدّدة وخرجت إلى الملعب. زرّرت معطفي حتّى العنق لأنّ الطقس كان شديد البرودة، وكنت أظهر ابتسامة واثقة.

أرغمني زجاج نظارتيّ المكسوّتين بالبخار على النظر إلى كلّ شيء

وكأنّ ضباباً يكتنفه. هل كان هذا هو السبب في أنّي لم ألاحظ بادئ الأمر لأيّ حدّ كنت معزولة؟ ولأيّ حدّ كان واسعاً الفضاء الفارغ من حولي، وكأنّني، قلت في نفسي لاحقاً، كنت أحمل في طرف ذراعي ليس حقيبة بل قنبلة منزوعة الفتيل؟ لكنّي لم أكد ألاحظ شيئاً، وكنت من التصميم على الاحتفاظ بمزاجي الحسن والإبقاء على رغبتي في تغيير الزاوية التي أنظر عبرها إلى الأمور بطريقة جذريّة (لأنّ تحليلنا الخاطئ للواقع تسبّب لنا بالكثير من الألم والشقاء اللامجدي!) بحيث كان يلزمني في ذاك المساء ظهور كوارث أسوأ لكي تجعلني أحيد عن حسن طالعي.

كنت أشعر بتعبٍ خفيفٍ كلّما حاصر الضباب الكثيف المدينة. شعرت لحظتذاك بالثقل المرهق لجسدي الممعن في الاكتناز، مع أنّني كنت مشدودة كما يجب في ثيابي المطاطة القاتمة، هذه الكتلة المذهلة لجسدي التي نمت على مدى السنين على مرأى منّي فيما كنت مستمتعة على نحوٍ غامض، مندهشة، متساهلة. لكأنّ الأمر لا يتعلّق بي بل بالأحرى بجارٍ كنت سأحبّه ولكن كان يجدر بي في تلك الحالة أن أضطلع حيال مصيره بمسؤوليّة مرهقة ومضجرة، ومُذلّة بشكلٍ مبهمٍ. آهِ! أيّة أهميّة لجسدي، قلت بشيء من الرضى.

ولكنّي كنت تعبة في ذاك المساء. ولجت شارع « شابو روج»؛ وهناك أيضاً، هل كان الضباب هو الذي يفصلني عن باقي المارّة؟ هل كنت أرى بشكل سيّئ أم بوضوح: أحقّاً كان الآخرون يصرّون على الابتعاد عن شخصي اللاهث؟

مرّ الترام بالقرب منّي، صامتاً متخفّياً وسط الأبخرة الشاحبة. بدا رنين جرسه وكأنّ الهواء، الذي أضحى شبه ملموس، قد التَقَفَه. لم يبقَ

منه سوى صوتٍ مخنوقٍ، واهنٍ. ولم أرمِ نظرة إلى الداخل لخشيتي من أن أرى هناك وجوهاً متحجّرة، كائنات تعسة قد يلوح في أعينها، ما أدراني!، أيّ انعدام فهم منفّر حيال رؤيتي.

تساءلت فجأة أكان معطفي هو الذي يثير المشكلة؟ أعدت التفكير بتلامذتي، بخطاهم التي تتفادى الاقتراب من منصّة المعلّمة حيث كانت حقيبتي ومعطفي. كان ضيق خانق يعتصر قلبي. قلت في نفسي تابعي السير، تابعي السير، وكأنّ شيئاً لم يكن. بدا لي معطفي ثقيلاً عند الكتفين. تابعي السير والابتسامة على شفتيك.

وصلت أخيراً إلى شارع « إسبري ديه لوا» المقفر. وضعت حقيبتي على الرصيف ثمّ، بحركاتٍ متمهّلة وهادئة، ودون أن أتخلى عن هذه الابتسامة المهذّبة التي ستؤكّد للجيران المختبئين ربّما خلف نوافذهم ليتلصّصوا عليّ أنّ كلّ شيء يسير نحو الأفضل، خلعت معطفي، وبسطتُه أمام عينيّ.

صدمت بما رأيته لدرجة أنّني بدأت أترنّح. شعرت بزوايا فمي تتهدّل. وبدأ فكّي بالارتجاف. لا بأس، قلت في نفسي، لا بأس، لا بأس، تماسكي.

طويت بعنايةٍ معطفي بيديّ المرتجفتين. حافظت على برودة أعصابي قدر ما أمكنني بحيث لففت بالقماش أشلاء اللّحم العالقة به وجعلت منها صرّة ضخمة ثمّ عاودت إمساك حقيبتي ومشيت هكذا حتّى مدخل المبنى، متأبّطة معطفي بكلّ حزمٍ، مع أنّ الطقس كان شديد البرودة، أشدّ برودة بكثير من ذي قبل.

11- الجميع يحبّون اللّحم

كان هو بوجهه الناحل وعينيه اللامعتين المتحرّيتين من فتح لي باب شقّتنا بالذات. أبعد ذراعيه. رميت له بالمعطف.

قلت:

- في داخله أشلاء من زوجي.

ارتخت ركبتاي. سقطت بكلّ ثقلي في عرض الباب. وبقيت على الأرجح لوقتٍ طويل هكذا خائرة القوى، شبه غائبة عن الوعي (لأنّني كنت أسمع كلّ أنواع الأصوات الآتية من المطبخ أو من الغرفة، حفيف القدمين المرتديتين خفّين، وصفير الغلّاية، وخشخشة الصحون) عاجزة عن الحراك أو الكلام، ولكنّي كنت مستسلمة بطريقة ما، متقبّلة عجزي بخفّة أو بلامبالاة، كما نفعل في الأحلام. كم أنّ كلّ هذا كان مضجراً، فكّرت بهدوء، دون أن أعرف ما الذي كان يدعوني إلى مثل هذه الشكوى. كان وركي الأيمن المحتكّ بالأرض يؤلمني شديد الألم. تحرّقت للنهوض ولكن بدا لي أنّ إرادتي منفصلة عن دماغي، وأنّ دماغي كان منصرفاً بدِعَةٍ إلى تميّز الجلبات المختلفة التي تأتيه من البناية أو من الشقّة فيما كانت روحي تنزف وتنتحب.

أكانت ثلاثة دبابيس إنكليزيّة أم دبابيس شَعر تلك التي كانت معلّقة بها أشلاء اللحم، أيْ ألم تكن قطعاً صغيرة من لحم يشبه لحم الخنزير الورديّ والمحتوي على ألياف وقد جعلني حجمه وهيئته أفكر باللحم البشريّ وبالتالي بأشلاء لحم آنج لأنّني رأيت هذا الصباح، أعترف بذلك، أنّهم أعملوا سكّينهم في الواقع في خاصرته، واجتزّوا منها، ولكن ربّما كان أيضاً لحم أيّ حيوان آخر وربّما كانت أيضاً مزحة لئيمة، ولَم كان عليّ أن أفقد بهجتي...

قال بصوت مؤنّب:

- حذّرتك، لم يكن عليك الذهاب.

كان أمامي بلحيته الرماديّة القذرة، وخدّيه الأجوفين المخطّطين بآثارِ بثورٍ خمسينيّة، ونظرته المتوقّدة المجرّدة من الودّ.

قال:

- حاولي النهوض. لن تكون لديّ القوّة على رفعك.

أنا ضخمة جدّاً، ثقيلة جدّاً. كان ابني يقول لي فيما مضى كم أنت لدنة وهو يدسّ جبينه في العضلة المترجرجة لذراعي. آهٍ يا بنيّ لَم لست هنا، قويّاً وحازماً، قربَنا، نحن اللذين بتنا في عمر لم نعد نفهم فيه ما لم نتعلّمه يوماً!

همست قائلة:

- كيف حال آنج؟

تردّد ثمّ قال:

- جيّد بقدر ما تسمح له حالته.

أريد أن أراه.

توجّهت إليه بنبرة يبين فيها العناد والتحدّي وكأنّه كان قد أظهر الرغبة بمنعي عن الذهاب إلى الغرفة.

قال:

- انهضي بادئ الأمر.

استدرت بحذر ومشيت على يديّ وقدميّ لاهثة، دون أن آبه بوجود السيّد نوجيه. **الشهير نوجيه! يا للمَسْخَرَة!**

نهضت مستندة إلى الحائط.

أين معطفي؟

قال نوجيه:

- وضعته في مفرّغ الأقذار. أريتُه لآنج ثمّ رميتُه.

قلت:

- لم يكن يجدر بك أن تريه إيّاه. ليس ضروريّاً أن يحتمل أيضاً هذا النّوع من الحماقات. إنّه تصرّف صبيانيّ مرذول.

لاذ بالصمت. استطعت سماع نفَسه اللاهث قليلاً. لطّف نظرته وشعرت لأيّ حدّ كان كلّ شيء لديه مفتعلاً.

قال:

- هذا خطير بقدر خطورة ما ارتُكب بحقّ آنج البارحة.

- كيف عرفت أنّه ارتُكِب شيء ما بحقّ آنج؟ وماذا لو كان تعمّد فعل ذلك بنفسه؟ أقصد (وأصررت بلهجة عدائيّة) ماذا لو فاقم من خطورة جرحٍ أصيب به دون قصد بغية إحداث انهيار شامل في حياته كلّها، بغيةَ إعطاء نفسه سبباً وجيهاً لتنحّيه؟

وماذا لو لم يكن الأمر البتّة كما أخبرتني به الصيدلانيّة، فلمَ والحالة هذه إعطاء مصداقيّة لكلامها أكثر ممّا لأيّ كلام آخر قابل للتصديق هو أيضاً؟ لم ترَ الصيدلانيّة شيئاً ولم يقل أحد لي إنّه رأى مباشرة أيّ شيء كان.

قال لي بهيئة ضجرة:

- أنت مخطئة في تفكيرك. لا تريدين أن تفهمي أصل الشرّ.

قلت بعدائيّة:

- لم يوضّحه لي أحد.

ولكنّي لا أريد أن أعرف أصل الشرّ. ولا أريد أن أعرفه تحديداً.

مسّد لحيته وشعره الذي طال قليلاً، ثمّ قال بشيء من التحفّظ المرهف

وكأنّه لا يريد إزعاجي:

- لديكما كليكما، ويجب الاعتراف بذلك فعلاً، حيال الحياة، موقف غير... لائق، وهو، من بعض النواحي، غير مقبول، لا بل أضيف قائلاً، واعذريني، لديكما موقف داعر وهذا بالطبع لا يبرّر إطلاقاً أن يصار إلى اضطهادكما، ولم يكن أحد ليعمد إلى اضطهادكما لو كان الأمر مقتصراً على ذلك فقط، بل لأنّ المشكلة أيضاً، كما تعرفان، لابدّ أنّ قلبكما حدّثكما بذلك... هي في وجهَيْكما، أقصد سيماء وجهَيْكما...

قلت وقد شعرت بخديّ يحمرّان:

- وما به وجهي؟

أشاح بنظره بسرعة. كانت المرّة الأولى التي رأيته فيها مستاءً بجدّ.

قلت على عجلةٍ:

- آه، أعرف فعلاً ممّا يشكو وجهي.

وللمرّة الأولى أيضاً شعرت أنّني منزعجة من حَرَجِه ورغبت في وضع حدٍّ له. نفضت الغبار عن ملابسي، وسوّيت نظارتيّ على أنفي. انفكّت حمّالة نهديّ. وراح نهداي يتحرّكان تحت كنزتي لدى أقلّ حركة.

قلت:

- لحدّ الآن لم أرَ زوجي بعد.

قال متظاهراً بالقلق:

- معطفك... كان بمثابة ضربة قاضية له.

لم ينجح كثيراً في إخفاء ارتياحه وحماسته الخبيثة. كان هو مصدر الشرّ. وله عهدت بأغلى إنسان على قلبي. فما الذي جعلني أضعف هكذا؟

جعلني غضب شديد متصلّبة وأدخلت يديّ تحت كنزتي لأعاود تزرير حمّالة نهديّ متقبّلة على مضضٍ نظرته التي يشوبها كدرٌ واضطراب.

قلت مستهزئة:

- على فكرة، يبدو أنّ زملائي يعرفونك.

قال:

- حقّاً؟

شعرت حينئذٍ أنّه سُرّ لقولي وأنّ معرفة هذا الأمر كانت ترضي غروره لكنّه لم يُفاجأ. وكأنّه كان معتاداً على أن يعرفه الآخرون وأن يصار إلى تمييزه. مررت أمامه مرفوعة الرأس وذهبت إلى غرفتنا. دخلت وأغلقت الباب خلفي وأوصدته بالمزلاج مرّة. كان أحد المصابيح الموضوعة قرب السرير يرسل نوراً ضعيفاً في الغرفة.

همس آنج:

- لا توصدي الباب بالمزلاج.

استوى في السرير متجهّماً متّكئاً على مرفقٍ واحد. كانت رائحة النتانة تصيبني بالاختناق.

- سيعتقد أنّك على حذرٍ منه.

قلت:

- فليكن! بالطبع أنا أحذر من هذا المجهول. أتذكر كم كنّا نكرهه؟

قال آنج بشيء من الفظاظة وبفارغ الصبر:

- لا، لم أكن أكرهه إطلاقاً.

ثمّ تهاوى على الوسادة ضائق النّفَس، مرهقاً. كنت أتنفّس أنا أيضاً بمشقّة. كانت رائحة النَخَر لا تحتمل. فتحت النافذة فدخل الهواء المتجمّد

إلى الغرفة.

همس آنج:

- أتوسّل إليك، البرد قارس. لا،... لا أستطيع أن أتحمّل مثل هذا البرد.

وبدأ بالبكاء على مهل. أغلقت النافذة ثمّ جثوت على ركبتيّ بالقرب منه. قمت بجهدٍ فائق كي لا أنتحب بِدوري باكية وهذا ما جعلني أشرد قليلاً وكأنّ شيئاً آخر كان يستغرق اهتمامي.

كان خدّا آنج ضامرين ولامعين. جذبت الغطاء برفق لأكشف عن جسده حتّى الوركين وتفحّصته بمكرٍ وخبث مدركة أنّي كنت أستغّل ضعفه. كان الجرح مسودّاً والدم متيبّساً على شكل جلطة مليئة حدبات وندوباً. على حوافّ الجرح كان يركد سائل بلون الزنجار، ومن هنا، من هذا التقيّح كانت تنبعث الرائحة الخبيثة.

همس آنج:

- ما فعلوه بك، معطفك...

ثمّ رمى نظرة مرتعبة نحو الباب وقال:

- أتوسّل إليك لا تعاكسيه.

- آنج، حبيبي، لا تعذّب نفسك بقصّة المعطف هذه.

همست بكلامي في أذنه بنبرة خاشعة مداعبةً جبينه الرطب، مدركةً أنّه لم يكن يلاحظ شيئاً لا اللمسة ولا مراقبتي جرحه. كان مستغرقاً بكليّته في المشكلة الخطيرة التي كان يطرحها صراحةً المزلاج الموصد.

لم يكن آنج، خلف مظهره المتواضع، يخاف من شيء ولا من أحد. وها إنّه صار يرتجف مثل ولد مضروب. يا إلهي هل أنّ تلامذتنا يخافوننا؟

قلت:

- كانت تلك دعابة سمجة. أنا غاضبة بسببها وسأحاول العثور على المذنب، وصدّقني سينال عقابه.

همس آنج:

- تعرفين أنّها لم تكن دعابة بل جريمة. كلّ شيء انتهى. هذه غلطتنا. يجب علينا ألّا ننسى ذلك.

قلت:

- ليس الأمر كما تعتقد. إنّه هو الذي أقنعك بذلك.

- لقد انتزعوا قِطعاً من لحمي!

تكلّم آنج بصوت شديد الخفوت لدرجة أنّني لم أكن أستطيع سماعه أحياناً. كانت عيناه تجيلان في كافّة الاتّجاهات نظرات مليئة ذعراً.

قال:

- أوضحَ لي لأيّ حدّ كنّا مخطئَين. كان على حقّ، ولكن فات الأوان لنتغيّر. لم يعد بإمكاني الخروج إلى أيّ مكان. حتّى هنا كلّ شيء بإمكانه أن يحدث. حسناً، ما حصل عادل وجيّد. أريد فقط ألّا أتعذّب أكثر.

- دعني أستدعي الطبيب شار.

توسّلت إليه وأنا أشعر أنّني بدأت أفقد صوابي.

- هذا ما لا يجدر بك أن تفعليه على الإطلاق.

اغتاظ آنج وأصابته نوبة غضب مفاجئ منّي.

لكأنّك لم تفهمي بعد. تتكلّمين كما كنت ستفعلين لو حدث ما حدث منذ ستّة أشهر. لا أحد من الناس الذين نعرفهم... يجب أن يدخل إلى

هنا. وخصوصاً الطبيب شار... هل تريدين أن أموت بأسرع ما يمكن؟ لا أريد أن أتألّم لكنّي لست جاهزاً للموت، ليس بعد.

- وغلاديس؟ وبريسيلا؟

هتف آنج وكأنّه فريسة رعب لا يوصف:

- لا يجدر بهما أن تأتيا إلى هنا ثانية!

هل كنتُ راضية سرّاً؟ وأستأنفت قائلة وقد شعرت بالاضطراب على الرّغم من كلّ شيء، لأنّني أعرف أنّ آنج كان يمحض ابنتيه حبّاً جمّاً:

- ابنتاك... ؟

- هما تعتقدان أنّهما تبليان بلاءً حسناً... من أجلي... ولكنّ ما تفعلانه هو أشدّ رعباً. لا، يجب ألّا تقتربا منّي ثانية. إنّهما تسبّبان لي ألماً فظيعاً. لا تستمعان إليّ ولم يعد لديهما أيّ ثقة... كم تألّمْتُ. ستقضيان عليّ فيما تظنّان أنّهما تحبّانني و... أنّهما ستنقذانني... لكنّهما لا تستمعان لما أقوله، لم يعد لهذا... أيّ أهمّيّة بالنسبة لهما. تعرفان جيّداً أنّها غلطتنا... ولا تريدان أن تنتقل إليهما العدوى.

قلت:

- عن أيّ عدوى تتحدّث؟

كرّر محاولاً أن يقلّد صوتي ساخراً بفظاظة من جهلي:

- عن أيّ عدوى أتحدّث؟

وفكّرت في الحال أنّني لم أرَ آنج قطّ يناكدني على هذا النحو، ولكنّه ربّما استخدم هذه السخرية المقيتة مع آخرين في غيابي.

قال تَعِباً:

- عن عدوى كلّ ما نحن عليه. نحن سيّئان، وغير جديرَين بالاحترام.

كنّا أعميَين. أنت ما زلت عمياء. تخشى ابنتاي أن تشبهاني، أتفهّمهما ولكن فات الأوان كثيراً بالنسبة لآنج لاكوردير العجوز.

- هل ترغب فعلاً بأن أعتني بك الآن؟

هزّ آنج كتفيه. نهضت من جديد وفتحت المزلاج خلسة وانسللت إلى الرواق.

انبثق من عتمة الصالون. وبقفزة أصبح قربي، بشكلٍ مدهش، رشيقاً، خفيفاً. كان يتلصّص علينا باستمرارٍ، منذ الأزل.

- حضّرت العشاء. حان وقت تناول الطعام.

قلت:

- حسناً.

قال بصوتٍ آمِرٍ:

- يجدر بك ألّا تخافي منّي وألّا تقنعي زوجك بأن يخاف منّي.

قلت بشجاعة:

- هل أنت جاسوس؟ وضحكت في سرّي لاستخدامي مثل هذه الكلمة دون أن أخشى أن أبدو مثيرة للسخرية.

في ضوء الرواق الخفيف، رأيته يقطّب حاجبيه.

- جاسوس؟ لصالح من؟

لا أعرف. أنا آخر من يعرف.

قال:

- ليس ذلك سبباً لافتراض أيّ شيء.

ذهبت لإحضار الضمادات والمطهّر من غرفة الحمّام. وراح يتعقّبني.

قال بلهجة متوتّرة:

- هل هذا لزوجك؟ ولكن لا يجدر بك الاعتناء به. لا يجدر به أن ينسى ما فعلوه به!

أطرقت رأسي متظاهرة بالتفكير، ثمّ التففت حوله وهرولت نحو الغرفة ثمّ أوصدت الباب في الحال.

ران على الشقّة صمت مطبق. ألصقت أذني بالباب فسمعت حينئذٍ صوته الهادئ الواثق آتياً بالضبط من الجهة الأخرى للباب:

- لن تستطيعي إشفاءه. عبثاً تحاولين. لم يعد بالإمكان فعل شيء. تلك الرائحة، هل تفهمين؟ إنّها رائحة الموت.

همست قائلة:

- من أنت؟

قال متهكّماً:

- أنا نوجيه الشهير. ألم يحدّثوك أبداً عنّي؟ أنت الوحيدة التي لا تعرفينني وهذا لتعفّفك.

تشبّثت أصابعي بالباب.

قلت بصوت خافت لخشيتي من أن يسمعني آنج:

- ولكن ما بالك! هل يُعدّ اعتنائي بزوجي جريمة؟

شعرت بأنّي في غاية الإحباط والتعب فاتّكأت على الدرفة كما كنت أرتاح على صدر ابني أو صدر آنج فيما مضى. خشيت أن ألتفت فأرى عيني آنج اللئيمتين اليائستين محدّقتين إليّ.

ألصقت شفتيّ بالباب ثمّ قلت متأفّفة:

- وهل هذه خطيئة ألّا أعرفك؟

- نعم (بصوته العذب، الواثق، المغوي والعذب، الذي لا دفء فيه).

كلّ ما تجهلينه يشهد ضدّك. ثمّة أشياء يجب ألّا نجهلها، أليس هذا صحيحاً؟ أنّ علينا أن نجهد لكي نعرف ونفهم. آهِ، أنت شديدة... شديدة الاعتداد بنفسك.

نادى آنج:

- ناديا!

وانتفض جسدي كلّه وكأنّ ميتاً كان يستيقظ ويتكلّم خلف ظهري، ثمّ انسلخت عن الباب وتقدّمت ببطء نحو السرير. هل كنت مذنبة حيال آنج؟

قلت:

- الآن، أستطيع الاعتناء بك.

أضاءت شرارة سخرية وجهه الناحل.

- أشممتِ رائحة جسدي كم هي نتنة.

قلت:

- نعم. يجب تنظيف كلّ هذه القذارة. كان يجدر بابنتيك أن تفعلا ذلك منذ أمس.

قال آنج:

- تعالي، تعالي، اقتربي منّي.

أخرج يداً من تحت الشرشف وجذبني من ياقتي إليه بحركة عنيفة. حبست أنفاسي. كانت النتانة تنبعث أيضاً من جلده الدبق، ومن شعره، ومن فيه.

همس آنج في أذني:

- أتعرفين، أنا جائع للغاية لكنّي أريد أن تقدّمي لي أنت الطعام الذي

حضّره، وليس هو. مفهوم؟ بعد الظهر، حين كنتِ في المدرسة... (بدأ يبكي وينتحب) بعد الظهر، هو الذي أطعمني. لم أعد أريد ذلك. ولكن إيّاك أن تقولي له هذا الكلام، مفهوم؟ لا تتذمّري من شيء بحضوره.

- ومن يكون هو؟

- من يكون؟ كرّر آنج بهذه الطريقة الجارحة التي يعتمدها الآن للسخرية منّي.

رفع كتفيه غاضباً. يا إلهي، قلت بطريقة آليّة، ساعدني كي لا أكره آنج الجديد هذا.

وكرّرتُ بصوتٍ معاند:

- من يكون؟

غمغم آنج قائلاً:

- إنّه نوجيه العظيم.

حسرت الغطاء حتّى ساقيه. كتمت ارتجافة أمام مرأى الجرح لكنّ الرائحة كانت من القوّة بحيث توجّب عليّ الابتعاد. فتحت الخزانة وانتشلت منها منديلاً كبيراً ووضعته على أنفي.

نظر إليّ آنج صامتاً، كئيباً ومع ذلك مطّ شفتيه قليلاً دلالة منه على نوع من التلذّذ القاتم، ومن اللذّة الشيطانيّة المغترفة من قذارة الوضع نفسه، ولم أستطع الامتناع عن التعجّب قائلة:

- كم تغيّرت يا آنج!

قال آنج:

- نعم قد يتغيّر الإنسان بسبب فجوة في بطنه. وقد يتغيّر الإنسان أيضاً

لدى رؤية قطعٍ من لحمه بالذات معلّقة إلى معطف زوجته بدبابيسِ أمان. نعم، هذا صحيح.

قلت معترضة:

- إنّه لحم خنزير أو أرنب. كلّ شيء يسير على ما يرام من حولنا. يكفي الاقتناع بذلك.

رمى بنظرة فزعة ومرتابة نحو الباب، ثمّ همس قائلاً:

- نوجيه لا يريد أن أنسى ما حدث. يقول إنّه يجب أن أفكّر بجرحي وبالمعاني التي يتّخذها عذابي.

قلت بصوتٍ عالٍ وواضح:

- ولكن ليس هناك ما يجب فهمه. اغتررنا بنفسينا هذا كلّ شيء. وبسبب الغرور ظننّا يا آنج أنّنا مكروهان.

قرفصت قرب السرير. وبدأت بقصّ قميص آنج حول الجرح. سمعت نفَسي المتسارع، الشاقّ. وبالرغم من المنديل فإنّ الرائحة الخبيثة كانت تصيبني بالدوار. بللت ضمادة في المطهّر ثمّ حاولت أن أمسح القيح الكثير الذي فاض على بطن آنج، وتحت بنطاله، وخضّل الفراش والأغطية. تولّاني شعور بأنّ ما كنت أمسحه كان يتجدّد على الفور، متدفّقاً ببطء من عمق الجرح.

هتفت مثبّطة العزيمة:

- ولكن من أين يأتي كلّ هذا؟

- إنّها روحه التعسة التي يسيل منها القيح. العشاء جاهز!

وقرع نوجيه في الوقت نفسه قرعتين على الباب. ارتعد آنج مزمجراً من الدهشة والخوف. لزمنا الصمت طويلاً منصتَين إلى ما قد يدور في الشقّة.

همس آنج وذقنه متشنّج وكلّ وجهه الناحل المصفّر قد ازداد ذبولاً:

- أليس على حقّ؟ أليست... روحي كلّها، أليس جوهر كياني نفسه... هو الذي يسيح... قولي لي؟

حاولت الضحك لكن لم يصدر عنّي إلّا زقزقات متتابعة. قلت في نفسي مستاءة: ومع ذلك فإنّ هذا كان صحيحاً، كان صحيحاً أنّ آنج ذاك صرت أقلّ معرفة به يوماً بعد يوم.

احتجت لعلبة الضمادات كلّها. وكان القيح يسيل دوماً ويقتم وينتن باطّراد. شعرت بالاختناق خلف منديلي. ملأت النتانة الغرفة كلّها. نهضت لأفتح النافذة.

صرخ آنج:

- لا، أشعر بالبرد، أشعر بالبرد.

في الصمت غير المألوف للباحة والحيّ، كان صوته الجاثم في الأعلى يصدح وكأنّه صوت آخر إنسانٍ حيّ. كان صداه يتردّد مشؤوماً فأغلقت النافذة دون ندم. ثمّ شعرت برغبة جارفة في النوم. ليتدبرّ كلّ واحد أمره كما يستطيع، قلت في نفسي بطريقة غامضة وأنا أشعر بإرهاقٍ شديدٍ. لكنّ هذه العادة بأن أشعر بنفسي مسؤولة عن كلّ هؤلاء الذين يحيطون بي وعن كلّ ما يحصل لنا من سرّاء وضرّاء، هذه العادة كانت من الرسوخ بحيث كنت أعجز عن التخلّص منها بمجرّد الرغبة في ذلك.

ومن دون أن أنظر إلى آنج، خرجت من الغرفة فشممت رائحة طيّبة تنبعث من المطبخ، رائحة طماطم مطبوخة بالثوم وزيت الزيتون.

أمّا هو فوجدته هناك منتظراً بصبرٍ أمام الطاولة المعدّة لشخصين. لم أستطع الامتناع عن الهتاف قائلة:

- ما أطيب هذه الرائحة!

قال بتواضع:

- أعددت أكلة «أوسو بوكو»[1].

أيُعقل أن يكون عدوّنا هو الذي كان يحضّر لنا مآكل تلطّف من شقائنا؟ هل كانت خطّته السحريّة تقوم أيضاً على هذه المناورة؟

قلت وأنا أحاول اتّخاذ هيئة صارمة لا بل قرِفة بشكل خفيف:

- لا أبالي « بالأوسو بوكو».

ومع ذلك، كم كنت جائعة، وكم بدا لي كلّ هذا شهيّاً!

قال نوجيه:

- لديّ قريب في بيريغور[2] يربّي عجوله وخنازيره وكلّ اللحم الذي آكله، وكلّ اللحم الذي أجلبه لكم آتي به من مواشيه الممتازة. وبذلك تتجنّبان الأمراض.

تحدّث بعجلةٍ ولطفٍ لدرجة شعرت معها بالخجل وملأ سائل مرّ فمي لفرط ما كنت أتضوّر جوعاً. شعرت بأنّه كان يتفحّصني خفية. لكنّي كنت في منتهى الإرهاق والحيرة.

هل كان هذا مهمّاً جدّاً، على أيّة حال، أن أعرف من هو هذا الرجل؟

قلت:

- لا، لا أخشى المرض.

اقتربت من القدر التي يتصاعد منها البخار (لقد فتّش إذن في الخزائن ليجدها) وحنيت بشكل أخرق رأسي فوق الشرائح المستديرة للحم

(1) أوسو بوكو Osso-buco: أكلة إيطاليّة مؤلّفة من اللحم والخضار.

(2) بيريغور Périgord: منطقة قديمة في فرنسا تغطّي حالياً معظم مساحة دوردونيا Dordogne.

العجل السابح في الصلصة البرتقاليّة اللون.

تمتمت:

- أليس هذا دسماً بعض الشيء؟

قال:

- بسبب النخاع. زوجك يعشق النخاع، أليس كذلك؟

قلت:

- نعم، آنج يحبّ النخاع.

وسرعان ما لمت نفسي لأنّي أضفت:

- كان معتاداً على أن يدهن به الخبز ويحمّصه في الفرن.

قال بابتسامة صغيرة ماكرة:

- لا تستطيعين الحصول على صلصة خفيفة حين يكون النخاع في مكوّنات الطبق.

سألت:

- ما الذي تتوقّعه منّا. أتوسّل إليك أجبني بوضوح.

وتهاويت على الكرسيّ قربه تماماً محدّقة إلى وجهه القبيح بنظرة مباشرة وأنا أشعر بذقني يرتجف.

قلت:

- أترى؟ لم يعد لديّ كبرياء.

قال نوجيه بنبرة حاسمة:

- لا أريد إلّا مساعدتكما. لا مهمّة أخرى لديّ.

- ولكن هل أرسلك أحد؟

قال:

- لا أتبع أحداً.

وفي هذه اللحظة تفادت عيناه النّظر إلى عينيّ وهذا ما دفعني للتفكير في أنّه ربّما كان يكذب، أو في أنّه يكذب بلا أدنى شكّ.

نهضت متبّطة العزيمة واجتاحني شعور باللامبالاة المنهكة. أخذت أحد الصحنين الموضوعين على الطاولة وملأته باللحمة والصلصة. وضع نوجيه بعناية حصّة من المعجّنات على حدة ثمّ غادرت المطبخ وذهبت لإطعام آنج.

كان ينام متأوّهاً. نهض لدى دخولي إلى الغرفة. كان اللعاب يسيل عند زاويتَي شفتيه.

قال:

- أنا جائع، الرائحة طيّبة.

للمرّة الأولى منذ وقت طويل، ابتسم.

هذه النتانة، لم يعد يلاحظها، قلت في نفسي، وقد انتابني دوار. جلست على حافة السرير ولاحظت أنّ سيلان القيح لم يتوقّف. ثمّ قرّبت من شفتَي آنج ملعقة من اللحم والمعجنات فالتهمها بنهمٍ، وفيما كنت أنظر إليه يفتح فمه الممرّغ بالصلصة ويغلقه وأتمثّل صورةً يدي نوجيه الضخمتين وهما تحضّران الطعام، قابضتين على اللحم، مقطّعتين البصل والبندورة، وكذلك تصميم نوجيه على إثارة شهيّة الأكل لدينا، عرفت أنّه سيكون مستحيلاً عليّ أن أمسّ «الأوسو بوكو» الذي أعدّه جارنا، ليس فقط لأنّ نوجيه يقزّزني بل لأنّه يطهو بنوايا مبيّتة، ولأنّه بين يديه القذرتين كانت الأطعمة، قلت في نفسي ببرودة، تغدو وسيلة لاستعبادنا.

12- هل أهينت الجنيّة الشريرة؟

بعد يومين اتّصلت بغلاديس على مضض.

ردّ عليّ أحد أولادها. وحين انتهيت من التعريف بنفسي بدأ بالصراخ وترك السمّاعة تسقط. ساد الصمت بضع دقائق. لم آتِ بحركة. وضعت السمّاعة على أذني وقد صرت أتقبّل أن تعقب ردّات الفعل الأكثر غرابة أفعالي الأكثر عاديّة.

وقفت أمام النافذة الكبيرة للصالون، ورأيت المطر يتساقط في شارع «إسبري ديه لوا» وقبالتي الجدران السوداء، والشرفات التي لم يعد يظهر عليها أيّ من جيراننا لدى رؤيتي. بدا لي أيضاً أنّ العديد من الأشخاص المقيمين في بنايتنا قد رحلوا؛ إلى أين ذهبت عائلات فولك، ودوميه، وبرتو، كلّ هؤلاء الأزواج من الجيران الرائعين الوادعين الذين كانوا منذ ثمانية أشهر فقط يحتشدون في هذا الصالون نفسه حاملين كؤوس الشمبانيا في أيديهم للاحتفال بولادة حفيدتي؟

دعَونا ساكني البناية كلّهم باستثناء نوجيه. واليوم، لم أعد أرى هؤلاء الجيران ولم أعد أسمعهم، وبدا لي كذلك أنّ سيّاراتهم لم تعد موجودة في الشارع. هل أخطأنا آنذاك حين احتقرنا نوجيه وأظهرنا بسخاء لجميع الآخرين دلائل شتّى لتودّدنا واحترامنا الذي لم يخلُ من بعض التعالي؟ أجل كان هذا صحيحاً، شعرنا دوماً أنا وآنج بأنّنا كنّا متفوّقين على جيراننا وزملائنا. أمّا نوجيه فإنّ شعورنا ناحيته كان أقرب، ولا شكّ، إلى الكراهية الممزوجة بذاك القرف الذي كان يثيره فينا والباعث على الغثيان.

وأخيراً هتف صوت غلاديس في السمّاعة:

- هذه أنت ناديا؟

كان صوتها بعيداً وغامضاً وكأنّ غلاديس احتاطت ووضعت قماشة بين فمها وسمّاعة الهاتف.

قلت:

- نعم هذه أنا. يبدو أنّني تسبّبت بخوف كبير لابنك، أليس كذلك؟ ذاك الذي رفع السمّاعة؟

تجاهلت غلاديس نبرتي المازحة. بقيت صامتة. سرت قشعريرة في رقبتي. التفتُّ بسرعة إلى مدخل الصالون لكنّي لم أرَ أحداً. ومع ذلك لم أستطع التأكّد من أنّني كنت وحيدة في الغرفة.

قلت:

- لم تأتيا لرؤية والدكما.

قالت غلاديس بعد صمت:

- لا.

ازداد صوتها خفوتاً. تابعتُ بجهد قائلة:

- حالته ليست جيّدة إطلاقاً.

قالت غلاديس:

- كان قلبي يحدّثني بذلك.

لم تكن تجيب إلّا بعد مرور بضع ثوانٍ من الصمت وكأنّ صوتي بالذات كان محتاجاً لهذا الوقت لكي يصلها أو كأنّها لا تستطيع التحدّث إليّ إلّا بعد أن تروز كلّ كلمة وكلّ نبرة. ومع ذلك، قلت في نفسي، أيّ معنى قاسٍ عساني أستخلصه من كلمات غلاديس؟

قلت وأنا حائرة بعض الشيء:

- وعدتما بالعودة. أمر غريب على أيّة حال أن...

قالت غلاديس:

- نحن نتعلّم أن ننفصل عنه.

وأصبح صوتها خافتاً إلى حدّ التلاشي. صرخت في السّماعة مرتعبة فجأة لشعوري أنّ هذا الحديث سيكون الأخير، وأنّ غلاديس لن تجيب بعد اليوم على مخابراتي الهاتفيّة:

- يا أنتِ، غلاديس!

قالت غلاديس:

- حسناً أظنّ أنّه يُستحسن بي إقفال السّماعة في الحال.

انتظري! عليكما أن تعرفا أنتما الاثنتين أنّني... سأرحل.

كانت الدموع تحرق عينيّ. ومع ذلك بقيت متماسكة ناظرة إلى المطر الغزير، لأفسد على الكائن المختبئ ولا شكّ في صالوني لذّة أن يراني أنهار.

قالت غلاديس وهي تنأى أكثر فأكثر:

- ماذا؟ قلت إنّك سترحلين؟

- سأذهب للّحاق بابني، ولكن آهٍ يا غلاديس أنا مضطرّة لترك آنج هنا لأنّه ليس في حالة تؤهّله للسفر.

تكلّمت بسرعة كبيرة لكي أستبقي غلاديس وقتاً إضافيّاً، تلك المرأة التي تمنّيت غالباً ألّا أضطرّ لرؤيتها مجدّداً عندما كانت تزورنا وعندما كان عداؤها وبراغميّتها وقداستها الكاذبة تغيظني.

قلت وأنا أشعر بخزيٍ لا يطاق:

- سيبقى آنج تحت رعاية جارنا، ولكن عليكما المجيء لرؤيته، والاهتمام به وإلّا... يا إلهي... أتوسّل إليك، غلاديس...

- سأقفل السّماعة الآن. لديّ أطفال كما تعلمين. آه لم يكن يفترض بأبي

أن يعرفك... سأقفل السمّاعة...

- ستأتين يا غلاديس؟

ضغطتُ السمّاعة بقوّة شديدة على أذني وكأنّني كنت على وشك تحطيمها.

في الجهة الأخرى من الشارع، رأيت عندئذٍ طرف ستارة ينحسر. كانت الطالبة الصينيّة التي تسكن هناك، قبالتنا بالضبط، والتي لم أعد أصادفها على الرصيف منذ عدّة أشهر، لدرجة أنّني اعتقدت أنّها رحلت بدورها، تلصق جبينها بالزجاج. تلاقت نظراتنا. وجّهت إليّ ابتسامة خاطفة. شعرت بارتياح أبعد من المعقول. تذكّرت أنّ هذه الفتاة الشابّة كان لديها عادة التجوّل عارية تماماً خلف ستائرها الشفّافة، وأنّ آنج حين كان يراها، كان يحلو له أن يقول وهو يدير رأسه بغضبٍ:

- هذه العاهرة الصغيرة من تعتقد نفسها؟ إذا استمرّت على هذا النحو، فسأرسل لها الشرطة.

تلك هي الكلمات التي كان آنج يقولها بشيء من اللذّة، ولكن، قلت في نفسي، مَنْ غيري كان قادراً على سماعها؟ حديثَ العهد كان إحساسي هذا بأنّ أحداً ما كان مختبئاً في صالوننا وكان يبيّت لي الحقد. فيما مضى، لم يكن هناك أحد سوانا نحن الاثنين، أنا وآنج، ولا يمكن الظنّ أنّي بُحت ببعض أقوال آنج، لأنّي امرأة متكتّمة، لا بل صموت، في حضرة البالغين.

سمعت حينئذٍ صوت غلاديس يتلاشى ثمّ ينطفئ وكأنّ ريحاً أقوى منه تبدّده.

قالت غلاديس:

- أنا الآن في طريقي إلى نسيان أبي، وبريسيلا أيضاً تسعى لنسيانه.

أفضل.

وهتفتُ:

- ولم هذا أفضل بالنسبة له؟

فات الأوان، كما كنت أتوقّع: من السمّاعة لم يعد يأتيني إلّا الرنين الطويل للغياب.

اقتربت من النافذة مراقبةً المطر، محاولة أن ألمح من جديدٍ الطالبة الصينيّة خلف نافذتها. ما زلت أشعر في كياني كلّه بالعزاء الذي حملته إليّ ابتسامتها الخاطفة، والتي تكاد لا تُرى. وآنج، عزيزي آنج، ألم يكن مغالياً في كرهه لهذه الفتاة؟ كان يكرهها فقط لأنّها كانت تحبّ أن تُظهر جسدها الجميل العاري؟ ذات مرّة أومأ بحركة صفعها، رافعاً ذراعه عالية جدّاً أمام النافذة، وكانت أشدّ تعابير السخط بادية على وجهه، وكأنّه يريد أن يؤكّد لها بشكل حاسم بأنّ عريها يؤذيه لدرجة تجعله يفقد السيطرة على غضبه. وحينئذٍ ما كانت ردّة فعل هذه الفتاة؟ بدا عليها أنّها فوجئت ثمّ خفضت بصرها إلى صدرها وساقيها وكأنّها تنتبه إلى عريها، أو كأنّها تبحث في هيئتها عمّا من شأنه أن يصدم آنج إلى هذا الحدّ، إلى حدّ أنّه كان يبدو راغباً في تدميرها عن بعدٍ، ثمّ ابتسمت ببراءة وهي تهزّ رأسها بكثير من الظرف.

تذكّرت أيضاً ذاك المساء حين استقبلنا جيراننا لنحتفل بولادة سوهار (لماذا أُعطِيَتْ هذا الاسم؟ سألت ابني على الهاتف بحزنٍ وامتعاض)، حينها دلّ آنج جميع المدعوّين على نافذة الطالبة وهو يهتف:

- هل تعرفون ماذا تفعل هذه الفتاة؟

وعندئذٍ قام بوصفها ثمّ قلّدها كيف تتبختر ونجح فقط بإعطاء انطباع بالفجور وهو يسير بخطىً صغيرة متلاصقة، دافعاً بكرشه إلى

الأمام ورافعاً مؤخرّته قليلاً إلى الخلف، ما أثار انزعاج الزوجين دوميه والزوجين فولك بشكل خاصّ، هذا ما شعرت به، لأنّهم كانوا جيراناً في منتهى اللطف والبراءة بمعنى ما. رغبت في أن أقول لآنج: دعك من ذلك، ليست الفتاة كما تدّعي، لكنّي اكتفيت بالابتسام بمتعةٍ لخشيتي من أن يأمرني آنج بأن أقلّد الفتاة بدوري إن أنا انتقدتُه جهراً. ولم أكن من العفّة بحيث أحاكي بصدقٍ الطلاقة الطبيعيّة التي تبديها الفتاة، وقلت في نفسي إنّي سأضاهي تقريباً آنج زيفاً ووقاحة. وفكّرت: أنّى لنا تلك الخفّة الرائعة التي كانت للفتاة أو ذاك اللطف البسيط والمشاكس في آن، لذا لن نكون إلّا منفّرين في سعينا للاستهزاء بها.

نزل المساء أخيراً ملتهماً النهار القاتم والمطر الذي لم يتوقّف عن السقوط. وفجأة شعرت على رقبتي بلهاثٍ بارد. حبست أنفاسي كما كنت أفعل في كلّ مرّة كان يقترب فيها منّي.

همس وشفتاه الجافّتان الباردتان تلامسان عنقي:

- حضّرت العشاء، قطع لحم ملفوفة ومحشيّة بالفطر والقشدة، وإلى جانبها القليل من الريزوتو[1] بالأرضي شوكي، ستتلذّذين بطعمه. أتيت بالقشدة الطازجة من معمل ألبان في النورماندي يقدّم كلّ ضمانات المكوّنات الطبيعيّة والطعم التي أحرص عليها كما تفعلان أنت وزوجك، أليس هذا صحيحاً؟ تحبّان مثلي الأشياء الجيّدة أليس كذلك؟ هيّا العشاء جاهز، سكبت لك الطعام في صحنك. وفي أثناء ذلك سأطعم عزيزنا المسكين آنج.

فعاجلته بالقول:

(1) الريزوتو من أشهر أطباق الأرز في إيطاليا.

- أنا سأهتمّ بإطعامه.

ثمّ فكّرت أنّ الأمر لم يعد يتطلّب مثل هذه الاحتياطات لا سيّما وأنّي وافقت على أن أترك آنج خلفي في عهدة نوجيه.

واقفةً في المطبخ، كنت أتناول بسرعة وبقرفٍ غامضٍ ما حضّره لي، ثمّ تقدّمت بهدوء حتّى غرفتنا. من الباب المنفرج، لمحت ظهر نوجيه المنحني باتّجاه آنج وفكّرت على الفور أنّني كنت أنحني كذلك على الأطفال لدى تأنيبهم، في المدرسة، راغبة في التأثير بهم بكلّ ثقل جسدي الغاضب المنحني عليهم. كان آنج يمسك شوكته بنفسه ويغرزها في قطع اللحم في الصحن الذي كان نوجيه يقدّمه له. التهم آنج طعامه بسرعة كبيرة.

قلت في نفسي: لم يكن يمهله لينهي مضغ ما في فمه.

رأيت خدّي آنج منفوخين، مليئين بالطعام ثمّ لا يلبث أن يزدرد قطعة أخرى ويلحقها بكميّة كبيرة من الأرزّ. كان نوجيه يحثّه مغمغماً:

- هيّا، هيّا كُلْ، لديّ أشياء أخرى عليّ القيام بها.

ومع ذلك، علامَ كان يسعني أن ألومه؟ ألم أكن مرتاحة لأن يحلّ نوجيه مكاني وسط نتانة الغرفة تلك؟

صرت أنام في الغرفة التي كانت بمثابة مكتب لنا. كانت رائحة الجرح تشعرني بالدوار.

لم أكن أحتمل البقاء إلّا بضع دقائق بالقرب من آنج؛ كنت أجفّف عبثاً القيح الذي يسيل من جرحه، أمرّر قفّازاً للاستحمام مشبعاً بماء الكولونيا على جبينه وخديه اللذين كانا يزدادان اصفراراً وضموراً في كلّ يوم. صار آنج يرمقنا بالنظرة نفسها، أنا ونوجيه، تلك النظرة الهاربة والمتوسّلة، المذعورة والذي يلوح فيها شيء من الخرع. ولكن حين كنت أهمّ بأن

أهمس له قائلة:

- هل تريدني أن أستدعي الدكتور شار؟

كان الاحمرار يعلو وجهه الناحل ويهزّ رأسه بغضب ثمّ يزجرني قائلاً:

- قلت لك مائة مرة إنّني لا أريد أن أرى أحداً. ألا تفهمين؟ سوف يقوم بحقني بإبرة... قاتلة... أنا واثق أنّ الحقنة جاهزة... تلك التي كانت معدّة لي. وهو لا ينتظر سوى ذلك... اتّصالك.

سألت بصبر:

- ولكن لماذا ترفض أن يأتي؟

عندئذٍ راح يضحك محاولاً أن يقلّدني على سبيل الاستهزاء، ولكنّ ذلك كان ينهكه فيتوجّب عليه بسرعة التخلّي عن مسعاه مكتفياً بالتحديق إليّ بنظرة شبه حاقدة كانت تروّعني. ماذا أصبح بحال زوجي؟ زوجي الذي كنت أحبّه، الذي كنت وإيّاه شخصاً واحداً، أين اختفى؟

13- كم كنت سعيدة لو أنّه كان ابني

منذ ثلاثة أيّام لم أذهب إلى المدرسة وكان عليّ فعلاً أن أواجه هذه الحقيقة البديهيّة وهي أنّ السيّدة المديرة لم تحاول الاتّصال بي، وأنّ أيّاً من زملائي لم يقلق لغيابي، وأنّ أيّاً من الأهالي لم يكتب أو يرسل لي رسالة صغيرة أو رسمة لطيفة من تلامذتي، كما فعلوا في المرّات القليلة التي كنت أتغيّب فيها بداعي المرض خلال السنوات المنصرمة.

يبدو أنّني أُقصيت من حياة المدرسة كما سبق أن حصل لآنج.

وتفادياً للالتقاء بنوجيه في الشقّة، لم أكن أغادر المكتب حيث أنام إلّا لأنسلّ إلى غرفة الحمّام أو للاهتمام بآنج بسرعة خاطفة. إلّا أنّني حتّى في

غياب نوجيه كنت أشعر حولنا بحضوره المتفحّص وبطيفه المتيقّظ. كنت إخاله قد نزل من جديد إلى منزله ليقضي الليلة هناك ثمّ لا ألبث أن أسمعه يطقطق بقدميه أرضيّة الرواق، وباب غرفتنا يئزّ تحت قبضته، وحين كنت أهتف من مكتبي وأنا منتصبة في سريري الصغير قائلة:

- هل هذا أنت سيد نوجيه؟

لم يكن أحد يجيبني وكان الصمت ينهال فجأة على الشقّة.

لأيّ سببٍ جاء إلى منزلنا؟ لم أكن أستطيع الامتناع عندئذٍ عن الشدّ على يديّ وأنا عاجزة عن الحراك لشدّة خوفي، وكنت ألوم نفسي على عدم حماية آنج مع أنّه صار في غاية الهشاشة. لم أكن أشعر بأنّه يؤذيه تحديداً. على أيّة حال لم يكن آنج يشتكي منه. بالطبع، وهل كان سيجرؤ على ذلك؟ لكنّه كان يملك على آنج وحول آنج تأثيراً أجهل طبيعته وغايته. وكأنّه كان يريد أن يتأكّد من أنّ آنج لن يشفى.

في صباح اليوم الرابع، شربت القهوة التي حملها إليّ نوجيه حتّى قبل أن أنهض من النوم (لا بدّ أنّه كان يترصّد خلف بابي أقلّ جلبة تشير إلى استيقاظي) وهذه القهوة كانت ألذّ وأشهى قهوة شربتها في حياتي. ثمّ ارتديت ثيابي بعناية ووضعت المساحيق على عينيّ وفمي. وجدت وجهي في المرآة متغيّراً، أكثر اتّساعاً وامتلاءً من ذي قبل وذقني قد ازداد سمنة.

قلت في نفسي إنّ هذه السمنة كانت نتيجة الطعام الشديد الدسم الذي يرغمنا على التهامه، وشعرتُ بي منزعجة ومخدوعة بشكلٍ مبهم في آنٍ معاً.

قلت له لدى دخولي إلى المطبخ:

- تضع الكثير من الزبدة والزيت في أطباقك.

كان منصرفاً لدهن شرائح الخبز الساخن الشهيّة بالزبدة، تلك التي

كان يجلبها كلّ صباح. ولاحظت كذلك أنّه اشترى هلاليّات[1] وشرائح خبز محمّصة بالحليب ومذرورة بِحبيبات السكّر.

قلت غاضبة:

- شرائح الخبز هذه طافحة بالزبدة. لِمَ تريد أن تسمّننا مثل خنزيرين معدّين للذبح؟

رمقني بنظرته التي لا دفء فيها والتي يحاول أن يضمّنها نوعاً من الدماثة المهذّبة.

قال:

- هذا بدافع الإعجاب. أحببتما دوماً الطعام اللذيذ، أليس كذلك؟ رأيتكما دوماً تعودان من السوق مع هذا اللحم الإيطاليّ المقدّد الذي كان أريجه العطر يملأ الدرج كلّه أو هذه الخضار الشهيّة التي كنتما تتركانها تُطهى على مهل أحياناً طيلة بعد الظهر، وعندئذٍ أدركت أنّه لديكما مثلي هذا الحبّ لــ...

قلت مقاطعة إيّاه وأنا في قمّة الغضب:

- وهل جميع جيراننا، عائلة برتو وعائلة فوك الرائعة وآل دوميه الذين هم في منتهى التهذيب، هل ذهبوا جميعاً في عطلة؟

قال باحتقار:

- آهِ... هؤلاء...

ثمّ صمتَ متظاهراً بأنّه أشدّ رهافة من أن يعبّر عن عمق أفكاره.

سألته بلهجة حذرة:

- وماذا يثير استياءهم منك؟

(1) رقاقات بالزبدة على شكل هلال تؤكل عادةً مع الفطور.

- أنا من وقف إلى جانبكما، أليس كذلك؟ لم تريا أيّاً منهم ولن تريا أحداً عمّا قريب. ربّما كانوا يأنفون من التصريح حتّى بكونهم عرفوكما.

وزمّ شفتيه بقوّة وبرطم حرداً، متظاهراً بأنّه يركّز على الزبدة والخبز. كان هذا التحفّظ النكِد وهذا الاحتراس المجروح متّسمَين بأدبِ أثار حفيظتي.

قلت بلطفٍ:

- أنا متأكّدة من أنّك مخطئ، ومتأكّدة من أنّ جيراننا لا يُخجلهم وجودنا. ما إن تتوفّر لهم الفرصة لكي يعبّروا عن تعاطفهم حتّى...

قال باشمئزاز:

- طبعاً... طبعاً... طبعاً.

قلت:

- لا تعرف عنهم شيئاً على الإطلاق.

شعرت بأنّني منزعجة ومستاءة كما في كلّ مرّة كنت أتحدّث فيها إلى نوجيه. كان يشوّش ذهني وهو يحاول أن يجذبني إلى الحمأة التي كان يتخبّط هو فيها بلذة منفّرة، وحيث كان ينظر إلى كلّ ظرف من وجهة نظر الشكّ وحده.

قال بهدوء:

- لم تتّخذي القرار بالرحيل هكذا عبثاً.

اكتسى وجهي بحمرة حارقة. بدا لي أنّ وجنتيّ تتمدّدان بطريقة مخيفة.

قلت في نفسي: دعيكِ من الكلام معه في هذه المسألة.

وشعرت فجأة بإشفاق لا يوصف حيال نفسي إلى حدّ أنّ عينيّ اغرورقتا بالدموع. شعرت بأنّني متفانية في عملي، وحيال التلاميذ، وأنّ

الجميع كانوا يتجنّبونني وكأنّني نفاية قذرة لا يراد حتّى أن يُحتفظ بصورتها في الذاكرة.

قلت:

- أريد فقط أن أزور ابني. وحفيدتي لم أرَها لغاية الآن.

ولم أستطع الامتناع عن الإضافة في صرخة مريرة:

- لقد سمّوها سوهار!

لم يُجب نوجيه. ساد جوّ من الانزعاج الغريب بيننا كما حين سوّيت حمّالة صدري أمامه.

تمتمت:

- سوهار... اسم غريب أليس كذلك؟

وضع على إحدى الصواني وبإتقان متباهٍ كلّ ما يلزم لإفطار آنج. واستنتجت تلقائيّاً أنّني اعتدت على لحيته المشعثّة وملابسه القذرة وهيئة جسمه الملتبسة النحيلة في مواضع والسمينة في أخرى، وأنّ كلّ ذلك لم يعد يصدمني.

قلت أيضاً لكي أبدّد الإحراج الذي أثرته لدى كلامي عن سوهار (ولكنّ مجرّد التفكير بهذا الاسم كان يؤلمني!):

- هناك حيث يسكن ابني سأجد مدرسة تستقبلني.

قال نوجيه بتهذيب بارد:

- حقّاً؟ هل هذا ما تعتقدين؟

غادرت الشقّة دون أن أذهب لإلقاء التحيّة الصباحيّة على آنج لخشيتي من أن يقلق إذا ما عرف وجهتي.

كان شارع «إسبري ديه لوا» رماديّاً ورطباً في ذاك الصباح أيضاً. كلّ

يوم، ومنذ أسابيع عديدة كانت كتلة الضباب الصاعدة من النهر تجثم على المدينة حتّى المساء، مالئة الشوارع برائحة الطين.

رفعت رأسي ولم أستطع رؤية السماء. كان الطابق الأخير في بنايتنا حيث يسكن الزوجان فولك، اللذان هما في منتهى الصدق والتهذيب، محتجباً وسط الضباب الكثيف.

لم يعد لديّ معطف، كنت أرتجف برداً، متلفّعة بصدريّة قديمة. لم يكن يفترض بهذه الصدريّة أن تضغط عليّ هكذا، قلت وأنا مستاءة من نوجيه ومن نفسي لأنّني استسلمت سهواً لإغواء المآكل التي كان يعدّها. كنت مندهشة لأنّني آكل القليل القليل ممّا يقدّمه لي، ولأنّني برغم اعتيادي على هيئته، لم أستطع التخلّي عن ارتيابي حيال الأطعمة التي يختارها ويعالجها بيديه. ومع ذلك كنت أزداد انتفاخاً أنا المكتنزة في الأصل، وهذا لا لشيء إلّا لأنّي نقرْتُ شيئاً من الأطباق التي يعدّها نوجيه. وفجأة قلت في التماعة من وضوح البصيرة الأليم إنّه لا بدّ أنّ آنج كان من الاعتلال الشديد بحيث إنّه كان يزداد نحولاً يوماً بعد يوم فيما نوجيه يتفنّن بحشوه بالطعام، كما لو أنّ هذا الفيض الغذائيّ، قلت في نفسي، كان يسيل من جرح آنج بشكلٍ قبيح.

سرتُ حتّى حيّ سان ميشال في الضباب الدبق. شعرت بالارتياح لأنّ المارّة القلائل الذين كنت ألتقي بهم لم يستطيعوا رؤيتي بوضوح. خشيت أن أصادف ذوي التلامذة الذين لم يعودوا يُظهرون لي حتّى الفظاظة التي كانوا يبدونها منذ بضعة أشهر أسوة بالجميع والتي اعتدت عليها، وأن يتظاهروا بعدم معرفتي بسبب طردي من المدرسة.

أخطأت بالشارع عدّة مرّات قبل وصولي إلى مخفر «لا روسيل».

منذ عدّة سنوات لم آتِ إلى هنا، مذ ترك ابني بوردو، وبسبب رحيله فقدت كلّ ذريعة للذهاب لرؤية المحقِّق لانتون، وهو شابّ كنت أشعر حياله بعاطفة كبيرة، والذي كان آنذاك عشيق ابني، لا بل حتّى عشيره، إن أمكن القول، مع أنّهما لم يقطنا معاً. كنت آمل أن أجده مواصلاً عمله في مخفر «لا روسيل». كم كانت تلك الحقبة تبدو لي بعيدة ومشتهاة، مع أنّها لم تكن قديمة العهد (بل ترقى فقط إلى ثلاث أو أربع سنوات) حين كنت أمرّ بالمخفر بعد المدرسة، وكان يرافقني آنج أحياناً، لتناول فنجان قهوة برفقة لانتون الذي كان وجهه يشرق دوماً لدى رؤيتي، مكتسياً بشيء من الامتنان البنويّ. كان لانتون يجد دوماً الوقت، حتّى عندما كان مشغولاً، للثرثرة والمزاح وإخبارنا بآخر فضائح المدينة، عارفاً أنّنا أنا وآنج نهوى مثل هذه القصص.

كان آنج يهوى بشكل خاصّ الأخبار المتعلّقة بالجرائم. كان وجهه يحمرّ من جرّاء حماسه المكتوم وهو يستمع إلى لانتون، وكانت ساقه ترتعش بعصبيّة. ما إن يخرج من المخفر حتّى يتوقّد انفعالاً وهو يشهر حقيبته ويحاول أن يظهر لي كيف أنّ الفائض من الحرّية الذي يميّز مجتمعاتنا المعاصرة يؤدّي إلى هذه الجرائم التافهة والعبثيّة، التي كان لانتون قد رواها لنا للتوّ. كانت هذه التنظيرات تتعبني. وهكذا، في النهاية، كنت أتدبّر أمري لزيارة لانتون دون أن يكون آنج على علم بذلك، وتلك اللقاءات وجهاً لوجه مع الشابّ وطّدت بيننا آخر الأمر أواصر صداقة عميقة. كنت قد انزعجت للغاية حين علمت أنّ ابني قطع علاقته بلانتون. آه كان يجدر بي أن أواصل زياراتي للمخفر، كنت قد فكّرت فيها بعد، وقد أخذت على نفسي كوني تخلّيت ببلاهة عن حرّية

الاختيار لصالح هذه القاعدة الضمنيّة التي تفرض علينا الكفّ عن رؤية العشّاق السابقين لأولادنا، خصوصاً حين يكون الفراق مؤلماً. كان لانتون شابّاً أفضل من ابني في الكثير من الجوانب، وقد تعذّب بشكلٍ فظيع من هجر ابني له.

كانت قاعة الانتظار تغصّ بالناس بالرغم من الوقت المبكر. شعرت باضطراب، ونظرت إلى الأعلى ثمّ عندما وجدت ما يكفي من الشجاعة لأتفحّص وجوه الناس المنتظرين هناك، أدركت أنّنا كنّا متشابهين أنا وهم.

كيف بالإمكان التعبير عن ذلك؟

هزّني الأمر بعمقٍ. لا أعرف أيّاً منهم، أولئك الرجال والنساء ذوي المظهر العاديّ. ومع ذلك أدركت أنّنا أنا وآنج كنّا هناك بينهم، أنّ باستطاعتنا أن نكون هناك ووجهانا مشابهان لوجوه هؤلاء الناس، وسيماؤنا متماثلة حتّى لو اختلفت قليلاً تبعاً للأفراد؛ وما همّ!، إنّه صدى متعدّد ترجّعه أنفسنا المتشابهة، وذاك تفرّد كنت أعيه للمرّة الأولى.

آنج المسكين هل أكون أنا التي نقلت إليه العدوى؟

لم أفاجأ البتّة من رؤيتي زوجي السابق، والد ابني، في إحدى الزوايا، متجمّعاً في كرسيّه. قلت في نفسي: بالطبع، بالطبع، هو أيضاً.

لم يلاحظني بعد، وفي الواقع، لم يكن أحد ينتبه إليّ، ولعلّ ذلك بسبب الألفة مع الوجوه الأخرى التي يشعر بها كلّ من كان هناك. لكنّ تشابهاً مماثلاً كان يثير قرفي. فجأة شعرت بأنّي أحتقرهم جميعهم، جميع الموجودين هنا بجباههم المقطّبة ونظراتهم الخائفة. كلّ هذه الهموم، كلّ هذه المخاوف التي كانت ترشح من الجلود اللامعة. هل كان لديّ أنا أيضاً مثل هذا الجلد اللامع، المكتنز تعباً وخوفاً؟

اقتربت بخطى متردّدة قليلاً من طاولة المكتب. رمقني الحارس بنظرة مستاءة.

قلت بلهجة الأستاذة الحازمة:

- أريد رؤية المحقّق لانتون.

سأل الحارس وقد بدا عليه الشكّ:

- هل ينتظرك؟

سررت كثيراً لسماعي أنّ لانتون لا يزال يعمل في مخفر «لا روسيل» وقلت:

- نعم ينتظرني.

- حسناً سأعلمه بقدومك.

عدت إلى القاعة. كان زوجي السابق ينظر إليّ تلك النظرات المرتابة، الأليمة التي ورثها ابننا عنه. اقتربت منه على مضض. بدأت أتعرّق في صدريّتي التي كانت تضيق بجسدي ولكنّي لم أشأ خلعها ولا فتحها. يجب على كلّ واحد من الحاضرين أن يحتفظ عنّي بالفكرة الأكثر غموضاً، وأن يجهل أيّ نوع من «الكورساج»[1] ألبسه تحت صدريّتي، إلخ. لم أكن بالمجمل أريد أن أعطي أيّ إشارة من شأنها أن تؤكّد على سبيل الاحتمال مدى انتمائي لجماعة الأفراد هذه.

- ناديا؟

أجبت هامسة:

- نعم، هذه أنا.

تمدّدت شفتاه على مهل ثمّ انفرجتا عن ابتسامة ساخرة أعادتني على

(1) رداء نسائيّ يغطّي القسم الأعلى من الجسم ويبرز في العادة الخصر.

الفور إلى حياتنا السابقة. فكّرت مقطّبة الحاجبين: أمّا عزيزي آنج فلم يلجأ قطّ إلى سلاح السخرية اللئيمة.

قال وهو يتفحّصني من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ:

- لعمري إنّ صحّتك ممتازة.

ابتسم من جديد، دون بهجة. أضحى رجلاً هزيلاً طويل الشعر ووجهه تنتابه تقلّصات عصبيّة لاإراديّة. قلت في نفسي مضطربة: ها هو إذن حبّي الأوّل، وربّما، أجل، حبّي الأكبر.

سأل:

- هل تأتين لزيارة لانتون أنت أيضاً؟

قلت وأنا في غاية الاندهاش:

- نعم، ولماذا تريد أنت رؤيته؟

تمتم وهو يكاد لا يفتح فمه:

- لكي أجدّد بطاقة هويّتي.

بدا مرتعباً، منهكاً. نظرت إليه بقسوة ولم أسرّ إليه بأنّني أتيت للغاية نفسها. شعرت بأنّني أقوى وأكثر ثقة منه.

قلت بصوت خفيض:

- كنت تكره لانتون. لم تكن تحتمل فكرة أنّه كان عشيق ابنك.

قال:

- صحيح، وما برح يحزنني التفكير بأنّه كان عشيقه.

رأيت أنّه كان على وشك أن يغضب فقط لمجرّد ذكر الموضوع.

هتفت:

- كم تثير أعصابي!

كانت هيئته المغتاطة، المستاءة، تعيدني إلى تلك الفترة التي افترق فيها ابننا بقسوة عن لانتون، وحينذاك راودني الشكّ بأنّ زوجي السابق هو من دفعه لاتّخاذ هذا القرار.

قلت بمرارة:

- والآن تأتي لرؤية لانتون.

قال:

- ليتني أستطيع أن أتفادى ذلك.

تفحّصته عن كثب. بدا لي أنّه يمرّ بمرحلة صعبة. كان يرتدي بذلة من المخمل الرماديّ. وكانت تلتصق بشفتيه خثارة بيضاء.

همس قائلاً:

- لا أفهم شيئاً ممّا يحدث لي. ولن تصدّقي لو أخبرتك. كلّ يوم، هل تدركين ما أقول، كلّ يوم يحمل لي معه حصّته من العذابات التي لا تفسّر. يكفيني ما أنا فيه.

ومع أنّ هذا كان غير مجدٍ، ومع أنّه بدا لي مثيراً للشفقة، لم أستطع الامتناع عن الصراخ بوجهه بصوتٍ مخنوقٍ قائلة:

- كنت شرّيراً جدّاً وظالماً جدّاً مع لانتون! ما دخلك أنت بقصّة حبّهما؟

قال وقد شحب وجهه مبيناًعن أسنانه المصفرّة:

- كلّ ما يعني ابني الوحيد يعنيني.

أغاظني أنّه كان لا يزال لديه الوقاحة ليمرّر هذا التلميح إلى عدم الاهتمام الذي كنت قد أظهرته حيال ابننا (كمثل تفضيلي تلامذتي على ابني).

قلت:

- مرحى!، أنت الأب المثاليّ الذي تدخّل في علاقة ابنه العاطفيّة ليحطّمها!

قال زوجي السابق بلهجة انتصار شرّيرة:

- ألست سعيدة بأنّه صار لديك حفيدة؟ ليس لانتون من جعلك جدّة.

فتحت فمي لأجيبه ثمّ أغلقته مستاءة. كنت على وشك أن ألعن اختيار هذا الاسم، سوهار، الذي في كلّ مرّة ألفظه فيها كان يتسبّب لي بعذاب أشبه برفسة في البطن، أي عذاباً ذليلاً، غير مستحقّ وقاسياً في الوقت نفسه. ولكن كان سيبدو الأمر غريباً لو أنّني اشتكيت منه أمامه، وهكذا فإنّي صمتّ مع أنّ هيئته الحزينة الراضية وصلافة تلميحاته أسخطتني.

قلت بصوت حزين:

- ولِمَ يجب أن نظلّ عدوّين؟

هزّ رأسه نافياً الحقيقة كما كان يفعل يوم كنّا لا نزال متحابّين، وزمّ شفتيه بهذا التعبير الذي أعرفه جيّداً، وكان يعني به أنّ الأخلاق كلّها هي إلى جانبه.

قال:

- أنا لست عدوّ أحد. من جهة أخرى لن أخفي عليك أنّني في غاية السعادة لأنّني صرت جَدّاً، ثمّ إنّها طفلة رائعة.

قلت ملدوغة:

- وهل رأيتها؟

أظهر اندهاشه ثمّ قال:

- سوهار؟ بالطبع رأيتها.

قلت:

- لا تلفظ اسمها.

قال بلهجة خبيثة وقد فهم للتوّ ولا شكّ أنّ أحداً لم يأتِ لزيارتي:

- أتوا لزيارتي منذ ستّة أشهر أو سبعة.

ثمّ أضاف:

- إنّها طفلة ذكيّة جدّاً. أراد والداها فعلاً أن أهتمّ بإطعامها، وعند انتهاء زيارتهما كانت تبتسم لي أنا بشكلٍ خاصّ. ثمّ أردف زوجي السابق بدرايةٍ قائلاً: أحبّ الأطفال.

تمتمت:

- ومع ذلك فإنّ اسم سوهار...

ثمّ أضفت وأنا أشعر أنّ عينيّ تحرقانني:

- أودّ لو نكون أصدقاء أنا وآنج وأنت. آنج، في هذه الآونة مريض جدّاً...

لكنّه لم يعد يعيرني اهتماماً وقد أعيد فجأة إلى مشاكله الراهنة مع دخول لانتون إلى قاعة الانتظار. انتصب على قدميه، ورفع يده، ثمّ هتف وهو يتظاهر بالدهشة السعيدة:

- هاي! أنا والد رالف!

أجال لانتون نظراته المشرقة الجميلة باحتقارٍ لدرجة شعرت معها بأنّني منزعجة ومهانة من أجل زوجي السابق. لقد أحببته كثيراً فيما مضى! شعرت عندئذٍ بذاك الشرود الغريب الذي يتولّاني منذ بعض الوقت في اللحظات التي يتوجّب عليّ فيها، بخلاف ذلك، أن أحافظ على تيقّظي

وتركيزي. هززت رأسي.

قال لانتون وهو يبتسم ابتسامته الرقيقة نفسها التي كان يستقبلني بها على الدوام:

- أنتِ من جئت أبحث عنك يا ناديا.

حولنا، كان الصمت المليء بالأمل، الذي قابل دخوله، يتبدّد همساتٍ خائبة.

قلت وأنا حائرة قليلاً:

- أظن أنّ كلّ هؤلاء الناس أتوا قبلي.

رنا بنظرة غامضة خلفه وقال:

- حسناً فلينتظروا ما يلزمهم من وقت. ليس بيدهم حيلة، أليس كذلك؟

شعرت بارتياحٍ مقيت. أظهر لانتون احتقاراً لكلّ هؤلاء الناس، ممّا قادني للتفكير بأنّني إذا كنت أشبههم إلى الدرجة التي كنت أظنّها فإنّه لن يستطيع أن يتجنّب معاملتي بالطريقة نفسها، وهذا كان يعني أنّني لا أشبههم.

أخذ ذراعي برفقٍ ولحقته الى مكتبه، وكان مكتبه السابق نفسه.

قال لانتون:

- ناديا، أنا سعيد، سعيد لرؤيتك مجدّداً.

أمسك بيديّ الاثنتين وحملها إلى شفتيه. اجتاحني سيل من الانفعال وتوهّج خدّاي. منذ زمن بعيد لم أسمع كلمات لطيفة.

تراجع خطوة ليتفحّصني.

تغضّن جبينه، ثمّ قال بنبرة لائمة:

- سمنتِ كثيراً. هل كففت عن الاهتمام برشاقتك؟ هذا مؤسف ناديا، كنت امرأة جميلة جدّاً، أليس كذلك؟

تلعثمت متفوّهةً بأعذار لا طائل منها. شعرت بدوارٍ. جلست على أحد الكراسي أمام طاولته. عندئذٍ انطلق بضحكةٍ ودودٍ وانقضّ عليّ لمعانقتي.

- عذراً، عذراً، انسي كلّ ما قلته. ليس لذلك أهميّة. أعرف أنّ هذه أنت ناديا، وأنا سعيد لأنّك هنا.

تمتمت:

- ومن عساه يكون غيري؟

قال لانتون:

- حين يغيب عنّا أحدهم لسنوات، لسنا واثقين دائماً من معرفته.

كان يرتدي بنطالاً من الجينز فاتح اللّون وكنزة بيضاء سميكة وجزمة أنيقة. كان طويل القامة، أسمر البشرة، مفتول العضلات. وكان لعينيه الخضراوين لمعان خاصّ، قلت في نفسي إنّه لمعان القدرة والرضى. كان لانتون أجمل من ابني بكثير.

قلت:

- أمّا أنا فأعرفك في الحال، أنت رائع.

سأل لانتون:

- لِمَ توقّفت عن زيارتي؟

وأخذ يطرف بعينيه بسرعة كبيرة، وبعصبيّة. ثمّ لكي يشغل يديه اللتين رأيتهما ترتجفان فجأة، غرز إبهاميه في حزامه وجلس بردفٍ واحدٍ على زاوية مكتبه.

قلت مرتبكة:

- هل آلمك حقاً ألّا أعود لزيارتك؟

قال لانتون:

- بالطبع، كنت أظنّ أنّنا كنّا صديقَين، بغضّ النّظر عمّا كان بين...

قلت:

- سامحني، حقّاً... لم أكن قطّ أظنّ أنّك...

لم أجرؤ على القول له إنّني اشتقت إليه شوقاً لا يوصف، وإنّني هممت عدّة مرّات بالمرور لرؤيته، وإنّني لم أكن أحفل كثيراً بأن يحكم عليّ ابني بشكل سيّئ أو بأن أثير استياءه. ومع ذلك لم أفعل، لأنّ ابني هو الآخر، وليس لانتون، ولأنّه كان يبدو لي أنّه حريّ بي أن أتضامن مع ابني وليس مع لانتون، وبالطبع هذا ما أندم عليه الآن ندماً فظيعاً حتّى أنّني أشعر بي ممتلئة بغضبٍ مجحفٍ على ابني.

بقينا صامتَين. صرت أحذر من لانتون لأنّ العنف الذي أظهره في قاعة الانتظار بدا جديداً عليّ.

أشحت بنظري باتّجاه النافذة. لم يكن يُرى إلّا الضباب، الكثيف، الجامد.

قلت مثبّطة العزيمة:

- لماذا لم يعد هذا الضباب ينقشع أبداً؟

ثمّ خاطبتُه بقوّة مفاجئة:

- لاحظْتَ كم سمنتُ، حسناً، والحال أنّني في خلال شهرين أو ثلاثة من افتراق ابني عنك راكمتُ قسماً من هذا الشحم اللامجدي، ولكنّي ازددت سمنة بشكلٍ غريبٍ منذ بضعة أيّام، وهذا لأنّ غريباً

يطهو لنا الطعام، ويجبرنا تقريباً على أكل جميع تلك الأطباق الدسمة والشهيّة، أجل، والمصنوعة بإتقانٍ في الواقع، ولكن التي يحشوها بالدهن سرّاً، ولا أعرف كيف يفعل ذلك لأنّني لا أشعر بالدهن ولا بالانزعاج حين آكل منها... وأخيراً تلك هي حالنا... لكن، يا إلهي، لو تعرف، آنج مريض جدّاً يا لانتون ولا أستطيع أن أفعل شيئاً...

قال لانتون:

- لا تفعلي شيئاً، لا تستدعي الطبيب ولا تأخذيه إلى المستشفى.

- لماذا تقول هذا؟

تريّث لانتون في الإجابة شابكاً ذراعيه. عرى وجهه انزعاج عابر.

ثمّ راح يقول ببطء:

- تعرفين جيّداً يا عزيزتي ناديا أنّ الناس من أمثالكم لا يفوح منهم عطر القداسة...

- ولكن ماذا تعني بكلامك هذا عن الناس من أمثالنا؟ ثمّ إنّ آنج ليس مثلي.

وضع سبّابته على شفتيه ثمّ قال:

- اخفضي صوتك يا ناديا، للجدران آذان هنا.

همست باحتداد وأنا أنحني صوبه:

- أؤكّد لك أنْ لا فكرة لديّ عمّا أنا ولا عن أيّ مجموعة من الأفراد الذين قد أنتمي إليهم.

قال لانتون متردّداً منزعجاً إلى أقصى حدّ:

- ربّما هذا لن يدوم في ما يخصّك. ربّما ستتغيّرين يا ناديا. ما اسمه ذاك

الغريب الذي يُتخمكما الطعام؟

قلت بأسى:

- ريشار فيكتور نوجيه.

صفّر بإعجابٍ واندهاشٍ:

- إذا كان نوجيه العظيم يهتمّ بكما فلا تتذمّري. حتّى لو كان يسرّه أن يسمّنكما، دعيه يفعل، الكثير من الناس يدفعون كلّ ما لديهم لكي يجدوا أنفسهم في كنف نوجيه الرائع!

قلت:

- لكنّني لم أكن أعرف نوجيه هذا.

قال لانتون:

- أتفهمين قصدي؟

نظرت إليه دون أن أفهم قصده. ولكن بدا لي أنّ وجه لانتون الجميل الذي لوّحته الشمس قد تجهّم قليلاً وبات أشدّ قسوة، وكأنّه يضمر لي ضغينة كان يحاول ألّا يظهرها، وهكذا فإنّي عدّلت عن سؤالي (أيّ قصد يفترض بي أن أفهمه؟) وتذكّرت أنّني جئت إليه هذا الصباح لكي أطلب مساعدته. اجتاحت جسدي ارتعاشة لدى التفكير أنّ بإمكانه طردي. وفكّرت حينئذٍ: لو لم نكن على علاقة وثيقة كتلك التي جمعتنا أيّام كان عشيق ابني أفتراه كان سيتصرّف معي كما فعل مع الآخرين، كأن يبدي حيالي ببساطة وتلقائيّة مشاعر الكره والاحتقار التي أبداها لهم؟

قلت بصوتٍ خافتٍ:

- سأرحل يا صديقي.

قال لانتون:

- حسناً تفعلين.

- لكنّي سأترك آنج هنا... حتّى يشفى.

بدأ صوتي يتهدّج. واحمرّ خدّاي خجلاً.

- إنّه نوجيه ذاك الذي سيسهر عليه.

قال لانتون مشكّكاً:

- من سيسهر؟ أحقّاً؟ حسناً. وإلى أين سترحلين يا ناديا؟

- سأذهب للإقامة عند ابني.

التوى فكّ لانتون بشدّة. شبك ذراعيه وأدخل يديه تحت إبطيه وكأنّه كان يعانق نفسه أويحميها. راح يحدّق إليّ.

قلت:

- من زمن بعيد لم أره. لديه طفلة، وهل تتخيّل...

أطلقت ضحكة متوتّرة:

- لا، لن تستطيع أبداً أن تحزر أيّ اسم أطلق على هذه الطفلة.

توقّفت عن الكلام لشعوري بالاختناق. أغمض لانتون عينيه نصف إغماضة. وهتفت عندئذٍ وأنا أرسل رشاشاً من لعابي.

- سوهار! أسماها... سوهار!

ثمّ أسندت رأسي إلى الكرسيّ منهارة، خائرة القوى تماماً.

قلت بعد هنيهة:

- ولكن ربّما كان كلّ هذا لا يعنيك كثيراً، لا تعنيك حياة ابني الجديدة وهذه الأفكار الغريبة كفكرة تسمية ابنته...

قال لانتون متاوّهاً مستاءً:

- كفى يا ناديا كفى! وماذا بعد؟ ما شأني أنا فعلاً إذا سمّى ابنته كما

تقولين؟ ما شأني أنا إذا كانت هذه الابنة موجودة؟

قلت:

- كنت أريد فقط أن تعرف إلى أيّ حدّ تغيّر. لا شكّ أنّه لم يعد الفتى الذي عرفته. هل تتخيّله أباً؟ ومع ذلك، في ما يخصّني، أشعر بفرحٍ، فرحٍ عارمٍ مع أنّ هذه الطفلة لم أرَها بعد.

بدا لانتون محَبطاً فجأة. قفز عن مكتبه واتّجه ببطء إلى النافذة متفحّصاً الضباب. ومن دون أن يلتفت سألني:

- لِمَ جئت يا ناديا؟

- عليّ أن أجدّد بطاقة هويّتي.

- وهو... هل يتوقّع قدومك هناك؟

- لا. لا يعرف شيئاً بعد.

لم أضف أنّي فضّلت عدم إخطار ابني بقدومي لئلّا يحول دون رحيلي، لكنّ لانتون فهم ذلك دون شكّ لأنه تمتم قائلاً:

- ستخطرينه بقدومك حين تصبحين في الباخرة، أليس كذلك؟

قلت بضحكة منزعجة:

- نعم، لكنّه سيكون بإمكانه دوماً رميي في الماء إذا لم يكن يرغب برؤيتي. على فكرة، والد ابني، وقد رأيته في القاعة منذ قليل، يحتاج هو أيضاً لبطاقة هويّة جديدة...

قام لانتون باستدارة كاملة في جزمته الأنيقة. كان غاضباً ومع ذلك لاحظت عينيه البليلتين.

هتف قائلاً:

- لن أحرّك ساكناً لخدمة ذاك الرجل. وإن يمت فلن أهتمّ.

قلت:

- لكنّه أبوه على أيّة حال يا لانتون.

- لا أريد أن أسمع كلمة بهذا الخصوص.

ما كان فيما مضى ليتكلّم بهذه القسوة. لم أضف شيئاً لخشيتي من إغضابه منّي. شعرت بألم كبير من أجل زوجي السابق، وأيضاً بإخلالي بواجبٍ بديهيّ تجاهه...

وفجأة جلس لانتون أمام مكتبه وبدأ بكتابة رسالة بسرعة كبيرة، ومع ذلك استغرقت كتابتها عشر دقائق كاملة. ثمّ طوى الورقة إلى أربع ثنيات وأدخلها في مغلف ثمّ أغلقه.

قال وهو يلهث قليلاً تحت تأثير انفعال لم أستطع تفسيره:

- سأهتمّ ببطاقة هويّتك. ومقابل ذلك تقدّمين لي خدمة إيصال هذه الرسالة إلى ابنك.

- بكلّ تأكيد.

أصبح الجوّ ثقيلاً بيننا. كنّا تحابينا بعاطفة ملؤها الحنان، كانت كلماتنا تطير برهافة، وبرشاقة الفراشات. كان يحبّني أكثر من أمّه بالذات وكان يثق بي، وكنت مفعمة فخراً به وكأنّني أنا الذي ربّيته وجعلته على هذين الجمال والكمال...

خطرت لي فكرة تورّد لها على الأرجح خدّاي وجبيني بلونٍ غريب. لاحظ لانتون ذلك. لوى فمه قليلاً بخبث وقال هازئاً:

- ما أكتبه لابنك يفضي إلى الأمر التالي يا ناديا: إذا لم تعطه رسالتي فسأعرف بذلك حتماً، لأنّه عندئذٍ لن ينفّذ ما أسأله القيام به.

قلت:

- وماذا لو أنّه، بالرغم من كلّ شيء، لم ينفّذ هذا الأمر فقط لأنّه لا

يريد القيام به؟

قال لانتون بحزمٍ:

- مستحيل.

رأيت في عينيه تهديداً. اجتاح تنمّل عابر ساقيّ على طولها.

قال لانتون:

- أعرف أين أجد زوجك...

بدأت بالصراخ مرتاعة:

- ليست حال آنج بهذا السوء، أستطيع أن أصطحبه معي!

قال لانتون بهدوء:

- إنّه في أسوأ حال.

نهضت وأنا أرتجف غضباً، ثمّ قلت:

- بالطبع سأسلّم رسالتك لابني. لَم تظنّ أنّني لن أفعل، قلْ لي؟

وكان غضبي صادقاً وعارماً ولكنّه بدا في الوقت نفسه وكأنّه غير حقيقيّ، كما لو أنّنا أنا ولانتون نؤدّي شخصيّتين مختلفتين عنّا كلّ الاختلاف، لا بل مناقضتين لما كنّا عليه في الحياة الواقعيّة. وأدركت أنّه يستحيل عليّ ألّا أعود لحبّه، وأن أحقد عليه.

بدا لي أنّ مشاعر لانتون كانت متوافقة ومشاعري. اتّجه نحوي، ثمّ احتضن خديّ بيديه. كم كان هذا محرجاً.

قال لي بلهجةٍ ملحّة:

- لا أريد أن ترحلي غاضبة. باسم كلّ تلك اللحظات الحلوة التي عشناها سويّة فيما مضى يا ناديا... أو تذكرين؟ أريد أن تتذكّريني بفرحٍ، بفرحٍ...

- يا عزيزي لانتون، افعل شيئاً لوالد ابني.

أبعدت برفقٍ يديه ثمّ عانقته بدوري. استعدت في شعره رائحة دمية الدبّ الوبريّة التي كانت تسلّيني فيما مضى، وجعلني ذلك أنفعل.

ما برح زوجي السابق هناك، متقوقعاً على كرسيّه، حين اجتزت غرفة الانتظار لأنصرف. في الواقع، ما برح الجميع هناك، كلّ هؤلاء الناس، أشقّاء حزننا، الذين كانوا مثله، يضعون أملهم بحسن نوايا لانتون المحتملة حيالهم. غمزت بعيني زوجي السابق (فكّرت أيضاً كم كنت أحبّه: ذاك الرجل!) لأنّني صرت واثقة من أنّ لانتون سيهتمّ بتجديد بطاقة هويّته، بالرغم من النفور العميق الذي كان يُحسّ به تجاهه. وأنا، على أيّة حال، ألم أكن أجده منفّراً كذلك؟

تحوّل والد ابني في بضع سنوات إلى شخصٍ بائسٍ، مسنٍّ، مشعّث الشعر، حاقدٍ، أشبه بهؤلاء الناس الذين يذرعون ببطءٍ الأرصفة وهم يهزأون أو يتأفّفون وفقاً لتدفّق موج الكدر إلى رؤوسهم أو انحساره. كان هذا الرجل غريباً عمّا يمكن أن نظنّ به. ومع ذك هل كان ينبئ بحقائق أكبر من تلك التي نشي بها نحن المعتادين على الاهتمام قبل كلّ شيء بعدم الأذى أو بعدم الظهور تافهين؟ لا، لا، بالطبع لا، بل ربّما كانت تلك اللامبالاة الكئيبة تحرمه من كلّ فهم ناجع للكائنات التي تحيط به، قلت في نفسي، وأنا في غاية الحزن من أجله.

لم يتجاوب مع غمزتي. بدا محبطاً، ومغتمّاً. ولكن في اللحظة التي كنت أهمّ فيها بتجاوزه وقف على قدميه، وقال:

- ناديا، أصبحت هائلة الحجم.

قلت مستاءة:

- وماذا بعد؟

اغتاظ مقطّباً حاجبيه، نافخاً في وجهي لهاثه الحامز اللاهب (كم قبّلته ذاك الفم، كم مصصته ذاك اللسان، قلت أيضاً في نفسي).

همس لي:

- ألا تدركين يا عزيزتي أنّ هذه البدانة وقحة؟ أنا لا أملك الوسائل لأكون بديناً. بإمكانك تصديقي.

قلت:

- آه، لا تظنّ أنّي آكل إلى هذا الحدّ.

أضفت دون أن انظر إليه وقد شعرت بالإحراج:

- أتعرف، أستطيع أن أساعدك. خذْ.

بحثت في حقيبتي اليدويّة وأخرجت ورقة الخمسين يورو ودسستها في جيب معطفه الواقي من المطر. ربّت على جيبه بضحكة صغيرة هازئة، شبه مسعورة.

قلت:

- سيكون بإمكاني مساعدتك أكثر.

- صحيح، وأين أستطيع العثور عليك؟

فاجأني بسؤاله. تردّدت ثمّ تمتمت قائلة:

- عند ابننا.

قال وقد فوجئ:

- ليس هذا ممكناً. لن يرغب باستضافتك. ثمّ إنّه... وما أدراني؟ سيكون مصدوماً، مصدوماً جدّاً إذ يراك على هذه السمنة.

قلت مستاءة:

- لكنّي أبقى والدته، أليس كذلك؟

فقال والد ابني بعد لحظة تفكير:

- لا أعرف إذا كان سيرى الأشياء من هذه الزاوية.

للمرّة الأولى رأيت نظرته صادقة، ومتضايقاً من أمر آخر لم يكن يخصّه. وضع يده على ذراعي، فتح فمه لكنّه ظلّ صامتاً.

تملّصت منه بسرعة وانسللت عبر الباب. ما يخرج من فم رجل مماثل ليس بالضرورة أقرب إلى الحقيقة من أيّ قول آخر. فلمَ خشيت والحالة هذه ممّا كان يريد زوجي السابق أن يعلمني به؟

قلت لنفسي حين صرت على الرصيف: أنت تخافين من كلّ شيء. لا بدّ أنّني بدوت ضائعة قلقة، وكان نفَسي ثقيلاً. كان عليّ الاعتراف لنفسي بشيء آخر: بما أنّني اعتدت على تربية تلامذتي وابني على حدّ سواء، لم أكن أحبّ البتّة أن أرى أحداً يعلّمني أيّ شيء كان. حدث لي غالباً، وكنت آسفة ونادمة على ذلك، أن قاطعت حديثاً شعرت خلاله أنّ أحدهم يريد تعليمي شيئاً ما أو أنّه يتضمّن مثل هذه النيّة، وعندئذٍ كنت أضحك أو أطلق نكتة أو أغادر الغرفة، وكنت أشعر كم أنّ بدني كان يقشعرّ ويرتجف لدى مواجهة هذا الخطر الذي يشكلّه لي احتمال أن يلقّنني أحدهم معرفة ما. وكان آنج مثلي.

ما نوع المعرفة التي كان يمليها عليّ هذا الاسم الذي لا يطاق: سوهار؟ ما الذي كان يفترض بحفيدتي بالذات أن تعلمني إيّاه وهي بعد طفلة لا يتجاوز عمرها بضعة أشهر؟

أجل كان آنج مثلي، ما إن ينتبه إلى أنّ أحدهم يريد إبلاغه شيئاً ما عن أيّ موضوع حتّى يهتف قائلاً: أفّ من الواعظين، كم أكرههم!

ابتعدت ببطء عن المخفر مبهورة الأنفاس والغصّة في حلقي؛ لا بدّ أنّه كان تأثير الضباب الذي كان يغلّف المدينة برائحة أشبه برائحة الحديد.

وفجأة تجاوزني رجل واسع الخطى، وحين صار بمحاذاتي، تذكّرت أنّه كان أحد هؤلاء الذين كانوا ينتظرون مقابلة لانتون. كان يرتدي قبّعة بنفسجيّة اللون ولها واقية أماميّة[1] عريضة شفافة.

همس في أذني:

- خائنة!

هذا على الأقلّ ما اعتقدت أنّني سمعته.

قلت بصوت صعد بنبرة حادّة ثمّ تكسّر:

- ما الأمر؟

هرب من أمامي مختفياً عن ناظري وسط الضباب قبل أن أكوّن فكرة عن هيئته وعمره، وعن الصلة التي يمكن أن تربطه إجمالاً بآنج أو بي. قلت في نفسي حينئذٍ: لعلّي أسأت الفهم. لا بدّ أنّه قال لي كلمة بذيئة كما كان يفعل أحياناً الرجال الخجولون في هذه المدينة، وبعدها يفرّون مسرعين واضعين أياديهم في جيوبهم، مطأطئي الرأس.

كان الوقت لا يزال مبكراً، وكان شارع الألزاس-اللورين مقفراً. وفيما كنت أتأهّب لقطع الطريق، انبثق الترام من العتمة الحليبيّة. سمعت الرنين الأجوف لجرسه الصغير الذي يتلقّفه الضباب وكأنّه كان آتياً من مكان بعيد جدّاً، أو كأنّه يعدو خلف الترام ويلحق به هاذياً بدلاً من أن يتقدّمه. تردّدت في مواصلة سيري أو في اجتياز الطريق راكضة. ارتميت إلى الأمام. عبرَ الترام بالضبط خلفي مصفّراً بغضب.

كان الترام يترصّدني محاولاً الايقاع بي ويتقدّم متعمّداً أن يسحقني.

التفتّ لاهثة. في الحافلة الأخيرة، كان والد ابني جالساً وكان وجهه

---

(1) قبّعة بواقية أماميّة («كاسكيت») وهنا في السياق تشبه قبّعة البايسبول.

زيتونيّ اللون في ضوء النيون، وحين رآني ابتسم تلك الابتسامة الطيّبة البريئة التي كانت له في بداية زواجنا.

لم يكن هو السائق، أليس كذلك؟ ولم يكن لوالد ابني أيّة علاقة بقيادة هذا الترام؟

تبيّنت في داخلي هذا الشعور المبهم بالذنب الذي لم أستطع التخلّص منه لدى تفكيري بزوجي السابق والذي أتت هذه الابتسامة الودود البريئة لتزيد في حدّته. أجل، كان والد ابني دعيّاً ولكنّه في الوقت نفسه كان طيّب السريرة ومُحِبّاً. نادراً ما كنت أتغاضى عن مصلحتي الخاصّة على المدى البعيد، بعكسه هو. آه يا للرجل المسكين!، كنت أقول في نفسي أحياناً بانفعالٍ وانزعاج. ولكن مهلاً: أيّ سوء ارتكبته؟ لم أنتهك أيّ قانون ولم أخلّ بأيّ واجب، بل احترمت واجباتي بدقّة. ما الذي فعلته؟ لقد فاوضت طلاقي مع هذا الرجل بحيث نُسبت إليه كلّ الأخطاء من دون أن يخطر له أنّ الأمور كان يمكنها أن تجري بطريقة مغايرة. حتّى اللحظة لا يزال يدين لي بالمال. وهاكم تحديداً الأمر الذي كان يعذّب ضميري: بتّ أستطيع الاعتراف بأنّ قصّة حبّي مع آنج كانت قد بدأت منذ زمن طويل قبل طلبي الطلاق من زوجي، وكنت أعرف آنذاك أنّه كان يجهل كلّ شيء عن علاقتي بآنج، كنت قد تماديت في الظلم من الناحية الأخلاقيّة حين فرضت على زوجي أن يضطلع بمسؤوليّة فشل زواجنا، آه أجل، فرضت ذلك بطريقة هي غاية في الإجحاف لأنّه كان زوجاً عنيداً وساذجاً إلى ذلك، وكان قاطعاً في رأيه، إلّا أنّه يمكن استمالته، وكان يكفيني أن أشتكي من نواحٍ شتّى متعلّقة بتصرّفاته، عديمة الأهميّة في الواقع، لكي يفقد كلّ ثقة وكلّ قدرة على التفكير، وينسى تقريباً مجريات

الأمور، ويقتنع بأنّه كان قد فرض نفسه عليّ زوجاً تافهاً حقّاً.

كان آنج قد قال لي بصوته العارف الهادئ حين كنت أفكّر بأفضل طريقة للطلاق:

- ألم يكن هو السبب في أنّ ابنك يفضّل الرجال على النساء؟ هذا بادٍ للعيان.

وهكذا ردّدت لزوجي:

- أنت السبب في أنّ ابننا يفضّل الرجال على النساء، ومع ذلك فإنّ هذا الأمر لا يزعجني إطلاقاً.

كنت قد كرّرت ذلك على مسمعَي زوجي بالرغم من علمي أنّ تلك الخاصيّة في حياة ابننا كانت تعذّبه وتربكه لا بل تحبطه أيضاً. كنت قد كرّرت ذلك على مسمعَي زوجي بالرغم من معرفتي أنّه يصعب عليه التشكيك في صحّة مثل هذه التصريحات. ولكن ما جدوى العودة إلى هذه القصص القديمة؟ بالطبع، كان زوجي السابق لا يزال مديناً لي بالمال، ولكنّ عزوفي عن المطالبة به كان يعفيني من أيّ دين معنويّ تجاهه. هكذا كنت أنظر إلى الوضع.

يوم كنّا زوجين، كان عامل كهرباء وكان يكسب رزقاً وفيراً. بتّ أظنّ أنّه منذ الطلاق، كفّ تدريجيّاً عن العمل، لكن ما الذي كان بإمكاني فعله؟ أكنت ملزمة أنا بمنعه من الاستسلام للكسل؟ ما الذي بإمكاننا أن نفعله حقّاً لرجلٍ يدفعه التأفّف والندامات الواهية والاستهانة بذاته إلى الانهيار؟ لقد رفض رفضاً باتّاً الدعوات التي وجّهناها له أنا وآنج لتناول العشاء عندنا على أمل أن يجمعنا شيء من قبيل الصداقة المهذّبة. ولم يأتِ كذلك إلى الحفلة الصغيرة التي أقمناها احتفاءً بولادة الطفلة المسمّاة سوهار

على سبيل البلاهة (أرجو الله ألّا يكون هذا الاسم نذير شؤم عليها، وألّا يكون، أقول في نفسي أحياناً، نذيراً للحكم عليها بالإعدام).

14- مدينتي الجاحدة

عدت إلى شارع «إسبري ديه لوا» وأنا أستدلّ على الطريق بفضل بعض الواجهات المميّزة. كان الضباب من الكثافة بحيث لم يكن يسمح بقراءة أسماء الشوارع. كان المارّة قلّةً وعلى عجلة من أمرهم. كانوا ينبثقون فجأة عند تقاطع الشوارع الضيّقة وكأنّهم كانوا مختبئين في زاويا المباني ينتظرون أن يسمعوا خطاي لكي يظهروا أمامي ويلقوا الذعر في نفسي بصمت، ثمّ لا يلبثون أن يختفوا في الظلمة البيضاء لكتلة الضباب الخفيفة.

كنت أعرف تماماً أنّ تلك رؤيا نابعة من ذهني المشوّش. لكنّي كنت متنوّرة البصيرة، وقادرة، مع شعوري بالخشية والنفور، بأن أدرك هذياني. لكنّ هذه البصيرة لم تمنع قلبي، قلبي التعس السابح في شحمه أن يحتدم خفقانه في كلّ مرّة ينبثق فيها كائن قبالتي، وقد بدا عليه الذهول (المصطنع؟)، محدّقاً إليّ بالانتباه المذعور لذاك الذي لا يعرف إطلاقاً الشخص الذي كان يتهيّأ لرؤيته من جديد.

لا، لم أكن مجنونة. ولكن لَمَ كنت أشعر بأنّ كلّ ما يطوّقني متّصل مباشرة بي؟

لم أستطع أن أتخلّص من هذا الشعور بأنّ المدينة كلّها كانت تراقبني. وقلبي كان في ضيق شديد، تحاصره زمرة الضواري، ويطرق جدار صدري راغباً في أن يقفز خارج قفصه الضيّق، قلبي التعس الشائخ، قلبي المرتجف. أنا التي ولدت في بوردو، في حيّ أوبييه، وأمضيت طيلة حياتي في هذه المدينة التي أحببتها

بحنان أخويّ، كما أحببت شبيهي الإنسان، بوردو تلك كانت تتوارى عنّي وتهرب من وجه صداقتي بطريقة غريبة، وها إنّ طرقها تبدو لي وكأنّها غيرت هيئتها ووجهتها (قلت في نفسي: أكان هذا بسبب الضباب فقط؟) وها إنّ ساكنيها الذين، منذ بضعة أشهر، كانوا معادين لي (وقد اعتدت على ذلك وأصبح عداؤهم أمراً محتملاً في الإجمال)، باتوا يُشعرونني ليس بكرهي تحديداً ولكن بأنّهم يطاردونني.

بدأت بالركض بخطى مجهدة. وعدّة مرّات لم أستطع تمييز حافّة رصيف الطريق، وسط أوشحة الضباب المائج، وقفزت رغماً عنّي وسط السيارات. وظلّ شارع «إسبري ديه لوا» بالنسبة لي مفقوداً.

توقّفت عن الركض ورحت أختبئ تحت سقيفةٍ لأفكّر. بما أنّني تجاوزت ساحة الكاتدرائيّة، وانعطفت يميناً نحو شارع «تروا كونيل» ثمّ نحو شارع «سانت كاترين»، كان يفترض بي أن أجد شارع «إسبري ديه لوا» بالضبط بعد المسرح الكبير. بَيْدَ أنّني اقتربت، كما يبدو، من شارع فيكتور هوغو الذي كان من المفترض أن أكون قد تركته بعيداً خلفي. كيف أمكن حدوث هذا؟ هل بسبب الضباب فقط؟ كان مستحيلاً أن أضيع أنا التي كنت أذرع منذ نصف قرنٍ قلب المدينة، قلبها القديم الأسود، قلبها القديم البارد.

كان مستحيلاً أن أتوه، قلت في نفسي، موجّهة تفكيري على ضرورة أن أحافظ على حسّي الموضوعيّ. بيد أنّ المدينة نفسها كانت تسعى إلى تضليلي، مدينتي العزيزة التي كنت أعتقد أنّ وفاءها ثابت لا يتزعزع. وأنا، ما الذي خنته ومن؟ هذا إنْ أنا فهمت جيّداً ما قاله لي ذاك الرجل الذي يرتدي قبّعة ذات واقية، حين وصفني بالخائنة. لم أغدر بأحدٍ طوعاً،

وكنت شعرتُ بي دوماً مسؤولة عن أفعالي وأفكاري إن لم يكن عن أفعال الآخرين وأفكارهم، لا بل تماديت في هذا الشعور. ماذا إذن؟ إذا كانت مدينتي تخونني، في قلبها القديم المظلم الجاحد، فلن أثق بأحد بعد اليوم ولا حتّى بزوجي.

وإذ هدأ روعي ابتعدت عن السقيفة محاولةً أن أحدّد مكاني. أبصرت في الضباب قبالتي متحف «أكيتين» بكتلته الهائلة. كان عليّ إذا العودة أدراجي حتّى شارع «بي برلان»، ثمّ الانعطاف تلقائيّاً يميناً نحو شارع «ألزاس- لورين».

عدت أدراجي مسافة مائة متر. لا بدّ أنّ مفترق الطرق كان هناك، لكنّ الشارع امتدّ مستقيماً فيما كان ذاك الشارع متعرّجاً، أنا واثقة. مشيت بسرعة متزايدة. لا شيء كان مألوفاً لي. تركت حيّ المباني المرتفعة وصرت أرى محالاً ذات سقوف واطئة بانت خلفها أشجار ضخمة شاحبة. لم تكن تلك هي الطريق التي كان يجدر بي أن أسلكها إطلاقاً ولم أكن أسكن في تلك الضواحي.

توقّفت ثانية وقد جنّ جنوني. استدرت قليلاً حول نفسي، باحثة عبثاً عن مَعْلَم. عدت أدراجي. بدا لي أنّ المدينة تتلوّى أمام عينيّ: هناك انبسط شارع ثمّ ضاق، وإلى جانبه الجادّة اتّسعت وتضاعفت منعطفاتها. قلت في نفسي إنّه الضباب، إنّها أشرطته الطويلة البيضاء المتحرّكة التي كانت تطمس الرؤية. أحقّاً كان الأمر يتعلّق بالضباب وحده؟

يا إلهي، من سيأتي لمساعدتي؟ هل أُعاقَب لأنّي عاهدت نفسي على عدم طلب النجدة من أحد؟

اقتربت بحذرٍ من كشك جرائد وكان المحلّ الوحيد المفتوح في

الشارع. ألقيت نظرة إلى المرأة الجالسة قرب الصندوق. وتولّاني ضيق أشدّ إيلاماً من الضياع، وابتعدت بأقصى سرعة ممكنة. اعتراني الشعور، كما منذ قليل في المخفر، بأنّنا أنا وهذه المرأة كنّا متشابهتين في كلّ شيء وكنّا من السلالة البشريّة نفسها، بخلاف المارّة أو لانتون، بخلاف زملائي أو نوجيه الذين صرت أشعر في سرّي أنّهم مختلفون. ولكن كيف؟ هذا ما لم أكن أعرفه بعد. كان شيئاً ما في تعبير الوجه، في ما تعكسه النفس من لدنها على الملامح.

شعرت بقرفٍ مبهم، مع أنّه لا شيء كان قبيحاً بشكلٍ خاصّ في ما أبصرته. ولكنّه كان محرجاً كالإفشاء غير الواعي لسرٍّ اعتيدَ على حجبه. لذا لم أحرص على أن أسأل هذه المرأة أيّ شيء كان، ولم أشأ أيضاً أن يرانا أحدهم معاً أو أن تؤكّد نظرة أخرى، نظرة زبون على سبيل المثال، تشابهنا فيشملنا الارتياب الساخط نفسه.

سرت مسرعة على الرصيف دون أن أدري إلى أين تقودني خطاي. انعطفت فجأة باتّجاه زقاق بدا لي أنّه ممرّ «ليبيه»، لكنّه كان يطلّ على ساحة صغيرة كنت أجهلها تماماً وفيها ثلاثة مقاعد، وتمثال لمونتسكيو، ورصيف قديم أسود. أكان قاتماً وممسوخاً وفاسداً قلب مدينتي؟

كنت أظنّ مع ذلك أنّني أعرف بوردو حقّ المعرفة، وها إنّ أجزاء غريبة من هذا الجسد الكبير الشديد الألفة تجرؤ، بشكل ما، على احتلال مقدّمة المشهد. حاولت عندئذٍ أن أقرأ اسم هذه الساحة. لكنّي امرأة قصيرة القامة، آه، وطولي يكاد لا يتجاوز المتر والستين سنتمتراً، وكان الضباب يحجب عنّي تماماً اللافتة التي قد تشير إلى اسم هذا المكان. كيف حدث أنّه لم يسبق لي أن مررت من هنا؟ أم أنّ تنقّلاتي على مرّ السنوات أصبحت

بهذه الرتابة إلى درجة أنّني أستطيع أن أطوف بأحياء كاملة من مدينتي الحبيبة، وبوسطِها الذي كنت قد اعتدت عليه كما على جلبة أفكار في عقلي بالذات، دون أن ألحظ ذلك؟

كان هناك مكتب بريدٍ حديث العهد، وبعض مخازن الملابس التي لا تزال مغلقة. تنفّست الصعداء ودخلت إلى مكتب البريد. لمحت عندئذٍ ريشار فيكتور نوجيه منحنياً باتّجاه شبّاك التوزيع الوحيد. قلت في نفسي وقد فوجئت: عجباً، هل كنت إذن قريبة إلى هذا الحدّ من شارع «إسبري ديه لوا»؟

- سيّد نوجيه!

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أحسست فيها لدى رؤيته بشعورٍ هو أقرب إلى الأمان من التوجّس، وإلى المتعة من النفور.

قال بلهجة قاسية:

- هذه أنت أخيراً، شغلت بالنا.

قلت:

- لقد تهت.

وفجأة، وإذ تلاشى ذعري، شعرت بالرغبة في البوح، وفي أن يرثى لحالي.

قلت بسرعة كبيرة:

- السبب هو هذا الضباب المرعب، كلّ المعالم تغيّرت، بوردو لم تعد تشبه نفسها...

مسحت جبيني بحركة من ذراعي. كنت متعرّقة بالرغم من البرد، عظيماً كان خوفي، خفت من أن أُرغَمَ على الطواف إلى ما لا نهاية له في

مدينة مجهولة، انطفأ قلبها.

بدا نوجيه قاسياً، وساهماً، ومستاءً. لدى اقترابي سارع لإعطاء الموظّف الرسالة التي كان يختمها. عندئذٍ اعتراني شعور مبهم بأنّه كان، بنظراته المثبّتة على وجهي، يحاول أن يجعلني أحدّق إلى وجهه، وبالتالي أن يلهيني عمّا تفعله يداه. وعلى الفور، وبردّة فعل غريزيّة، نظرت إلى الرسالة التي استلمها الموظّف للتوّ. وقرأت بأحرفٍ مقلوبة اسم ابني على المغلّف. بدأت شفتاي بالارتجاف. نظرت إلى نوجيه، لاحظت أنّه يعرف أنّني رأيته.

غمغمت بصوتٍ خافت قائلة:

- هل كتبت رسالة لابني؟ هل تعرف ابني؟

وتذكّرت اسم حفيدتي اللعين فاستبدّ بي مرّة أخرى كهاجسٍ؛ أجل كان هاجساً يجعلني رغماً عنّي أشدّ على أسناني حتّى الألم وأسهو لبضع ثوانٍ فلا أعود أعي خلالها ما يحيط بي.

تمتمت وفمي مليء بالريق:

- من بين كلّ الأسماء الموجودة في هذا العالم، لمَ هذا الاسم بالذات؟

ثمّ ازدردت ريقي بصخب وقلت بلهجةٍ قاسية:

- من أين تعرف ابني؟

قال نوجيه:

- لا أعرفه.

ضحكت هازئة، ومع ذلك شعرت بساقيّ واهنتين رخوتين. كانت ساقاي ثقيلتين، ضخمتين وها إنّهما صارتا من الرّقة بحيث لم تعودا قادرتين على حمل باقي جسدي، وإذا بي مثل زهرة فوانيا[1] ضخمة تنثني

(1) الفوانيا: نبتة للتزيين.

على ساقها.

مسّد نوجيه لحيته بطريقة آليّة. ثمّ خفض بصره ورماني بنظرة حادّة. كان يرتدي سترة من جلد الخروف المقلوب، فضفاضة عليه، ولاحظت أنّها كانت لآنج. جيّد أن تصلح هذه الأغراض القديمة لأحدٍ ما، قلت في نفسي، غير مهتّمة بالأمر لا سيّما وأنّ هذه السترة هديّة تلقّاها آنج من ابنتيه.

قال نوجيه بلطفٍ:

- لا تقلقي. أنا وآنج ارتأينا ببساطة أنّه سيكون من الأفضل إخطار ابنك بقدومك، كنّا نعرف أنّ ذلك سيزعجك، ولكن سيكون من غير اللائق مباغتته بهذه الطريقة الـ... كيف أصفها... بهذه الطريقة المستدرّة للعواطف... أليس كذلك؟

هل حدّثني نوجيه من قبل بصوتٍ عذب كهذا؟ شهقت باكية.

قلت:

- لا أعرف... إذا كان جيّداً ما فعلتماه.

ولكنّي شعرت أنّ اضطرابي وارتيابي وضياعي وحقدي، أنّ ذلك كلّه كان يسيل مع دموعي ويفرغ قلبي الهرم والسمين والثقيل من الأسئلة التي تمضّه.

قلت بحرارة وأنا أبادر إلى وضع يدي على ذراع نوجيه:

- أودّ لو نصبح الآن صديقين!

ابتسم ابتسامة خاطفة، مصطنعة قليلاً.

- لا أعرف هل تعتبرين ابنك بمثابة صديقٍ لك (قال نوجيه بهذه النبرة التي تدّعي الحكمة، المتمهّلة، الدؤوب التي كنت أجدها كريهة

وتذكّرني دوماً بمَكْرِه، أو كأنّه كان يريد أيضاً أن يحاول إقناع الآخر بأنّه كان أستاذاً، مستعيراً من المربّي ملامحه المثيرة للسخرية) لكن ما يدهشني هو أنّك قادرة على أن تفعلي مثل هذا بابنك.

قلت متبرّمة:

- وأنا سئمت من أن أُصوَّرَ على أنّني أمّ سيّئة أو أمّ لا تحبّ ابنها كما يجب.

لم يستمع نوجيه إليّ. قام بحركة تنمّ عن نفاد صبره واحتقاره وكأنّه كان يستخفّ بكلامي.

- ابنك طبيب حسب ما أخبروني، إنه متزوّج وربّ عائلة...

قلت في تمتمة يشوبها الألم:

- ليس لديه إلّا طفلة، تدعى سوهار.

- هذا لا يهمّ، لا يهمّ!

هتفت:

- كفى! هذا فعلاً أمر لا يعقل!

قال رافعاً صوته:

- دعيني أنهي كلامي. وهكذا فإن ابنك تزوّج واستقرّ، وقد اختار أن يجعل بين حياته الجديدة وبوردو مسافة لا يبدو اجتيازها بهذه السهولة. صحيح أنّ العلاقة التي كانت تربطه بآنج، زوج أمّه، هي من العلاقات الأكثر انسجاماً، لكنّ وجود والدته في المدينة نفسها كان بالنسبة له أمراً لا يطاق، بطبيعة الحال.

كنت مصدومة بكلامه. شعرت بالاختناق.

- من المستحيل أن يكون آنج هو الذي حدّثك على هذا النحو! إذا

سلّمنا جدلاً بأنّ ابني قد هرب من أحدهم، مع أنّ ذلك غير صحيح على الإطلاق، فلعلّه هرب من والده، زوجي السابق!

سأل نوجيه متعجّباً:

- هل هذا صحيح؟

رأيت في عينيه التماعة فرح خبيث، لذّة لاذعة. تراجعت خطوة إلى الخلف.

كلّ جهد للصداقة أو للسلام مع العدوّ يُفهَم على أنّه ضعف.

رفعت ذراعي أمام وجهي لأحميه من ضربة محتملة. لكنّ نوجيه لم يحرّك ساكناً.

ثمّ استأنف باستمتاع مَرَضيّ:

- كيف تفسّرين إذن أنّ ابَنك لدى مروره ببوردو مؤخّراً ذهب لرؤية والده وعرّفه على طفلته، لا بل أقام عنده، على ما أظنّ، وكيف تفسّرين إذن أنّه تعمّد إخفاء زيارته عنك حتّى أنّه لم يأتِ ليريك الصغيرة سوهار أو ليجمعك بزوجته؟ هذا غريب بالنسبة لابنٍ لا يخاف من والدته، أليس كذلك؟

قلت:

- ولكن كلّ ذلك، كيف عرفته؟

كان رأسي يدور بي قليلاً، شعرت بغصّة في حلقي وبلهائي مرّاً. وخطرت لي فكرة في غير محلّها: بات إفطاري بعيداً.

تأوّهت قائلة:

- أشعر بالجوع لدرجة أنّني سألتهِم وجبة شواء كاملة!

قال نوجيه بعجلةٍ:

- حضّرت فطائر بالجبن واللحم المقدّد. ليست من تلك التي نجدها في الحانات الصغيرة، ذات الحواف المتيبّسة واللحم المقدّد المقرف. أنا، كما رأيت، أصنع الخبز بنفسي وأقطّعه شرائح سميكة وأشويها بالزبدة حتّى الاحمرار، ثمّ أحشو الخبز بأفضل كونتيّة[1] وبقطعة شهيّة من اللحم المقدّد بعظمه، وعلى الشريحة العليا، بالضبط على الجبنة، هل تعلمين ماذا أضع لتصبح الفطيرة ليّنة؟ أضع طبقة رقيقة من صلصة البشاميل[2]، أجل. ولكن للإجابة على سؤالك: آنج هو الذي أخبرني ما قلته لك آنفاً، وإلّا فكيف كان بإمكاني أن أعرف ذلك، هلّا قلتِ لي؟

قلت بصوتٍ خافت:

- لكنّ آنج ليس على علمٍ بتفاصيل هذه القصص.

يا قلبي الشجاع، يا قلبي الشجّاع المحتضر تابعِ الخفقانَ ببسالة وسط الشحم الذي يحاصرك!

أضفت محاولةً استعادة شيء من رباطة الجأش:

- لا أستطيع أن آكل الفطائر بالجبن واللحم المقدّد، يلزمني طعام خفيف.

قال نوجيه:

- أظنّ، لا بل أنا متأكّد من أنّ آنج التقى بابنك والزوجة والطفلة، خلال تلك الأيّام التي أمضوها في بوردو، وهذا بناءً على طلب ابنك، وأفترض أنّه نصح آنج بعدم إخبارك بالأمر لكي لا يتسبّب

(1) الكونتيّة: نوع من الجبن الفرنسيّ.

(2) البشاميل: صلصة بيضاء من الطحين والحليب والتوابل.

بإيلامك عبثاً، أو أنّ آنج نفسه قرّر ألّا يقول لك شيئاً. يبدو أنّ آنج وابنك كانا في قمّة السعادة والتأثّر لأنّهما التقيا من جديد. قال لي آنج أيضاً إنّه سُرّ برؤية وجه الطفلة، سوهار الصغيرة.

قلت:

- لا، غير معقول، أنت تختلق الأخبار.

ابتسمت وأنا أتعمّد بإصرارٍ كليّ أن أضفي على ملامحي تعالياً واحتقاراً.

قال نوجيه متبرّماً:

- لا أختلق شيئاً على الإطلاق.

قلت باستعجال كبير:

- أتمنّى ألّا أسمع شيئاً آخر عن هذا الموضوع. القصص العائليّة، أليست...

كشحت الهواء بيديّ الاثنتين. تدفّق عرق حامز على صدغيّ مع أنّ الهواء كان منعشاً في مكتب البريد، ولاحظت أنّ نوجيه وعامل الشباك كانا يتفحّصانني بتردّد حذر.

هل كنت امرأة فاسدة إلى هذا الحدّ فيما اعتقدتُني مثاليّة ومحترمة وطيّبة، أيعقل أنّني كنت مخطئة إلى هذا الحدّ بفكرتي عن نفسي؟

خرجت على العتبة. رجوت لثوانٍ معدودة أن ينحسر الضباب وأن تبدو لي الساحة عندئذٍ بطريقة مختلفة، وأن أعرفها بصفتها مكاناً يقبع خارج عاداتي بالطبع، ولكن أقدر على الأقلّ تذكّر أنّني اجتزته منذ زمن طويل. ولكنّني لم أعرف شيئاً مع أنّ الضباب انحسر قليلاً وبات أقلّ كثافة. أمامي تمثال مونتسكيو من الحجر المخضرّ الذي كساه الطحلب، والمقاعد قديمة. نصف دزينة من الشوارع كانت تتفرّع من الساحة. لم أكن أملك

أيّ فكرة عن الاتّجاه الذي يجدر بي اتّخاذه للوصول إلى المنزل، ولا أيّ فكرة عن المكان حيث كنت في بوردو. لا بل بدأت أرتاب في كوني لا زلت في بوردو. ولكن أين بوسعي أن أكون، أنا التي لا أسافر أبداً؟

15- لم يعد كما كان سابقاً

أخذني نوجيه من ذراعي واقتادني إلى شارع صغير أعرفه جيّداً. إنه شارع لافاييت الذي يفضي قدُماً إلى شارعنا، على مسافة بضع دقائق فقط من هذه الساحة الغريبة التي لم تعد تذكّرني بشيء. شعرت بالإهانة ولم أعترف بدهشتي لنوجيه.

وحين صرنا في الشقّة، هتف بحماس قائلاً:

- أمهليني عشر دقائق فقط لأضع الفطائر بالجبن واللحم المقدّد في الفرن.

وفي الحال سال لعابي تشوّقاً إلى الطعام وكانت رغبتي فيه لا تقاوم لدرجة أنّني شعرت بشيء من الامتنان لنوجيه مع أنّني صرت مقتنعة بأنّ طيبته مسمومة وأنّ ما يطهوه فاسد بشكل ما.

لم يكن يطعمنا إلّا لإرضاخنا بشكل أفضل، قلت في نفسي. كان يدرك أنّ لذاذة الطعام تبقينا أسيرَين له وأنّ كلّ لقمة تخدّرنا وتربطنا به. لا بدّ أنّ سروره كان عظيماً بإخضاعه إلى سيطرته، وإلى سطوة براعته في التعامل مع الدّهون، هذين الأستاذين اللّذين كانا يسحقانه باحتقارهما له!

بتّ أعتقد أنّنا أنا وآنج استغلّينا تفوّق وضعنا ولكن كان باستطاعتي مع ذلك الدفاع عنّا، وأقسم أنّنا إذا كنّا أظهرنا بعض القسوة أحياناً فهذا من دون أيّ نيّة متعمّدة في أن نكون كذلك (آه كنّا نكره نوجيه حقّاً لدرجة أنّه

لم يكن لدينا أيّ شعورٍ تجاهه)، ولم نكن نفكّر أنّ هذا الرجل يمكن أن يتألّم من تصرّفنا الذي كان بريئاً أستطيع القول. ولكن هل كان حقّاً كذلك؟ أوَ لم يكن هذا أسوأ في الحقيقة؟ تساءلت حينذاك.

مرّرت رأسي عبر باب غرفتنا لظنّي أنّني سأرى آنج نائماً. ولكنّ عينيه المحمومتين المتورّمتين تشبّثتا بعينيّ.

دخلت إلى الغرفة وأنا أجهد للتنفّس على دفعات صغيرة محاذرة. كانت الرائحة الخبيثة تنتشر في باقي أرجاء الشقّة.

سأل آنج بنبرة من يبغي إثارة الشفقة، أو كأنّه كان يحاول أن يجد الوسيلة لمنعي من الهروب:

- ألا تريدين رؤية جرحي؟

لم أستطع الامتناع عن الانتفاض ثمّ عن التراجع وأنا أرفع الغطاء. كانت الفجوة المرعبة في خاصرة آنج تبدو وكأنّها ازدادت عمقاً. لا يفترض بالكبد أن يكون بعيداً جدّاً عنها، قلت في نفسي مرتعبة. وكان الصديد ينزّ دوماً، ممزوجاً بألياف دامية، ويسيل في قصعة وضعها نوجيه لصق آنج. وحول الجرح، كانت حاشية اللحم المقلوب والدم المتيبّس أشبه بقطعة جلد قديمة وعظمة قضمها كلب. جعل شعور بالإشفاق المضني شفتيّ ترتجفان.

تمتمت والغصّة تخنقني:

- هل تتألّم يا حبيبي المسكين؟

قال آنج:

- بشكلٍ مرعب.

أشار بذقنه نحو الباب وقال بصوتٍ منخفض:

- سيجلب لي المورفين.

- كيف ذلك؟ هل بناءً على وصفةٍ من الطبيب شار؟

ورغماً عنّي، وعن رغبتي بأن أبدو في غاية الحنان واللطف مع آنج، كانت مرارة باردة تتأكّل كلماتي لأنّني تذكّرت ما أخبرني به نوجيه، ونظرت إلى الوجه المتألّم لذاك الذي كنت أحبّه كثيراً، والذي كان فلذة منّي (ولكن هل كان الفلذة الأكثر غموضاً ومواربةً والأقلّ احتراماً؟) وتخيّلت هذا الوجه نفسه منحنياً فوق حفيدتي، الطفلة المسمّاة سوهار، ثمّ، مبتسماً لابني، ثمّ لتلك المرأة التي لا أعرفها، ثمّ في المساء، متّكئاً على الوسادة بالقرب من وجهي بالذات مظهراً هذه الشفافيّة المطلقة التي كنت ألمحها على وجهه مع أنّني كنت أعرف أنّه كذب عليّ.

هل كان يجدر بي تصديق نوجيه؟ لم يكن يستطيع أن يختلق وقائع بهذه الدقّة، قلت في نفسي.

كلّ ما استطعت تمنّيه هو أن تكون لدى آنج أسباب تبرّر كذبه عليّ، وأنّ باعثه هو سلامة النيّة، وهذا الصدق الذي كان يميّزنا بالرغم من كلّ شيء حتّى حين كنّا نتصرّف مع جارنا بقلّة احترام. فكّرت بأنّ هذا كلّ ما استطعت تمنّيه بما يتعلّق باستقامة آنج حيالي، أن يكون ربّما خانني لفرط رهافته، لفرط براءته.

قال آنج بلهجة حردة:

- لا يحتاج لوصفة لينال ما يريد. أتدرين أنّه يعرف تماماً مفهومي للتربية؟

قلت:

- أعتقد أنّني أذكر زعمه ذلك في الواقع.

قال آنج بشيء من الحماسة:

- أعاد لي كلمة بكلمة مقالتي الأخيرة عن بذل الذات. وهو موافق على ما جاء فيها... يفترض بالأستاذ الجيّد أن يشعر بأنّه... مدعوّ للتضحية، عليه دوماً أن يعلّم وهو يفكّر بأنّه كان سيقدر على... القيام بعملٍ آخر، وهذا العمل الذي يتغيّر حسب كلّ فرد يجب أن يبدو له الأمثل من كافّة الجوانب.. لكنّه تخلّى عنه من أجل التعليم... وظّف طموحه المختلف، وميوله الحقيقيّة في سبيل هذه المهمّة... وهي الأروع بين المهامّ جميعها. بذل نفسه كلّها... للمدرسة. نوجيه يشاركني آرائي، أترين؟

لم أجب، أشحت بنظري. زممت شفتيّ قليلاً لأنّ مواقف آنج عن المدرسة أربكتني على الدوام، ولم ترقْني وأجهل السبب.

جهدت لأتكلّم بلهجة رشيقة:

- رأيت لانتون من جديد هذا الصباح وعلى فكرة أرسلَ إليك تحيّاته بحرارة.

قال آنج ضاحكاً ضحكة هازئة:

- أشكّ بذلك فعلاً. اتّصل منذ قليل. أعطاني نوجيه الهاتف لأكلّمه و... أؤكّد لك... لم يكن ودوداً البتّة، عزيزك لانتون.

قلتُ في ما يقرب من الصراخ:

- وماذا كان يريد؟

- تحدّث عن رسالة يجدر بك أن تسلّميها لابنك.

- وماذا بعد؟

- اسمعي، أنا... لا أعرف الشيء الكثير.

أغمض آنج عينيه، منهك القوى.

- إذا لم تسلّمي هذه الرسالة فأنا من سيعاقبه لانتون.

قلت وقد جنّ جنوني:

- ولكن كيف؟ ما الذي سيفعله؟ لا يملك الحقّ في ذلك.

- لا، بالطبع لا يملك الحقّ في أن يهّدد مواطناً صالحاً لأنّه يرغب في أن يحصل على شيء ما أجهله من زوجة هذا المواطن وابن زوجته. بالطبع لا يملك الحقّ في أن يتصرّف على هذا النّحو.

استعاد آنج نبرة الاستهزاء هذه حيالي التي لم أفلح في الاعتياد عليها. كان سيودّ أن أدعه يتكلّم أكثر عن المدرسة وعن هؤلاء الذين يخدمونها، وأن أغتبط بصدق على معرفتي بأنّ نوجيه معجب بأفكاره ويقاسمه إيّاها، كان سيودّ ألّا أُظهرَ بهذا الوضوح الارتيابَ الذي تلهمني إيّاه نظرياته الضبابيّة.

ولكن كان عليّ الرحيل عمّا قريب ولوقت طويل على الأرجح. لذا مرّرت يدي أداعب بها خدّ آنج، وهذه الحركة ذكرّتني بألف لمسة مشابهة مليئة بحنان مندفع كان يجمعنا أنا وآنج طيلة كلّ هذه السنوات، ولم يكن أدنى حساب يشوّه أبداً هذا الفيض من المشاعر.

وبالرغم من أنّنا لم نكن يافعين لحظة التقينا، لكنّنا تحاببنا، قلت في نفسي، وكان لمشاعرنا نضارة المراهقين، وعشنا معاً بسلامة نيّةٍ عيشةً ساحرة، خالية من الذكريات المؤلمة والتظلّم، ومن الآلام الراهنة والإهانات القديمة. كنت أضع جانباً الأطروحات المضجرة التي كان يصوغها آنج عن مهنتنا ولم يكن يسعى، من ناحيته، ليعرف رأيي عن هذا الموضوع، وكان الأمر، في الواقع، كما لو أنّ هذه الأطروحات، لم ينادِ هو بها قطّ.

ومذ حدّثه نوجيه ذاك عنها ومدحه أضحى آنج سريع الاستفزاز، قلت في نفسي، وبات يودّ أن أوافق على آرائه وأسرّ بها. لم يعد لدى آنج تلك البراءة الفكريّة التي كانت تعجبني لديه رغماً عن كلّ شيء. تمتمت بتأثّرٍ شديد:

- أتذكُرُ أنّني سأرحل الأسبوع المقبل؟

قال آنج وهو يضغط بخفّة على يدي:

- نعم.

- ما إن يصبح ذلك متاحاً حتّى أعمل على أن توافيني إلى هناك حيث سأستقرّ وأعاين الوضع ثمّ، إذا لم تشفَ تماماً، أتدبّر أمري لكي أقوم بنقلك.

قال آنج بلا مبالاة تقريباً:

- نعم.

- أليس هذا ما تريده؟

- بلى.

- هل يمكننا أن نثق بنوجيه؟

- كامل الثقة.

انحنيت قريباً من آنج، وألصقت فمي بأذنه مع أنّ الرائحة (حين كنت مغرمة به كنت أحبّ أن ألحس أذنه وأن أشمّ جلده، لم تكن أيّ زاوية في جسد هذا الرجل التعِس تنفّرني) كانت تشعرني بالغثيان.

همست بخشوعٍ:

- هل يخيفك نوجيه؟

استدار آنج فجأة مبعداً رأسه عنّي قدر الإمكان وقد لوت تكشيرة ألمٍ

فمه. ثمّ قال وقد انفجر غاضباً مستاءً:

- لا تتفوّهي بحماقات! لم يعد الأمر يطاق.

واغرورقت عيناه بالدموع.

- لا تفهمين شيئاً، ولا أيّ شيء، تعتقدين أنّه يكفيك أن تهمسي لكي لا يسمعك أحد، ولا زلتِ تؤمنين بالحميمية والسرّ! لم يعد هناك... حميميّة بيننا.

وفي تلك اللحظة انفتح الباب وظهر نوجيه ويداه محمّلتان بصينيّة مليئة بقطع كبيرة من الفطائر يتصاعد منها اللهب.

قال آنج بلهجة شاكية كان يستعملها مع نوجيه:

- أنت على الأقلّ ستكون بجانبي عند موتي. ستعتني بي، وبمثواي الأخير، أليس كذلك؟

- صنعت فطائر بجبنة الإيمنتال وأخرى بجبنة الكونتيّة، قال نوجيه بودٍّ. كما تعرفان، جبنة الكونتيّة لديها طعم ألذّ ومع ذلك ثمّة من يفضّلون جبنة الإيمنتال لأنّها تجعلنا نشعر بمذاق اللحم القديد أكثر.

قال آنج:

- لست جائعاً كثيراً.

قال نوجيه بلهجة في منتهى القسوة:

- ماذا! ستأكل رغماً عنك. عليك أن تأكل.

16- كلّ ما يتغيّر ويتوارى

لم يأتني الحيض منذ عدّة أشهر.

أعرف أنّه كان يمكن أن أعزو ذلك إلى القلق الذي كنت أتخبّط فيه، ومع ذلك كان لديّ حدس بأنّ عادتي الشهرية لن تعود، وأنّ تلك هي نهاية الخصوبة بالنسبة لي. كانت سنّي تجيز لي التفكير بذلك. سوف يؤكّد لي الدكتور شار الأمر لكنّي لم أكن أجرؤ على الذهاب لرؤيته، وكنت أخشى أن تصحّ شكوك آنج بشأنه أو على الأقلّ أن يرغمني الجوّ الذي سوف يستقبلني به، إنْ هو وافق على استقبالي، يرغمني على التفكير بأنّ آنج كان على حقّ بأن يرتاب بالدكتور شار، بالرغم من أنّنا كنّا نتردّد عليه منذ وقت طويل.

لم أعد أخرج من الشقّة، ورحت أحضّر أمتعتي ببطء. في الواقع، كنت أخشى من أن أضيع مجدّداً في بوردو، حيث كان ضباب كثيف كما في الليلة الفائتة يحجب حدود الأشياء كلّ يوم. أخاف من أن تتفنّن بوردو في تضييعي وألّا يكون نوجيه هناك ليعثر عليّ.

حائرة كيف أملأ وقتي، نظرت طويلاً إلى نفسي في المرآة، محاولةً أن أفهم من هي هذه المرأة التي يبدو لي أنّها أنا، ولكنّي لم أكن أحسن مطابقة صورتها مع الفكرة التي أملكها عن نفسي. ليس لظنّي بأنّني أكثر سحراً من صورة انعكاسي في المرآة. لم تكن المسألة مسألة جمال أو ظرف أو شباب. كان الأمر ببساطة هو أنّ ذهني، بسبب الكسل، لم يكن يتأقلم مع التغيّرات التي حدثت لجسدي، ولم يسجّل البروز البطيء، تحت مساحة الجلد، للعروق الضخمة التي كانت غارقة في أعماق الشحم أو العضل، وظهور الزوائد البنيّة، وكأنّها بتلات منمنمة للجلد تحت ذراعيّ، وبين

نهديّ اللذين أصبحت حلمتاهما أكثر تجعّداً وبَرْغَلة ممّا كانتا. لم يشأ ذهني المتعالي أن يسلّم جديّاً بأنّ ارتجافة لحم ذراعيّ وفخذيّ لدى أقلّ حركة أقوم بها، لم تكن مؤقّتة بل إلى الأبد، وللأبد أيضاً جُنّبتُ السخرة البسيطة لمراقبة عادتي الشهرية. آهِ، لا شيء من كلّ هذه التحوّلات كان يهمّني فعلاً. نظرت إلى جسدي العاري الذي يحمل ألف علامة ذبول، ووجّهت الأمر لذهني بأن يدوّن تفاصيل هذا الانحطاط، ومع ذلك شعرت بمدى احتقاري لهذا الجسد التعس التافه، وكم كنت أفتخر سرّاً بالاحتراز الأبيّ الذي كان ذهني يبديه أمام الانكباب على الصيرورة التافهة لجسدي.

كان يبدو لي أنّ لديّ ههنا طفلين، أحدهما يخيّب آمالي ويضجرني، والآخر يشرّفني. ألم يكن هذا ما كنت أشعر به فيما مضى حيال هذين الشابّين الشديدي الاختلاف اللذين كانا ابني وعشيقه لانتون؟ ألم أكن أفضّل سرّاً رفقة لانتون على رفقة ولدي؟ أوَ لم يكن لانتون، من بين الاثنين، هو الذي كنت لا أتحمّل فكرة عدم رؤيته مجدّداً؟

أكّدت مخابرة للمصرف أجريتها أنّنا أنا وآنج نواصل قبض راتبنا مع أنّنا لم نعد إلى المدرسة. وهذا، قلت في نفسي، إمّا لأنّ السيّدة المديرة لم تبلغ الوزارة عن غيابنا غير المبرّر، وإمّا بقصد إفهامنا أنّ هذا تحديداً ما كان يُرجى منّا: أن نبقى على حدة، وأنّ ابتعادنا واختفاءنا أثمن من المبلغ الماليّ الذي يُنفَق لصالحنا.

قبل يومين من رحيلي، صعد نوجيه من فناء المبنى حاملاً بيده رسالة لي.

قال:

- ابنك بعث لك برسالة.

- كم أنت متطفّل وسيّئ التربية!

نهضت بغضبٍ عن الطاولة حيث كنت أتناول فطوري، أو بالأحرى تلك الوجبة الدسمة المؤلّفة من مفرومة البطّ واللحم المقدّد وشرائح سميكة من الخبز مدهونة بالزبدة وفطائر حلوى صغيرة بالسكّر مع القهوة بالحليب، وكلّ ذلك كان يحلو لنوجيه أن يسمّيه «بريكفاست». انتزعت الرسالة من أصابع نوجيه وهرعت للانزواء في المكتب واعيةً لترنّحي، وللارتجاف الدهنّي لوركيّ تحت قميص النوم.

جلست على السرير. نظرت طويلاً إلى مغلّف الرسالة قبل أن أفكّر حتّى في فتحه. منذ زمن طويل لم يكتب ابني لي.

كان الطابع البريديّ يظهر جرفاً طباشيريّاً منحدراً في البحر المتوسّط. كانت كتابة ابني لا تزال بخطّ مستقيم دؤوب، ولا تزال الأحرف الكبيرة راسخة كما علّمته كتابتها منذ خمس وعشرين سنة. شعرت لدى رؤيتها بفخر كبير. ولكن ماذا لو كان يتوسل إليّ أو يأمرني بعدم المجيء للإقامة عنده؟

نهضت ومشيت في الغرفة وأنا أشدّ المغلّف إلى صدري راجية أن تحمل الرسالة أخباراً سارّة. كنت مضطربة لدرجة أنّ اللّحم المقدّد صعد إلى حلقي. توقّفت. كانت الشّقة ساكنة تماماً، وكذلك كان المبنى. خلف الزّجاج، كما دائماً في هذا الوقت، كان الضّباب كثيفاً وكانت تتصاعد منه رائحة الوحل الخفيفة.

«أمّي العزيزة، أمّي العزيزة الطّيبة، تُرى ماذا ستفكّرين عن هذه المقدّمة؟ أتخيّلك تقرأين هذه الكلمات الأولى وأنت تتلقّين بشكلٍ ما صدمة هذه اللّذة غير المتوقّعة. ابنك رالف يتوجّه إليك بكلّ عبارات الحنوّ فيما لا شيء يخوّلك أن تتلقّي عبارة حنوّ واحدة من رالف المسكين، وتعرفين

هذا جيّداً، كذلك أتخيّلك على وشك البكاء وراضية في سرّك أن تتيقّني من أنّ الحبّ البنويّ ينتصر دوماً، وأنّ الواجب ينتصر دوماً، وأنّ الأمّ تنتصر دوماً! باستطاعتك البكاء حتّى لو ظلّت عيناك الحقيقيّتان جافّتين، أقصد عينيك اللّتين لا تظهرينهما أبداً. ولكنّك، أجل، قادرة على البكاء مثل أيّ شخص مخلوق بشكلٍ طبيعيّ. أمّي العزيزة، عليّ أن أتطرّق إلى الأمر الأساسيّ. بدايةً أمنعك من أن توجّهي لي ملامات أو انتقاداً. أتخيّلك ترفعين الآن حاجبيك، وتتظاهرين بعدم فهم ما أقصد قوله. بلى، تفهمين جيّداً قصدي. حتّى عندما تصمتين، أنتِ تماحكين وتقاضين وتلومين. هذا لم أعد أقبل به. لم أعد أقبل به صادراً عنك لأنّني بتّ رجلاً. ولكن، هل أنت قادرة على أن تتقبّلي هذه الواقعة التي لا تدحض؟ ثمّ عليك أن تسلّمي بأنّ ثمّة تغيّرات يمكن أن تطرأ بمعزلٍ عن إرادتك أو معرفتك. وعلى العموم، العيش بات مستحيلاً بالنّسبة لي. لم تدركي ذلك قطّ، أليس كذلك؟ إنّ الناس من أمثالك لا يمكنهم أن يدركوا إلّا ما يشعرون به هم أنفسهم، وكلّ ما تبقّى غير موجود بكلّ بساطة. أنظر حولي وأرى منزلين وشجرةً وكوخاً من الصّفيح وغيمةً واحدةً في أزرق السّماء. هذا كلّ ما أراه. وأقول في نفسي إنّ كلبي الذي هنا، قربي، يرى ربّما عناصر أخرى من هذا الواقع أو يرى عناصر من واقع آخر، موازية لتلك ولا أستطيع تصورّها. مهلاً! هذه أنت: لا حقيقيّ إلّا ما ترينه. لا أزال في مرتع الجدل والاحتجاج، ولم أكن أريد ذلك. يكفي أن أتوجّه إليك لأجد نفسي منجذباً إلى تلك الحالة من الصّراع والنّزاع التي تروّعني الآن. هذا لن أقبل به بعد اليوم. العيش بات مستحيلاً بالنّسبة لي، كما سبق أن قلت لك. لكنّي اعتدت على حياتي الجديدة وأجد فيها لذّة ما، فالعمل يروقني. أنا

رجل جديد. هذا الصّباح ليس إلّا ولّدتُ امرأة وتوفّيّ طفلها عند ولادته، لم يكن الأمر سيّئاً لأنّ حياة الطّفل، بين ذراعيّ تلك المرأة، كانت ستغدو، عاجلاً وعلى نحوٍ محتوم، جحيماً، فهي مدمنة على الكحول، شبه بلهاء، ولا شيء يمكن أن يؤثّر فيها. اعتنيت بها جيّداً، وواسيتها، وحرّرتُ كلّ أنواع الوثائق من أجلها. أرأيت! أنا رجل حازم. هل طُردْتِ من مدرستك؟ تدركين الآن أنّ المدرسة لم تكن مكاناً آمناً، حتّى بالنّسبة لك. هل تفهمين ذلك؟ مدرستك الحبيبة! لا بدّ أنّك تألّمت كثيراً! لطالما شعرتُ بالغيرة من مدرستك وطلّابك ولكن أنت هل تراك تشعرين بالغيرة من مرضاي؟ أظنّ أنّني غفرت كلّ شيء لأنّني رجل جديد. وهذا أدين به كثيراً لويلما، لا يهمّني ولا يهمّ ويلما أن تروقك أو لا، ليس مؤكّداً أنّك ستعجبين بويلما كما أعجبتِ بلانتون لدرجة أنّك جعلتني أشعر بالمرارة. ويلما ليست من النّاس الذّين يروقونك كثيراً. من يدري؟ ربّما ستقعين في غرام ويلما العزيزة وأنا لن أثقل عليكما وسيكون عليّ الرّحيل! أمزح معك! تعرفين، أنا رجل جديد. ولديّ لائحة شكاوى تخصّك. قرّرت الاحتفاظ بها لنفسي. لا أريد أن أجازف بأن تتأكّلني شكواي. ومع ذلك حين أفكّر أنّك كنت تستعدّين للمجيء إلى هنا في الباخرة دون إعلامي، أشعر باستياء يمزّقني من الداخل. بالله، لماذا لا يمكنك أن تكوني صادقة وصريحة معي؟ أبي صادق وصريح، أظنّ أنّه رجل يرتاح لظهوري أمامه رجلاً جديداً، ولكن أنتِ؟ أقدّم لك الحجج وأحاول أن أقنعك بالرغم من معرفتي أنّ ذلك غير مجدٍ. من بين كلّ جوانب شخصيّتي الجديدة، والنّهائيّة على ما أرجو، أرجو ذلك بقوّة، هنالك اللّطف، لقد صرت لطيفاً. سأكون إذن سعيداً لاستقبالك يا أمّي العزيزة بصفتي رجلاً جديداً ولطيفاً. وبصفتي طبيباً، أرى

كلّ يوم أموراً مروّعة. وبما أنّني أصبحت رجلاً، فإنّي أحوّل هذه البشاعة وأسعى لأن أحبّها وأفلح في ذلك إلى حدٍّ ما ثمّ أنساها. هكذا أمارس عملي. المرأة التّي ولّدتها هذا الصّباح، تلك التّي ساعدتها في إنجاب طفل ميّت، لها الحقّ في أن تكون سيّدة محترمة كما هي السّيدة المحترمة الحقيقيّة والوحيدة التي لا نعرف عنها شيئاً، أليس كذلك؟ السّيدة العذراء، هل يمكنك أن تؤكّدي لي أنّها لم تكن سكّيرة؟ لا تستطيعين! أحبّ جميع هؤلاء الذين يحيطون بي، أحبّ البشر التعساء. وسيكون من الظّلم أن أغمر بحبّي وعطفي جميع البشر، عداك أنت يا أمّي. لذا أغمرك بحبّي وبشغفي. إلى اللقاء عمّا قريبٍ إذن. لا أستطيع أن أنتزع من قلبي (فهو ناقص) شوكة الحقد عليك، تلك التي انغرزت فيه وأدمته منذ زمن طويل، ولكن سنرى ما سيحصل. على فكرة، يجب أن تعيدي لأبي المال الذي أخذته منه، فذاك التعس يحتاجه أكثر منك. لا تعرفين ذلك بالطبع: إنّه يعيش في الفقر كي لا نقول في البؤس. والطريقة التي سرقته بها ليست ظريفة على الإطلاق. عليك أن تعيدي له ماله. طردوك من المدرسة، حسناً. ولكن ما هي الأسباب؟ من هنا لا شيء يبدو لي واضحاً. لا تستحقّين ذلك؟ ألم تتصرّفي بشكل سيّئ؟ يبدو لي من المغالاة الادّعاء بأنّهم طردوك دون سبب وجيه. أعتمد عليك لكي تزوّيديني بكلّ التفسيرات اللازمة. فكّري بأبي، حاولي أن تخجلي من نفسك، إنّه شيخ! ابنك رالف».

أغرقني الغضب في ذهول ارتعدت له فرائصي.

عاودت قراءة الرسالة، تلك الرسالة الجاحدة، والكاذبة التي كتبها لي ابني بالذات، ابني الوحيد... كيف وصل بنا الأمر الى هذا الحدّ؟ إلى هذا المستوى من الزيف والوجدانيّة الكاريكاتوريّة؟ آه، قلت لنفسي، غدا ابني

متعصّباً. كيف يا ترى تدبّر أمره ليصبح، في عزّ نضوجه، ذلك النوع من الأفراد الذين يثيرون قرفي تحديداً، أنا والدته؟ وبفضل أيّ حدس مرهف وأيّ لوذعيّة غامضة فهمني بما يكفي ليتحوّل إلى شخص شديد الحماسة، مع العلم أنّني كنت أحتقر بشدّة هذه الطريقة في التفكير، هذا الموقف الحكيم المتفاصح والمغرور حيال الوجود؟ وويلما تلك؟ عمّن كان يحدثني؟

خرجت من المكتب ودخلت إلى الغرفة. لكزتُ آنج الذي كان ينام فاغراً فمه فاستيقظ منتفضاً ورفع عفويّاً ذراعه أمام وجهه الناحل وكأنّه يريد الاحتماء من صفعة. هكذا كان يفعل التلاميذ الذين كان آنج يريد أن يوجّه لهم لا صفعة بل ضربة خفيفة، ساعين لحماية أنفسهم، وهذا كان يتسبّب لآنج بغضب عارم، ولكنّ هؤلاء التلاميذ كانوا يبدون مقاومة شديدة، وكانوا معتادين على الضرب لذا كانوا يعرفون كيف يتصدّون للضربات بأذرعهم الناحلة ومرافقهم المسنّنة التي كان تصطدم بها يد آنج أحياناً ليس من دون ألم، وهذا ما كان يزيد من غضبه ويدفعه لأن يضرب بقوّة أكبر انتقاماً من وقاحة صاحب تلك الذراع وذلك المرفق. وبعدئذٍ، كان يندم دوماً على افتقاره لبرودة الأعصاب، ويشعر بالخجل من نفسه. كان يريد أن يجسّد كمال التعليم، وكان أدنى عنفٍ يجعله يخسر من رصيده الداخليّ.

صار وجه آنج مجرّداً من اللحم. رأيت بوضوح شكل هيكله العظميّ تحت جلد خدّيه وفكّيه.

هل كان ثمّة أحدٌ، هنا، يعنّف آنج؟

وبلهفة متوتّرة سألته:

- ما اسم زوجة ابني؟

- ابنك؟

حدّق إليّ بعينين جفلتين وهذا لأنّني بالطبع انتزعته من نومه، ومع

ذلك كان لديّ الشعور المنغّص بأنّه يحاول كسب الوقت.

حدّقت إليه بنظرة صارمة.

- آنج، ماذا تدعى زوجة رالف، والدة حفيدتي؟

غمغم قائلاً:

- ألا تذكرين؟

ثمّ بعد بضع دقائق تظاهر خلالها، وكنت أكيدة، أنّه يسائل ذاكرته:

- ياسمين.

قلت مستاءة:

- هذا هو اسمها، اسمها ياسمين.

- ولماذا تسألينني ما دمت تعرفين؟

كانت نظرات آنج هاربة. وكان تراكم الشكوك يوماً بعد يوم، والصمت، والأسئلة البغيضة بيننا، نحن اللذين كانت لدينا قاعدة لا بل عادة في التفكير بصوتٍ عالٍ، وبأن نتصارح في كلّ شيء، وتلك الكتلة المتعاظمة للأسرار الخبيثة المؤذية، هذا كلّه كان يحزنني. أبداً، مهما يحدث، لن نستطيع ثانية صعود مثل هذا المنحدر من الاحتراز والظنون المهينة.

دخل نوجيه إلى الغرفة دافعاً الباب بضربة من ركبته. كان يمسك بالصينيّة الكبيرة المستديرة التي خصّ بها آنج. إلى جانب حُقّ مفرومة الإوزّ (قال إنّ والدته تربّي طيوراً في مقاطعة لاند، وإنّها هي التي تُعدُّ هذه المفرومات الممتازة المحشوّة بألياف طويلة من لحم الإوزّ الطريّ) ولحم بايّون المقدّد المعتاد، رأيت قصعةً يتصاعد منها البخار، مليئة بالمواد الجيلاتينيّة البرتقاليّة ذات الرائحة القويّة التي مع ذلك أسالت لعابي مثيرةً شراهة بتّ أخجل منها قليلاً. أمّا آنج، من ناحيته، فأدار رأسه قرفاً. لم يكن

يشتمّ نتانة جرحه الملتهب لكنّ روائح الأكل الشهيّة تنفّره!

قال لي نوجيه بعدئذٍ إنّ القصعة تحتوي كروشاً ومقادم عجل وغنم، وهذا طبق خاصّ بأوفرنيا[1].

ثمّ أضاف بنبرة معتذرة:

- لم أعدّه بنفسي.

وفجأة تذكّرت أنّ عادتي الشهريّة توقّفت. جعلتني هذه الفكرة أشرد. وضعت يدي بطريقة آليّة على بطني.

سأل نوجيه:

- أتُراكِ حبلى؟

قلت:

- لا، بل بالعكس.

كان شيء من الرضى الجذل وإحساس حادّ بالراحة يجعلان جبيني حارّاً ورطباً. أدركت أنّ انقطاع عادتي الشهريّة كان الحدث الطبيعيّ الوحيد الذي حصل لي منذ أشهر، الحدث الوحيد الذي قدرت على شرحه بطريقة صائبة، دون الحاجة لأن أضع بموازاة ذلك جملة فرضيّات.

كان نوجيه يحمل الصينيّة بين يديه مواصلاً النّظر إليّ بطريقة متحرّية قليلاً، ما دفعني لأقول له:

- أتعرف، بلغتُ سنّ انقطاع الحيض.

بعد وقت قصير، قال نوجيه بلطفٍ:

- لا بدّ أنّك مخطئة.

ثمّ أضاف:

(1) أوفرنيا l'Auvergne: إحدى المناطق الفرنسيّة الإداريّة.

- ابنك طبيب، وسيقول لك ممّ تعانين.

وعندئذٍ تولّاني الغضب المسعور من جديد.

غادرت الغرفة تاركةً لنوجيه أن يطعم آنج (**ألم تتعمّدي الهروب من هذا المشهد حيث كان آنج يتوسّل بصمتٍ أن يترَك بسلام فيما نوجيه يُدخل في فمه ذي الشفتين الجافّتين هذا الطعام الثقيل المشبوه؟**). ارتديت ثيابي على عجل ثمّ خرجت من الشقّة ورسالة ابني مدعوكة في قعر جيب صدريّتي التي تشدّ على خصري وصدري إلى درجة أنّني عجزت عن تزريرها.

ارتميت في الشارع دون تفكير، وكان الاستياء يضنيني، وكذلك الشعور بالظلم الأكبر.

17- فريسةَ بين براثن فوندوديج

اتّجهت بخطى حثيثة إلى شارع فوندوديج. لم أستطع الامتناع عن الكلام بصوت خافت، لم يكن باستطاعة غضبي المسعور أن يبقى محتجزاً في رأسي.

الضباب جاثم على المدينة كما في كلّ يوم؛ بدا لي أنه لن ينحسر أبداً بشكل تامّ، وأنّه بات سمةً من طَبع بوردو، ومن جوهر هذه المدينة نفسه، وكأنّه، بشكلٍ ما، لهاثها، أو، قلت في نفسي، كأنّ داءً مستشرياً، عصيّاً، لا شفاء منه، يُفسد أحشاء مدينتي العزيزة ويرغمها على إرسال هذه الأنفاس الخبيثة.

إذا تبعت شارع فوندوديج فلن أجازف بشيء، قلت وأنا أكزّ على أسناني، كان يكفيني أن أعود أدراجي وأجتاز ساحة تورني لأجدني من جديد في شارع إسبري ديه لوا... ولكن آهِ، كيف تجرّأ، كيف أمكنه أن

يملك مثل هذه... الجرأة، هو الذي كان بالأحرى... خجولاً وفي غاية التهذيب. كيف أمكنه... أن يلمّح إلى أنّني سارقة، أنا أمّه بالذات... تلك السارقة التي لا نستطيع أن نقول لها شيئاً، وترفض النقاش... والفهم، أنا التي سعيت طيلة حياتي الناضجة لأن أَفهم الآخرين... وابني في المقام الأوّل... ثمّ إنّ حديثه عن هذه المجهولة ويلما، لكي يلمّح إلى أنّني كنت مغرمة بلانتون... ما هذه المزحة الشائنة، ما هذه التفاهة! وكأنّه كان يلمّح إلى أنّني وقعت في غرام ابني بالذات، أجل، وما يقوله أبله ومهين في الوقت نفسه. ومع ذلك فإنّه كان يريد فعلاً استقبالي، لما يملك من أخلاقٍ عالية، لا بل صوّر نفسه وكأنّه على طريق القداسة الحقيقيّة... أيّة مزحة! وعلى هذا، فإن ابني ينتمي إلى الطوباويّين الأبرار... ولكنّه لم يذكر أيّ كلمة عن الصغيرة، عن... سوهار فما معنى هذا، ما معنى ألّا يقول لي أيّ شيء عن حفيدتي، وكأنّه لم ينجب ابنة أو كأنّه لا يفترض به أن يحدّثني، أنا، عن هذه الطفلة، ولكن لكي يراعي من؟ لكي يراعي ماذا؟ أوَ تُراني أكون، أنا، غير جديرة بأن يخبرني عن حفيدتي بالذات؟ هل أجازف بتدنيس الطفلة أو بجلب النّحس لرأسها اللدن هي الرضيعة لا لشيء إلّا لمجرّد كتابة اسمها في رسالة موّجهة إلى ناديا، جدّتها؟

سرت بخطواتٍ متسارعة وأنا أشدّ بغضب صدريّتي من الجهتين إلى معدتي. كان لهاثي يتسارع لأنّني لم أكن معتادة البتّة على الجهد الجسمانيّ، لكنّني تابعت التقدّم في شارع فوندوديج اللامتناهي والرتيب ولم أكن راغبة في العودة قبل أن أبدّد اضطرابي. وفي وقت ما نظرت إلى ساعتي فرأيت أنّني كنت أمشي منذ ساعة تقريباً. تولّاني الرعب. فوندوديج شارع طويل جدّاً ولكن ليس إلى حدود أنّني أستطيع السير فيه مسرعة

لمدّة ساعة دون أن ينعطف أو يتغيّر اسمه. وتذكّرت عندئذٍ أنّ فوندوديج يخلي المكان لشارع «كروا دو سيغي»، وأنّه يكفّ عن أن يكون فوندوديج بعد كيلومتر ونصف ربّما. بيد أنّني ما زلت أسير في شارع فوندوديج وقد أبطأتُ سرعتي متسائلة إنْ كنت ابتعدت كثيراً عن منزلنا.

اختفت المحلّات التجاريّة والمقاهي. لم يعد هنالك إلّا منازل متواضعة، ومبانٍ قاتمة. تشجّعت قائلة إنّني لن أعود أدراجي قبل أن أصل إلى آخر الشارع. في بوردو كنت في دياري، وشارع فوندوديج هذا ألم أسِرْ فيه مئات المرّات مذ كنت طفلة؟

شعرت بغضبي الشديد حيال ابني (لقد سمّيته لوقت طويل روح قلبي وها هو يخون قلب والدته العجوز) يتهافت فيما كان قلقي يتنامى، لأنّ الشارع بدا لي دون نهاية، ولأنّني تماديت في الابتعاد بحيث لم يعد يسعني أن أرتدّ على عقبيّ ببساطة وأعود أدراجي، فسيُعتبَر تصرّف كهذا قبولاً مقلقاً بالفوضى وكذلك تسليماً بأنّ شارع فوندوديج لم يعد ذاك الذي عرفته دوماً، وهذا ما لا يمكن التسليم به، لا يمكن بكلّ بساطة.

وبعد تفحّص حذر لوجهها، سألت امرأة تتقدّم نحوي:

- المعذرة، ما اسم هذا الشارع من فضلك؟

قالت وهي تهزّ كتفيها وتدل بإصبعها إلى اللافتة، على الجدار فوقنا: شارع فوندوديج.

سألتها أيضاً:

- هل أوشك الشارع أن ينتهي؟

قالت المرأة وهي تبتعد:

- إنه طويل جدّاً، كما تعرفين.

تابعت السير بخطى متمهّلة ملؤها الارتياب.

كان جوّ الشارع أليفاً بالنسبة لي، بمحالّه الرماديّة الطلاء، ومحترفاته المقفلة منذ زمن طويل، وعيادات الأطباء ذات الستائر القذرة خلف الزجاج المغبرّ، ومع ذلك لم أعرف شيئاً محدّداً كما بات يحدث لي غالباً في مدينتي مسقط رأسي مذ سكنها الضباب، إلى أن توقّفتُ أو استنتجتُ بالأحرى أن قدميّ تتوقّفان أمام مبنى قيد الترميم محتجب نصفه خلف السقالات. كان إحساس بالانزعاج يخنقني.

قلت في نفسي بتحفّظ: آه، أجل، في الواقع، كان المبنى هنا.

ومع أنّه لا رغبة لي في القيام بذلك، دفعت باب المبنى فانفتح مبدياً المقاومة نفسها كما في السابق، وبطريقة عفويّة حنيت جذعي لأرغم الباب على الانفتاح أكثر، تماماً كما كنت أفعل فيما مضى مئات المرّات، لأنّني عشت هنا لسنوات طوال مع زوجي السابق قبل أن ألتقي بآنج. ولكنّ الأمر الذي فاجأني هو أنّنا كنّا نسكن في بداية شارع فوندوديج وليس في هذا المكان منه الذي استغرقت أكثر من ساعة لبلوغه. وتساءلت: هل المسافات تبدو لي بصورة مختلفة لأنّني أكبر سنّاً ممّا كنت عليه آنذاك؟ لا، لا، لم يكن هذا تفسيراً مقنعاً، فقد سرت لتوّي سريعاً.

لأيّ سبب توقّفت عادتي الشهرية؟

شعرت أنّني سئمة، ومكتئبة. واعتراني شعور بأنّ ابني يجبرني، لأسبابٍ بغيضة، ومن خلال ممارسته ابتزازاً غير معترف به، على أن أفعل ما لا أريد القيام به، وما بدا لي غير مبرّر أن أفعله. بيد أنّني لست مضطرّة للانصياع لابني، على أيّ صعيد كان.

وإذا بي قد تسلّقت الدرج الذي طالما صعدته فيما مضى، متشبّثة

بدرابزينه القذر؛ كنت ألهث قليلاً، وإذا بي أمام باب منزلي القديم، وإذا قلت «القديم» فهذا لأنّني لم أعد أسكنه، ولكنّي أدين للحقيقة ولإدراكي كرامتي بالذات أن أوضّح أنّ هذه الشقّة في فوندوديج لا تزال ملكاً لي. حين تطلّقنا نجح محاميّ (وكان حاضراً في الحفلة التي أقمتها للاحتفاء بولادة سوهار، وكما لو كان الأمر متعمّداً لم نتبادل الكلام ثانية منذ ذاك الحين، فيما كنّا أصبحنا صديقين تقريباً، لكن جميع المدعوّين في ذاك النهار، ألم يختفوا بطريقة لا تفسّر من حياتنا، من المبنى ومن الشارع؟)، أقول نجح في جعلي أحظى بالملكيّة الكاملة للشقّة التي كنّا قد اشتريناها معاً، أنا وزوجي السابق، هذا صحيح، هذا صحيح، ومنذ ذلك الحين أجّرت الشقّة لوالد ابني لقاء مبلغ زهيد.

وددت أن أصرخ في وجه ابني قائلة: ألا تعرف أنّ والدك لم يعد يدفع لي بدل الإيجار منذ عدّة أشهر وأنّني لم أطالبه بذلك، وأنّني لن أطالبه أبداً على الرغم من احتجاج آنج الذي اعتبر أنّ والدك يستغلّني، ولكن سيّان عندي إن أراد هذا الرجل خداعي أو لا، سيّان عندي لأنّه أبوك وزوجي السابق وقد أحببته حبّاً لا حدود له.

لاحظت أنّه لم يعد هنالك تحت الجرس اللافتة الصغيرة البيضاء التي كانت تشير إلى أنّ زوجي السابق كان كهربائيّاً.

كان حرفيّاً مشهوراً، ومجبراً على رفض الزبائن، وكان يعمل في منازل الموسرين في حيّ البورصة والمسرح الكبير. ما ذنبي إذا عجز هذا الرجل القدير، الماهر، المطلوب في كلّ مكان، عن تحمّل حزن الفراق أو تجاوز صدمة الطلاق؟ هذا ما كنت أريد أن أقوله لابني، إنّ ضعف شخصيّته وتعلّقه المرضيّ بثبات حياته هما اللذان تسبّبا في انهياره، ذاك هو السبب ولا أيّ شيء آخر. ليس السبب، كما تلمِّحُ له، أنّني أعوزته، ثمّ إنّ شروط

الطلاق كانت لصالحي، صحيح هذا، ولكنّ حيّزاً واسعاً كان يتبقّى لوالدك لكي يخرج من المأزق بطريقة مشرّفة، لو أنّه لم يختر طريق الإشفاق على النفس والتخاذل والتهاون.

ليس لديّ ما يمكنني ان أفعله بهذا الخصوص، قلت في نفسي وأنا في استياء عارم.

سيساعدني على الخروج من شارع فوندوديج قبل أن ينهكني أو قبل أن يلتفّ على نفسه فجأة ويخنقني داخل حلقاته، لن أستطيع الخروج منه بمفردي، فشارع فوندوديج كان ينتقم بدوره ولا أعرف ممّا!

اتّخذت القرار بالضغط على الجرس. هذا ما كنت أفعله حين كنت أعود من المدرسة متأخّرة من أجل لذّة سماع خطى ابني، روح قلبي، تطرق الأرضيّة، ثمّ فتْحه مزلاج الباب وارتمائه بين ذراعيّ ملتصقاً بي، مع أنّه كان قد كبر في تلك الحقبة. كلّ هذا لا بدّ أنّ ابني أتقن نسيانه، ومع ذلك، قلت شبه منتصرة، إنّ عماد روحه اليوم مرتكز فعلاً إلى الحبّ المجنون الذي كان يكنّه لي آنذاك، والذي كان يبقيه متشبّثاً بصدري طويلاً طويلاً لدرجة أنّه كان يتوجب عليّ إبعاده عنّي، ودفعه بلطف لكي أدخل الى الشقّة، وروحه الباردة جدّاً اليوم حيالي مبتدعة أيضاً من ذلك الحبّ!

هذا ما أحببته كثيراً لدى لانتون، عشيق ابني. لم يكن يخجل من أن يعانقني لوقتٍ طويلٍ عندما كنت أذهب لرؤيته في مكتب المخفر، أبداً لم يرَ حرجاً في أن يُظهر أنّه كان يكنّ لي عاطفة جمّة. هذا ما أحببته لدى لانتون، براءة تجليّات حنانه.

هل كان تصرّفه صبيانيّاً أم من باب السذاجة؟ هل كان نوعاً من البلاهة؟ كم كان ابني يبدو بالمقارنة مع لانتون متصنّعاً ومستهزئاً وساخراً وبارداً!

ضغطت على الجرس مرّة ثانية. كنت على وشك الرحيل شاعرةً بالارتياح لتجنّبي لقاء زوجي السابق وفي الوقت نفسه قلقةً أمام فكرة أن أجدني بمواجهة شارع فوندوديج، ثمّ انفتح الباب. وتمتم زوجي السابق مذعوراً:

- ما الأمر؟

قلت وأنا أمدّ وجهي من فتحة الباب لطمأنته:

- لا تخفْ، هذه أنا.

تراجع بسرعة وكأنّه أمام منظر مرعب.

- ما الذي تريدينه منّي أيضاً؟

كان صوته متهدّجاً، مستاءً، ومع ذلك، حتّى إذا كان صوته يتأكّله القلق والخيبات، فهو كان يرنّ في أذنيّ حميماً، أليفاً ويعيد على الفور لذاكرتي كلّ اللحظات التي كان يكلّمني فيها برقّة واستسلام. ومع أنّني لا رغبة لي في معاودة رؤية الأماكن التي عشنا فيها معاً، مع ابني، سمعتُني أسأله:

- هل يمكنني الدخول لحظة؟

ألم أعش هنا أفضل أيام حياتي؟ حين كنّا ثلاثتنا في شارع فوندوديج؟

عندئذٍ، وكرهاً، أوسع لي زوجي السابق فتحة الباب قليلاً مفسحاً المجال لأدخل إلى ما هو منزلي في الواقع.

18- ما فعلناه به

اقتادني طيلة الشارع ممسكاً بمعصمي ولم أستطع الامتناع عن التفكير في أنّه يفعل ذلك لا لأنّه يخشى أن أهرب، ولا ليقترب منّي، بل ليتفادى ببساطة أن يصيبني مكروه في هذا الشارع الذي يتفنّن في تضليلي مع أنّ

مخاطر الاصطدام المتعمّد الموجّه لشخصي تكاد تكون معدومة في شارع لم يكن الترام يمرّ فيه.

تردّدت في سؤاله، هو الذي كان يستقلّ الترام، هل كان لاحظ أنّ الترام يتعمّد التعرّض لحياة بعض الأشخاص دون غيرهم. لكنّي احتفظت بسؤالي لنفسي. لمَ أفتح له قلبي؟ لمَ أولي زوجي السابق ثقة سيعاجل بخيانتها؟ لأنّني كنت أتوق لهذه الثقة بكلّ كياني، ولأنّني كنت أودّ بشدّة العودة إلى تلك الحقبة في شارع فوندوديج حيث كلٌّ منّا كان يعتبر مستحيلاً أن يتسبّب له الآخر بأيّ أذيّة كانت، إلى درجة أنّني حين بدأت أكذب على زوجي السابق بخصوص موضوع آنج، لم أكن أعي حتّى أنّني كنت أكذب، وكنت مقتنعة في لاوعيي أنّني عاجزة عن الازدواجيّة كما كان هو عاجزاً عنها.

تابعنا سيرنا في البرودة الثلجيّة ورائحة الطمي اللتين كانتا تكتنفان المدينة. أطلق زوجي السابق ضحكة صغيرة مندهشة.

قال:

- لا أفهم حقّاً كيف أمكنك أن تتوهي. انظري، نحن في ساحة توريني، لا شيء تغيّر.

قلت باحتدادٍ:

- هذا لأنّك هنا. لا تتغيّر جغرافية الأمكنة إلّا حين أكون وحيدة. الأمر منطقيّ فعلاً إنْ كان متعلّقاً برموز موجّهة لي، أليس كذلك؟ لكنّي لا أتوصّل إلى فكّها.

سعل قليلاً مع شيء من الانزعاج. لم يكن في صحّة جيّدة وشعرت بالألم من أجله.

سألني فجأة:

- ألن تتوقّفي عن زيادة وزنك؟

قلت مستاءة:

- آه، هذا ليس من شأنك. وأعتقد أنّني سآكل بطريقة صحيّة أكثر حين أقيم عند ابني.

ثمّ أضفت بسرعة لكي أقطع الطريق أمامه إذا ما أراد الاستفاضة في موضوع سمنتي:

- انقطعت عادتي الشهرية، إنّها بداية سنّ اليأس.

- هل أنت واثقة من ذلك؟

قلت بغضب:

- بطبيعة الحال!

قال لي زوجي السابق مقطّباً جبينه:

- ربّما كان أمراً آخر.

في هذه اللحظة توقّفنا أمام نافورة الماء في ساحة تورني تحت أشجار الزيزفون التي كانت أغصانها الجرداء تختفي كليّاً في الضباب، وعندئذٍ لمحت نوجيه الذي كان يمشي باتّجاهنا. وزوجي السابق رآه أيضاً.

قال منذهلاً:

- هذا ريشار فيكتور نوجيه!

- هل تعرفه؟

نظر إليّ مرتاباً:

- وأنت ألا تعرفينه؟

أجبت بصوتٍ منخفض:

- أعرفه مذ بدأ يأتي إلى منزلنا كلّ يوم، ومذ بدأ يحضّر لنا وجباتنا ويهتمّ

بآنج كما يهتمّ سجّان مُغوٍ بسجينه. لم أكن أعرفه قبل أن يتدخّل في حياتنا.

لم أجرؤ على أن أكشف لزوجي السابق أنّه حين كان كلّ شيء لا يزال يسير بشكل جيّد بالنسبة لي ولآنج، كان نوجيه جارنا يوحي لنا برعب مليء بالازدراء. لم أجرؤ على البوح له بذلك، لأنّي شعرت أنّه لن يصدّقني إلّا بصعوبة، ثمّ بذهول، لا سيّما وأنّ نظرته المحدّقة بخجلٍ إلى نوجيه كانت مفعمة احتراماً.

سألته مستاءة:

- ومن أين تعرف نوجيه هذا؟
- أفّ لا أدري! الجميع يعرفونه: أعتقد أنه ألّف بضعة كتب.
- ولكن كيف يمكن ألّا يوحي لي اسمه بشيء، وألّا أعرف عنه شيئاً قبل أن يأتي ليسكن عندنا تقريباً؟

أدار زوجي السابق رأسه بتباهٍ محدّقاً إلى وجهي. بدت نظرته وكأنّها تنحرف إلى داخله، وتكتسي بغمامة من الارتياب، والاضطراب أو التواضع، وهذا آلمني في الصميم لأنّني كنت أعرفها تلك الغمامة، فذاك الرجل الهَرِمَ، الموهن، الذي أحببته بجنون فيما مضى، والذي كان يلوذ غالباً بالغموض المفاجئ لنظرته وكأنّه يريد أن يشير، دون أن يضطرّ للإفصاح عن ذلك، إلى أنّني طرحت عليه للتوّ سؤالاً غير ملائم، أو تافهاً، أو أبله، ولم يكن من شأنه، بأيّ حالٍ من الأحوال، ولا هو يريد حتّى أن يسعى للإجابة عنه.

ومع ذلك قال:

- المزعج فيك هو أنّك لا تعرفين إلّا ما تريدين معرفته.

- ولكنّي لم أتعمّد عدم معرفة نوجيه هذا. ليس هذا خطئي، بعد كلّ حساب، إذا لم يصدف أن وقع نظري على اسمه. هل كان يظهر على التلفزيون؟

قال زوجي السابق بنبرة فيها شيء من الاغتياظ:

- بالطبع!

قلت

- ليس لدينا تلفزيون.

قال زوجي السابق:

- تلك هي المسألة.

- حسناً، هذا هو واقع الحال.

وأنهيت كلامي متلعثمة، مدركةً سوء نيّتي. صمتنا حينئذٍ، جامدين متواجهين (كنّا جزءين منفصلين منفردين لقلب واحد كان يكفي فيما مضى لصدرَينا نحن الاثنين، وها نحن الآن جفّت عواطفنا، وكنّا ضائعَين كلٌّ من جهته، متّحدَين فقط بالضغينة والمعصية) حتّى وافانا نوجيه بخطواته الرشيقة.

وبخضوعٍ استفزّني انحنى زوجي السابق باتّجاهه وغمغم قائلاً:

- أنا فخورٌ جدّاً... سعيد جدّاً.. للقائك. أنا زوج ناديا السابق.

قال نوجيه بحرارة:

- تشرّفنا.

ثمّ قال لي:

- أتيت للبحث عنك، قلت لعلّك وجدت صعوبات في الاهتداء إلى طريقك. ولكنّي أرى أنّ لديك دليلاً.

وضحكا سويّة، زوجي السابق بتدلّل مفرط، ونوجيه بسخرية. عندئذٍ ألقيت التحيّة على الأوّل بهزّة خاطفة من الرأس، وابتعدت دون أن أنتظر الثاني.

كان شارع إسبري ديه لوا أمامي، في آخر ممرّات توريني. رأيت بوضوحٍ تامّ لافتة صالون تزيين الشعر التي تشير إلى بدايته. لماذا إذن تولّاني هذا الانطباع الآسر وكأنّه إنذار بأنّ الشارع سيتوارى من أمامي؟ وبأنّي لو توغّلت فيه وحيدة، بملء إرادتي، دون أن يرشدني أحد، فإنّ الشارع سيعرف ذلك ويتصرّف بشكل أعجز معه عن معرفته، سيُمحى أو يتلوّى، أو أيضاً كشارع فوندوديج الجهنميّ سيطول إلى ما لا نهاية حتّى يقضي عليّ نهائيّاً؟

ارتميت في الشارع لأباغته. وبدأت أسير بخطوٍ سريع متقارب، ظهري مستقيم ونظري سارح إلى البعيد قدُماً وكأنّني بهذا كنت أحدّ من أخطار تعرّضي لنزق العناصر الغامض (لأنّني كنت أحبّ مدينتي كثيراً). وإذ تقدّمت هكذا، متحايلة على الشارع نفسه وساعية لأن أمرّ فيه غير ملحوظة، شعرت بثقل لحمي المضغوط خلف صدريّتي، وسمعت وقع خطاي يتردّد بصخبٍ. ابتسمت قليلاً وأنا أقول لنفسي: ها أنتِ بالحجم الهائل الذي صرته، تسعَين لأن تشقّي الهواء بنفاذ نصلٍ مسنونٍ!

وفكّرت بزوجي السابق الذي لا يزال يعيش في الشقّة التي كانت شقّتنا والتي، من الناحية القانونيّة، لم تعد إلّا شقّتي من دون أن يمدّني ذلك بلذّة حقيقيّة أو بشعورٍ صادقٍ بالظفر، لأنّ هناك أموراً شرعيّة غير عادلة ولم يكن بإمكاني ههنا أن أصير عمياء البصيرة إلى حدّ أن أشعر بالرضى الناجم عن الحقّ المشروع. لم يكن هذا ممكناً حقّاً، قلت في نفسي، مفتخرة قليلاً

بنزاهتي الفكريّة.

كنتُ، والحقّ يقال، إلى أن قادتني ساقاي أمام مبناي القديم، قد تجاهلت وأخفيت في زاوية ما منسيّة من ذاكرتي هذه الواقعة التي تقضي بأنّ مسكن زوجي السابق كان ملكي. وعندما كان آنج صاحب الحسّ العمليّ يريد أن يذكّرني بأنّ الصكوك المترتّبة عن الإيجار لم تعد تصل، كنت أسارع للإجابة قائلة:

- لا تحدّثني عن هذا الأمر!

كنت أتظاهر بغضب عارم حيال زوجي السابق إلى درجة كنت أخشى معها أن أفقد السيطرة على نفسي لو أراد آنج أن يدفعني إلى تحمّل مسؤوليّة الأمر، فيما كنت أريد بكلّ بساطة تجاهله، بدافع الندم والشفقة، ولا أدري أيّ باعث آخر.

وفكّرت بزوجي السابق الذي كان لا يزال يقيم في الشقّة التي كان يطيب لي أن أفكّر أنّنا عشنا فيها السنوات الأكثر انسجاماً في حياتنا، أنا، وهو، وابننا رالف، وتمتمت متوجهّةً إلى رالف فيما كنت أسحق رسالته في جيبي: هل تجرؤ على القول إنّك لم تكن سعيداً في شارع فوندوديج، ألم تكن سعيداً بأبسط طريقة ممكنة؟ أكان ضروريّاً فعلاً أن تلعب اليوم دور الابن العاقّ، المتذمّر، المنتشي بالاتّهامات؟ كنت أمّاً على سجيّتها، لا بل كنت صارمة، ومُحِبَّة بطريقةٍ جديرة بالاحترام، فلمَ تحرص إذن كلّ هذا الحرص على إلباسي دور العدوّة التي لا تقهر والتي تلزمك حيالها شجاعتك بأن تصارع سنة بعد سنة، وهذا ليس بهدف القضاء عليّ أو طردي من حياتك ولكن ببساطة، آهِ ذاك هو الشعور الذي كان يعتريني، لكي تُظهر معركتك، وتستعرض شجاعتك المزعومة؟ ربّما كان هذا ما

ترغب في أن تعنيه: والدتي شخص رهيب مرعب! ولكن ما الأمر الراعب الذي اقترفته؟ والذي قد تعجز بعد كلّ هذا الوقت الطويل عن نسيانه؟ إن فرضيّة أنّ ابني لا يزال يلومني على هجري أبيه واقتراني بآنج كانت تخرجني عن طوري.

فكّرت بزوجي السابق الذي كان لا يزال يعيش في الشقّة حيث منذ أقلّ من ساعة وللمرّة الأولى منذ رحيلي، وجدتني جالسة قبالته في الصالون المنطبع بهذا الجوّ، جوّه، الذي استبسلتُ لطرده أو التخفيف منه حين كنّا نعيش سويّةً والذي لا يمكن أن أصفه بأفضل من هذا: الجوّ الريفيّ والعماليّ. أجل، كنت من بوردو. لم أعش قطّ في باريس فلماذا كنت أحتقرُ الريف؟ لم أكن أعرف أو أحبّ إلّاه. لكنّي ارتعبت قبل كلّ شيء من جموده المستكين، من هواء لم يتجدّد إلّا نادراً، من جهلٍ كاملٍ لأساليب التزيين الداخليّ، وحتّى تلك التي كانت رائجة منذ عقدٍ من الزمن؛ كان المكان مزدحماً بالأغراض المتبّجحة، وسقط المتاع، بما كان مزيجاً مزرياً لمقتنيات هجينة. تلك كانت ميول زوجي السابق وعاداته التي عملتُ ليس من دون حنكة على طردها من حياتنا الزوجيّة آنذاك، وها إنّي كنت أستعيدها في الشقّة التي كانت شقّتنا وكأنّني، برحيلي، أخذت معي، دون أن أتقصّد ذلك، التحوّلات الرهيفة التي أحدثها تأثيري في شخصيّة زوجي السابق على تربيته وعاداته.

هذه الذهنيّة المحبطة وجدتُها من جديدٍ تسود المكان (الستائر السميكة المسدلة بعناية أمام النوافذ، الكراسي المزوّدة بوسائد مسطّحة ومثبّتة بشريطٍ إلى القوائم، الطاولة المنخفضة التي هي من زجاج رماديّ والموضوعة على سجّادة مزينة برسوم صينيّة، الطنافس البربريّة، إلخ...)، فيما كانت سابقاً

ترتاع من عنادي وتواظب على الاختفاء حين كنت أعيش مع زوجي السابق.

كنت أعرف جيّداً تصرّفاته وطموحاته! ومع أنّني أكنت كرهها، إلّا أنّها كانت لا تزال قادرة على تحريك مشاعري حين تجتذب عواطفي على حين غرّة، وذاك هو السبب في أنّني حين كنت منذ قليل في الصالون الموحش لزوجي السابق، جعلني الإحباط خرساء ولكنّي كنت أيضاً مضطربة لإدراكي أنّ التربية التي نشأ عليها استطاعت أن تتغلّب على تعاليمي.

أتعرف، تربيّت مثلك، هكذا كنت معتادة على أن أقول لزوجي السابق فيما مضى لكي أفهمه أنّ منحدر الجهل والذوق السيّئ كان لا يزال ممكناً تلافيه مجدّداً ونهائيّاً، كما سبق لي أن فعلت.

كنت قد رفضت أن يلتقي بإخوتي وأخواتي أو بأيّ من أقربائي. كنت أقول له إنّهم لن يعجبوه. لكنّي كنت أخشى بخلاف ذلك من أن يجدهم ودودين لأنّهم كانوا كذلك، على ما يبدو لي. كنت أخشى من أن تتعزّز بطريقة خبيثة ميول زوجي السابق للابتذال من جرّاء عشرتهم الممتعة واللطيفة، كنت أخشى من أن تعاكس عشرة هؤلاء الناس المجرّدين من الرهافة جهدي للارتقاء بقلب زوجي السابق، قلبه المتفاني والساذج، قلبه الجلف، الذي كان طفوليّاً في سريرته فيستغلّ صِلاتي بهذه العائلة لكي يعدّل ميوله وفقاً لميولها.

كان زوجي السابق بسيط القلب صريحاً. لم يستطع إطلاقاً أن يستكشف الحقد البارد الذي كنت أحمله في داخلي حيال البيئة التي كنت قد خرجت منها، لم يستطع قطّ أن يتمثّل بوضوحٍ أمراً كهذا لأنّه لم يكن يجهل أنّني، بالرغم من كلّ شيء، ترعرعت في كنفِ اللطف والرحمة.

لم يكن بإمكانه أن يفهم الحقد حيال الأهل الذين أحسنوا معاملتنا ولكن الذين نكره نمط حياتهم. ولم يكن يستطيع أن يفهم أيضاً رفضي الاقتراب من حيّ أوبييه حيث أمضيت طفولتي، ومن شوارعه بصفوفها الطويلة من الأبنية وأرصفته المحفّرة. أجل، بالرغم من جميع جهودي فإنّ زوجي السابق بقي بسيط القلب.

قلت لنفسي بصوت خافت وكنت لا أزال غاضبة بشدّة من ابني: ماذا بامكاني أن أفعل حيال هذا؟ هل كان عليّ أن أتحمّل أن ينظر إلى عملي باحتقار معتبراً مهنة المعلّمة مجرّد طريقة ظريفة لملء نهارات طويلة؟ وأن أقبل مشاهدته التلفزيون آحاداً بأكملها مصرّاً على أن أجلس قربه لكي لا يكون وحيداً، ولكي لا يضحك وحده أمام البرامج العديدة المسلّية التي كان يعشقها لدرجة أنّه في أغلب الأحيان كان يتّخذ هيئة حردة ومتجهّمة حين يلاحظ أن شفتيّ لم تكونا قطّ لتنفرجا عن أيّ ابتسامة بل كانتا تظلّان مغلقتين ومتبرّمتين غيظاً أمام تلك التفاهات؟

لم نكن أنا وآنج نشاهد التلفزيون البتّة، قلت في ذهني لابني. هل كان علينا أن نخجل من مثل هذا التصرّف، أم كان علينا أن نخجل من أن نحسبه موضع فخرٍ؟ لا أظنّ ذلك حقّاً يا عزيزي، حقّاً لا يا قلبي الصغير.

بتّ أسير في الشارع بثقةٍ أكبر، عارفةً بنظرة من طرف عيني كلّ منزل وكلّ محلّ كنت أمرّ أمامه.

ثمّ إنّ كلّ محلّ كان يظهر لي تقريباً في الوقت والمكان اللذين كنت أتوقّع وفي ترتيبه المعتاد. لم يتغيّر شيء.

في الجيبة الأخرى من صدريّتي، تحسّست تحت أصابعي زوايا دفتر الصكوك الخاصّ بي. أجل، قلت في نفسي بهدف أن يسمعني ابني،

حرّرت صكّاً لأبيك، أرأيت، ولكن ذلك لم يرقْني، لا بل نكّد مزاجي لأنّي وجدت أنّ الابتزاز العاطفيّ الذي تمارسه عليّ أليم ولا أملك سبباً لإعطاء المال لهذا الرجل الذي يدين لي به كلّ شهر.

ما لم أبح به لابني، حتّى ذهنيّاً، هو أنّه بات يشّق عليّ أكثر فأكثر أن أنفق مالي رغم أنّي غدوت أكثر ثراء من ذي قبل. لا يتعلّق الأمر بزوجي السابق على نحو خاصّ. على أيّة حال ألم أسلبه؟ بلى، بلى قلت وأنا أهمهم بسبب انزعاجي قليلاً، ثمّ ماذا يفيدني أن أنكر ذلك؟ كان هذا الطلاق ضرب احتيالٍ لصالحي. كنت في سبيلي إلى التحوّل تدريجيّاً إلى امرأة مقتّرة وبخيلة، قلت في نفسي. هل كان هذا بتأثير من آنج؟ هل يجب أن نعزو كلّ تغيّر في الطبع إلى تأثير أحدٍ ما علينا؟ آهِ، هذا ما يصعب على المرء محاربته في داخله، في قلبه العجوز الضيّق، هذا النفور من رؤية المال الموفّر العجيب ينقص ولو مؤقّتاً، ولو قليلاً، هذا الإحباط العبثيّ لدى التفكير بأنّ كلّ إيرادٍ ماليّ لا يساهم في زيادة كومة الذهب بل في تجميد النفقات، هذا اللهاث القصير الناتج عن القلق الذي صار ينتابني والذي بتّ أعرفه ما إن يتوجّب عليّ أن أقرّر شراء شيء ما والذي يتحوّل إلى دفق من اللذة الدافئة المشعّة في كلّ خليّة من جسدي حين أتوصّل إلى تفادي شرائه أو إرجائه.

كنّا أنا وآنج متشابهين في هذه النقطة. أم أنّكِ اعتبرتِ ضروريّاً أن تصبحي مثله؟ لم يكن آنج يشتري إلّا ما يعجز عن تفادي شرائه بعد حسابات داخليّة شتّى ومعقّدة تبدو معها ضرورة اقتناء مشترىً مماثل مضاهية للمسرّة التي ذروتها الامتناع عن الشراء.

كنت أنسج على منواله. كنّا أنا وآنج متفاهمين جيّداً على هذا الأمر. كنّا نشعر، دون أن نفصح عن ذلك، بالغبطة نفسها إزاء التضحية بلذّة تلقائيّة

وعابرة لقاء غبطة دائمة وعميقة، تلك التي يغرقنا فيها التمثّل الذهني لثروتنا. قلت في نفسي لدى وصولي أخيراً أمام باب المبنى: ثمّة متعة في حرمان النفس حين تكون نابعة فقط من إرادتنا بالذات. أذكر أنّنا أنا وآنج كانت تتولّانا نشوة عارمة حين، بعد تردّد طويل أمام ثوب جميل أو كتاب لغلاديس أو بريسيلا، أو حزام لابني، أو في أغلب الأحيان للانتون، كنّا نخرج من المحلّ وأيدينا فارغة ومحفظتنا ملأى، وبالطبع كيف الاعتراف بذلك دون الاحمرار خجلاً: كنّا نشعر حينذاك أنّنا سيّدا المدينة، وأنّنا كنّا نتحكّم تماماً بشهواتنا ونزواتنا وأهوائنا وكنّا نعرف أن نجني من عدم إشباعها لذّة أكبر بكثير؟

كان كلّ ذلك الحقيقة عينها. لدرجة أنّني قلت في نفسي، وأنا أفكّر بابني بغضب، إنّ كتابة هذا الصكّ لزوجي السابق تسبّبت لي بألمٍ فائق يعجز عن تصوّره ذاك الذي لا يعرف البخل. بادئ الأمر لم يرد أخذَه.

غمغم دون كبير اقتناع:

- لست بحاجة إلى مالكِ، لا بأس.

كانت رائحة الفقر المدقع تفوح من الشقّة، رائحة الزهد الذي لا فرح فيه. كان زوجي السابق، هو نفسه، شديد الهزال. قال لي إنّه كان يفكّر في الذهاب إلى إسبانيا لتجربة حظّه هناك. مدّ يده نحو الصكّ بسرعة وكأنّه كان يعْدل عن رأيه فجأة، ثمّ أخذه دون أن يشكرني وقال متأفّفاً:

- مهلك، قد يساعدني هذا المال في دفع تكاليف السفر.

مجرّدةً بغتة من صكّي فيما كنت أستعدّ، بشيءٍ من العزاء، لإرجاعه إلى جيبي، شعرتُ وكأنّ أحدهم سرقني. جلتُ بنظراتي المستاءة على الجدران المصفرّة والأثاث البائس الذي كان من الخشب الفاتح اللون.

كان زوجي السابق قد احتفظ بشعره كثيفاً؛ أضحى رمادياً ولكنّه لا يزال مجعّداً ولامعاً. رأيتني من جديد أسرّح شعره بأصابعي، مجتذبةً الخصلات المشعّثة لأسمعه يشتكي ضاحكاً؛ رأيت هذا الرأس نفسه، هذه الخصلات نفسها، الكستنائيّة الفاتحة آنذاك، هذا الفم الواسع والمكتنز نفسه الذي لم تكن تخرج منه آنذاك، عليّ التسليم بذلك فعلاً، إلّا كلمات مفعمة بطيبة لا تصنّع فيها، غير واعية لنفسها. أجل، أجل، كان زوجي السابق آنذاك أفضل شخصٍ قُدّرَ لي أن ألتقيه. كنت أحبّ أن أقدّم له كلّ الأشياء الممكنة وأن أغدق عليه الهدايا تعويضاً عن فارق اللطف الكبير الذي كان بيننا لأنّني، حتّى قبل لقائي بآنج، حين كان ذهني خالياً من كلّ شرّ، وقلبي بريئاً، كنت أشعر تلقائيّاً بأنّني كنت أقلّ نزاهة من زوجي السابق، وأقلّ نقاءً منه، وكأنّني كنت أحدس الخيانة قبل أن يتوفّر لديّ أدنى سبب للتفكير في ارتكابها، وكأنّ قلبي قد أحسّ بنباهة عالية أنّه مقدّرٌ لمثل هذه الطيبة وهذا القلب الأبله أن يُصارِ إلى تعنيفهما ورميهما في حالٍ من الذهول والمرارة، وكأنّه، أجل، لا شيء أكثر خزياً أو إحراجاً لذاك الذي نحبّه من جهله بأفكارنا المتقلقلة، السيّئة أحياناً، والملتبسة.

في صالونه، قبالة الرجل التعس الذي كانه، قلت في نفسي: شعرت بمتعة كبيرة حين كنت أشتري له الأشياء التي كان يحبّها، وها إنّي صرت غاضبة من أن يقبل أخيراً مبلغاً صغيراً من المال كنت أقدّمه له مكرهة أيّما إكراه.

شعرت بلمعةِ خجلٍ. لم يكن زوجي السابق، الذي بات خائباً ومرتاباً ولئيماً، قد لاحظ مع ذلك تحفّظي وبشاعة تصدّقي.

أفلم يكن مبلغاً زهيداً، محتسَباً تحديداً بحيث لا يؤلمني منحه وكأنّني لم أكن قد أعطيته شيئاً؟

رأيتني من جديد في هذا الصالون نفسه الذي كان فيما مضى أنيقاً ومبهجاً، منبهرة، لا خجلاً ولا ندماً، بل سروراً وافتتاناً غامضاً أمام الحظّ الذي ابتسم لي وقدّر لهذا الرجل الذي كنت أحبّه كثيراً أن يكون زوجي، ولهذا الصبيّ الصغير الوديع أن يكون ابني، ذاك الذي كانت عيناه المرفوعتان صوبي تطرفان قلقاً لدى أقلّ إحساسٍ بأنّه يمكنني أن أترك الغرفة دون أن يلاحظ ذلك.

وكان ذاك الرجل طيّباً ومستقيماً، وكان ذاك الطفل يذوب حبّاً لأمّه، وكان جمال زوجي السابق المذهل، كما في القصص الخرافية التي كنت أقرؤها لابني، يبدو وكأنّه أعطي له ليجسّد تلك الطيبة، وليظهر من خلال أمارات جليّة تلك النزاهة الاستثنائيّة التي كان يملكها دون أن يدري. كانت شظيّة عذاب صغيرة تخدش قلبي الفتيّ المنذهل قليلاً، الحائر والخجول، حين كان غياب طويل يحملني على اكتشاف جمال زوجي السابق ثانية. كان جماله يصدمني وكنت أذهب للقائه في تأرجحٍ أليم يضفي على مظهري برودة وتصلّباً.

لم يكن زوجي يحفل بجماله الخارجيّ، وكان يجهله. قلت في نفسي أحياناً وأنا مضطربة: إنّه لأمر فظّ ألّا ينتبه لذلك. ولكنّي كنت أعرف أنّ الأمر لم يكن كذلك. كان زوجي السابق مغموراً بالنِّعَم. لكنّه كان يستحيل عليه أيضاً أن يقدّرها، وكأنّما ليزيد في إذكائها.

ماذا تبقّى من كلّ ذلك؟ تساءلت وأنا جالسة قبالته في صالونه الرثّ. ماذا تبقّى من كلّ ذاك الحبّ، من ذاك العهد الحميم الذي طال زمنه،

من كلّ هذه الكلمات التي تلفّظ بها واحدنا للآخر والتي كانت تستلزم، ليكون لها معنىً، دوام ارتباطنا؟

ماذا تبقّى من الشغف الذي كان يكنّه ابني لي؟

قلت في نفسي: لم أكن أنتبه آنذاك إلى أنّ خيال آنج كان منذ ذلك الوقت يغشى قليلاً تلك الغرفة حيث كنّا ثلاثتنا وادعين هانئين. كان خياله هنا، قابعاً في إحدى الزوايا، مغيّراً مستقبلنا؛ بالطبع، لم أنتبه للأمر آنذاك لكنّ قلبي كان يخفق مرتدّاً عن زوجي وابني خفية، أكثر قدرة ومعرفةً وتقلبّاً، وارتياباً.

اليوم بات زوجي السابق رجلاً لئيماً مهلهلَ الكيان. انتُزِعَ جماله منه دفعة واحدة، على ما يبدو، ما إن تحوّل لطفه اللامتناهي إلى نفور مستهزئ وعدوانيّة حمقاء. اليوم، أنا... آهِ، قلت في نفسي، تخلّصت من الورطة تماماً. وبخلافه لم أفقد شيئاً لأنني تزوّجت ثانية بالكائن الذي كان يشبهني إلى أقصى حدّ. كنت سعيدة، سعيدة، سعيدة.

بما أنّ صمتاً مشؤوماً كان يرين بيننا، سألت زوجي السابق:

- هل اخترت الانقطاع عن العمل أم أنّك...

- أم أنّني ماذا؟

وتابعت كلامي وأنا أتلوّى انزعاجاً:

- أين هم الزبائن الذي اختاروا ألّا يستدعوا إلّاك؟

قال بخبثٍ وانزعاج:

- ولَمَ تقولين ذلك؟

فكّرت منذهلة أنّه كان غير مدركٍ للأمر وغافلاً عن كلّ ما يجري؛ أم أنّه كان يتعمّد ذلك؟

قلت:

- تحدث أمور غريبة منذ بعض الوقت. لا بدّ أنك لاحظت ذلك. لا أعرف ما يمنع أن يكون أصابك أنت ما أصابنا. أنا وآنج توجّب علينا أن نترك المدرسة.

ولدى تفوّهي بهذه الكلمات اغرورقت عيناي بالدموع.

قال زوجي السابق:

- قصص المدرسة هذه لا تعنيني. لا أعرف إطلاقاً عمّ تتحدثين. تعرفين جيّداً لمَ توقّفت عن العمل بعد الطلاق.

قال لي محاميّ، الذي أصبح صديقاً لي (حتّى أنّه جاء إلى الحفلة التي أقيمت لسوهار) إنّ الطريقة التي كان يتظاهر زوجي السابق من خلالها بالاكتئاب، وإدمانه الكحول في محاولة منه لتحريك مشاعري والتأثير بي، كانت محزنة ومزرية.

كان آنج قد قال لي:

- يجب تركه، كمثل طفل، يذهب إلى غاية حرده.

وهذا ما توصلت للتفكير به أنا نفسي يكاتفني آنج ومحاميّ اللذان كانا كلاهما رجلين متعقّلين.

قلت وأنا أرغم نفسي على الابتسام بسخرية:

- لم تكن على أيّة حالٍ بهذا الاحباط. هل كان السبب هو فقط لأنّني تركتك؟

لم يجب زوجي السابق. حدّقت نظراته بطريقة آليّة إلى وجهي (المتغضّن؟ المحطّم؟ المنفتح؟) وإلى جذعي الذي كانت جلستي الغارقة قليلاً في الكنبة تجعله يبدو أكثر اتّساعاً واكتنازاً أيضاً، وخمّنت الأفكار التي

كانت تعبر خاطره وما رافقها من تعجّب: أيعقل أنّ تلك المرأة، التي لم تعد تشبه نفسها، قد تسبّبت لي بكلّ ذلك العذاب؟

لم أستطع الامتناع عن أن أهتف قائلة:

- وأنت أيضاً تغيّرت.

ولكنه لم ينبس بكلمة، وكأنّ هجماتي لم تلقَ لديه أذنين صاغيتين. وضع يده على جبينه بحركة سئمة.

تمتم قائلاً:

- لا، لم أفهم لحدّ اليوم لمَ رحلت. كنّا سعيدين على ما كان يبدو لي، أليس كذلك؟ لكنّ الأمر سواء عندي الآن. كلّ ذلك انتهى وولّى إلى غير رجعة، أليس كذلك؟

للحظة تخيّلتُنا جالسَين كما كنّا نفعل فيما مضى ونتابع حياتنا معاً ونثرثر ببساطة بعد انتهاء يوم عمل، بمنأى عن ظلّ آنج المتوعّد، في كلّ بهاء نفسَينا المتشابهتين الذائبتين إحداهما في الأخرى. هل نزلت اللعنة على رأسَينا؟ أكان الحقد سيحاصرنا من كلّ الجهات لو أنّني لم أرحل مع آنج؟ ولكن كيف كان سيحمينا زوجي السابق؟ هل بفضل الهالة التي لا تقهر لطيبته؟

قلت بلطف:

- تعرف جيّداً أنّنا لدينا الميول نفسها والآراء نفسها أنا وآنج. لقد دعوناك عدّة مرّات لزيارتنا، أليس كذلك؟ فعلنا كلّ ما بوسعنا لكي نوطّد علاقة صداقة معك. وهذه الأيدي الممدودة نحوك أعرضتَ عنها دوماً.

لم أقل لأيّ حدّ كنت أجد سعة فكر آنج رائعة آنذاك، رحابة الصدر تلك التي كانت تدفعه لأن يرغب في استقبال زوجي السابق المتخبّط مع

ذلك في اليأس والحقد حسب ما كان يبدو لي، ومواساته. هل أراد آنج أن يثبت أنّ هذه الخيبة كانت مزيّفة أو في جميع الأحوال مبالغاً فيها، فأصرّ كثيراً، وعبثاً، على مخالطة زوجي السابق؟ هذا ما خطر لي فجأة بعد كلّ تلك السنوات، وأنا جالسة على أريكة مزدانة بالأزهار في الصالون المبتذل والمتداعي الذي صارته الغرفة الرائعة التي كنّا نعيش فيها، بسبب رداءة ذوق زوجي السابق وعاداته البائدة. لم يكن آنج، من جهته، ليتحمّل العيش نهاراً واحداً في صالون مفروش ومزيّن بهذه الطريقة، هذا ما كنت أرغب في أن أقوله له لاغتياظي منه ومن براءة شقائه، وأردت أن أقول له أيضاً: الحياة أكثر تعقيداً ممّا تظنّ، آهِ، ما أسهل أن يكون المرء ساذجاً!

ومع ذلك، قلت في نفسي، ومع ذلك... كان الندم الخفيّ المرتبط بتلك الحقبة يستولي عليّ مجدّداً، ويصِمُ حياتي العاطفيّة الجديدة، ذلك الوعي الغامض بأننا أنا وآنج قد دنّسنا بشكلٍ ما زوجي السابق دون أن نقصد؛ أم ماذا؟ بدا لي آنذاك وبطريقة مشوّشة أنّه بخداعنا زوجي السابق وإيذائه، ثمّ برغبتنا في استدراجه إلى منزلنا، إلى شقّتنا الفخمة بخفرٍ، كنّا قد دنّسنا، ليس من دون لذّة، شيئاً ما كان يتخطّانا، ويزعجنا.

ما كان الأمر إذن؟ أكان شكلاً من القداسة؟ ولكن كنّا نرتاع، أنا وآنج من كلمات مماثلة، ومن كلّ ما تشير إليه هذه الكلمات.

قلت في نفسي: هذا لم يمنع، وقد توقّفت أمام باب شارع «إسبري ديه لوا»، غير عاقدة العزم على دفعه لكي أعود إلى منزلنا، هذا لم يمنع من أنّنا جعلنا من زوجي السابق كائناً فظّاً وشريراً، قادراً، على سبيل المثال، أن يدبّر المكائد لكي يفرّق ابننا عن لانتون، بدافع الأنانيّة الخالصة، والبلاهة والتعنّت لأنّه لم يكن لديه حيال لانتون أيّ شعور خاصّ. قلت في نفسي:

لكأنّ اللطف اللامتناهي لذاك الذي لم نكن تسبّبنا له بالأذيّة بعد، لا يمكنه إلّا أن يتحوّل، ما إن يتغيّر الوضع، إلى بلاهة متوحّشة تحت تأثير المرارة، وتحت تأثير الخيبة. وهكذا فإنّ زوجي السابق ربّما كان سيصبح أقلّ سوءاً لو أنّه لم يكن بهذا اللطف، قلت في نفسي. ألا يكفي هذا لإثبات أنّه لم يكن قدّيساً؟ لأنّه لو كان كذلك كان بقي هو نفسه سواء كان مجروحاً أم لا، لا بل كان سيغدو أفضل لأنّه جُرِح وأُهين.

قال زوجي السابق متحدّثاً عن آنج:

- كان يريدني أن أزوره بهدف أن يهزأ منّي.

قلت بنبرة مصدومة:

- بالتأكيد لا!

ثمّ أضاف زوجي السابق هادئاً، واثقاً من نفسه، بنبرةٍ شبه متجرّدة:

- كان يريد أن يثبت لك بالدليل الحيّ أنّي كنت غبيّاً. ربّما كان يجد أنّك لست مقتنعة بذلك بشكلٍ كافٍ. كان سيسألني أمامك عن شتّى المواضيع وكنت سأبدو عاجزاً عن الإجابة عليها، وبحسب معاييره، سأكون مهاناً.

كان يقول ذلك دون أن يبدو عليه أنّه مستاء أو حاقد، بل بدا فقط وكأنّه يراقب الأمور وتكاد لا تدهشه، ولمحت عندئذٍ خلف قناع الحزن والشيخوخة المبكّرة قبساً مؤثّراً من مظهره فيما مضى، من هيئته المشرقة بوداعة. وكان سيظلّ هكذا، ثابتاً لم يتغيّر، لو أنّنا أنا وآنج لم...

وكوسيلة أخيرة، ومع أنّه لم يعد هناك شيء للدفاع عنه أو للفوز به، انحنيت، وأظافري مغروزة في راحتيّ، على الكَنبة المريعة، واقتربت من وجه زوجي السابق، ثمّ قلت بصوت شبه متوسّل:

- لكنّك تعرف جيداً أنّ... جوهر الموضوع بأسره، هو أنّني في الحقيقة... لم أعد أحبّك!

فتح يديه، ونظر إليهما بابتسامة طفيفة. ثمّ عاود رفع رأسه ومن جديد رأيت الرجل الذي كان من الممكن أن يكونه، ذاك الذي كان يفترض به أن يكونه لو أنّنا سمحنا له بأن يصيره.

قال زوجي السابق وهو يبتسم بلطف:

- وماذا بعد؟

وفجأة عاد وجهه منغلقاً، ناحلاً كما كان. ثمّ أطلق ضحكة خاطفة، قويّة وبلهاء، لا بل معتوهة.

- أهكذا بهذه البساطة طُردتما من المدرسة؟ أيُعقل؟ ما الذي فعلتماه لكي يصل بكما الأمر إلى هذا الحدّ؟ حتّى أسوأ الأساتذة بينكم لا يُطرَدون أبداً في العادة.

فكّرت وانا أشعر بالتعب والارتباك: لا شكّ أنّه لا يملك أيّ فكرة عمّا يجري. كنت وكأنّني في حضرة تلميذٍ تأخّر كثيراً في دراسته، ولم أكن أعرف من أين أبدأ.

قلت متردّدة:

- يبدو أنّه ليست لديك أيّ فكرة عمّا يجري. أنت نفسك أيّها التعس... من يرغب في توظيفك الآن؟ بين ساحة البورصة وساحة كانكونس، لا أحد، أنا متأكّدة. أنت موسوم مثلي ومثل آنج. تظنّ أنك تريد أن تهاجر لأنك تأنف البقاء هنا، وتظنّ أيضاً أنّك لم تعد تعمل لأنّك لا تريد ذلك أو، لنقل، لأنّ ما أصابك من الإحباط أشعرك بالعجز عن العمل. وباختصار تظنّ أن أسبابك شخصيّة

ولكنّ الأمر ليس كذلك إطلاقاً. أنت من هؤلاء الأشخاص الذين لم نعد نحتمل رؤيتهم في المدينة. وكذلك أنا وآنج. آهِ، اسأل لانتون إذا كنت لا تصدّقني. أوّد أن أقول لك شيئاً آخر بعد.

وانحنيت صوبه لحدّ ملامسته بأنفاسي. تراجع برفقٍ مضطرباً، منزعجاً. هل بتّ أثير قرفه؟ من كان يظنّ نفسه؟

وتابعت كلامي:

- حتّى المدينة، جرّب بنفسك وسوف ترى، حتّى المدينة لم تعد تريدنا، كيف بإمكاني أن أفسّر لك ذلك، إمّا أن تتقلّص لتلفظنا خارجها، وإمّا أن تتمدّد بشكل مرعبٍ لتضلّلنا، وإمّا، وقد رأيت ذلك بأمّ عينيّ، أن تتحوّل بحيث لا نستطيع معرفتها.

نظر إليّ زوجي السابق بصمتٍ. كان يبدو متحفّظاً ومحرجاً. شعرتُ بي أحمرّ انفعالاً.

قلت:

- أتوسّل إليك ألّا تتهمني بالجنون. لا تقل لي إنّني مرهقة وإنّه أولى بي أن أستشير طبيباً نفسيّاً. اسأل لانتون، وآنج، وسوف ترى.

أجابني بهمهمةٍ.

وجهدَ حينئذٍ ليتّخذ هيئة محايدة، لا مبالية بشكلٍ غامض.

نهضت محبطةً أشدّ الإحباط وتوجّهت إلى باب المدخل ببرودة مدركة مشيتي المتثاقلة التي كان وزني يعيقها (كانت فخذاي تترجرجان، وركبتاي الضخمتان ترتطمان، وكان خصري مضغوطاً بشدّة في صدريّتي)، ولكنّي كنت غير آبهة بما يمكنه أن يفكّر فيه. وقبل أن أضع يدي بالضبط على مقبض الباب أمسكني زوجي السابق، ثمّ قال بلهجةٍ يشوبها غنج غامض:

- تعالي، سأريك شيئاً!

وبعد لحظة من التردّد، أخذني من ذراعي وجذبني نحو غرفة ابننا القديمة. فتح الباب دفعة واحدة ثمّ تراجع خطوة، متباهياً فخوراً. يا له من رجل مسكين حقّاً، يا له من بائس، قلت في نفسي وأنا أدفع باب شقّتنا في شارع «إسبري ديه لوا» ذاهبةً لموافاة آنج. كانت وجنتاي تلتهبان من جديد خجلاً وتأفّفاً وتحيّراً، ولدى وصولي إلى مدخل بنايتنا كان عليّ أن أتريّث قليلاً لأهدّئ من تواتر خفقات قلبي، قلبي المرتاع المهان.

سأل زوجي السابق:

- غرفة طفل رائعة، أليس كذلك؟

كان يبدو متلهّفاً لسماع صيحات إعجابي موجّهاً لي دفعة خفيفة في الظهر ليجعلني أدخل إلى قلب الغرفة، تلك التي سكنها ابننا لمدة عشرين عاماً تقريباً، والتي زيّنها بصور شتّى لمعبوديه تباعاً، من ويني الدبّ[1] إلى كورت كوباين[2]، وقد طلب لوقت طويل بعد رحيله من الشقّة ألّا نغيّر شيئاً في غرفته العزيزة التي لم يكن يمتنع فيها عن مطارحة لانتون الغرام، بين الفينة والأخرى، بعد تناولهما العشاء مع زوجي السابق، ما دفعه للكفّ عن دعوتهما، ما أشعرهما بارتياح كبير، على ما أفترض.

قلت للانتون رغماً عنّي على سبيل المزاح إنّ مطارحة الغرام على مسمع من حميه أمر مستهجن بعد كلّ حساب، وفي غرفة مراهقين، علاوة على ذلك.

---

(1) ويني الدبّ Winnie l'ourson (*Winnie the Pooh ou Pooh Bear*): الشخصيّة التي اختلقها الكاتب البريطانيّ آلن الكسندر ميلن Alan Alexander Milne ثمّ أنتجت من وحيها شركة ديزني عدّة أفلام رسوم متحرّكة.

(2) كورت كوباين Kurt Cobain: من أهمّ مغنّي موسيقى الروك في العالم (1967–1994).

فأطلق لانتون ضحكة خفيفة، بريئة، من تلك الضحكات التي كنت أعشقها لديه، وقد احمرّت وجنتاه بطريقة رائعة. وكأنّما ليعذر ابني، أسرّ لي بشيءٍ من الانزعاج والفخر الغامض في آنٍ معاً، أنّه كان هو لانتون من خطرت له فكرة القيام بهذا الجماع في الغرفة العذريّة بعد التهام الطعام الذي حضّره بابا (هكذا كان يسمّي أحياناً زوجي السابق) بطريقة خرقاء، وأنّ ابني لم يكن ليجذب أبداً، من تلقاء نفسه، كائناً من يكن نحو سريره الذي كان على شكل باخرة، والذي كان يضيق بقامة لانتون الفارعة.

صارت جدران الغرفة مكسوّة بورقٍ ورديّ تتخلّله خطوط اللّوينات نفسها، والأرض مفروشة بسجّادةٍ من اللون الورديّ الداكن، وقد زُيّنت بمجموعة من الدمى الوبريّة المختارة، على ما بدا لي، للونها الورديّ المتدرجّ من الورديّ الأكثر شحوباً إلى ذلك الضارب إلى الحمرة. كان سرير صغير من الخشب الأبيض الذي تعلوه قبّة منسدلة من الساتان الورديّ موضوعاً تحت النافذة التي رأيت عبرها الواجهات الكئيبة والمغيّمة لشارع فوندوديج.

قلت بطريقة عفويّة:

- أوه، ألا تعرف أنّه يجب ألّا يوضع سرير الطفل أبداً تحت النافذة؟

تخيّل الصغيرة واقفة تضرب الزجاج بقبضتيها الصغيرتين، وتخرج عبره لتجد نفسها في أسفل الطوابق الثلاثة...

حملقت عينا زوجي السابق جزعاً.

قال مغمغماً:

- هذا صحيح، أنت محقّة.

فهمت أنه كان يمتنع، بدافع من عزّة النفس، عن تغيير مكان السرير

الصغير في الحال.

سمعتُني أقترح عليه مندهشة من نفسي:

- هل تريد أن نغيّر مكانه؟

وهكذا ألفينا نفسينا نرفع سرير حفيدتنا، سوهار تلك التي لا أعرفها، لكي نضعه لصق الحائط، محاذرين أن نترك أثراً على السجّادة التي كانت فعلاً من نوعيّة فاخرة جدّاً، كثيفة الوبر ولامعة.

قال زوجي السابق سعيداً مرتاحاً:

- وها قد رتّبنا الأمر للأميرة الصغيرة. ما رأيك؟

كان الإشفاق وذكرى عاطفةٍ لهذا الرجل الذي جرحتُه بعمق فيما مضى يمنعانني من أن أجيبه بأنّني كنت أحتقر كلّ أصناف الزينة التي اختارها بدءاً بالملصقات التي تظهر أطفالاً عراة بالكامل وسط حقول من الأزهار أو الملفوف وصولاً إلى اللون الورديّ المنتشر على نمط أحاديّ في هذه الغرفة الصغيرة، لذا اكتفيت بأن أسأله بلهجة متبرّمة قليلاً:

- من أين أتيت بالمال لتشتري كلّ هذه الأشياء؟

أجابني زوجي السابق ببساطة جعلتني أندم على نبرتي الفظّة:

- كلّ ما كنت أملكه، وضعته ههنا.

قلت في نفسي: بعد كلّ حساب ما دخلي أنا بذلك؟ ثمّ لامست أطراف أناملي رسالة ابني المدعوكة في جيبي. وأصابتني سورة الغضب بما يشبه الغثيان. وهتفت في داخلي: آهِ ما أسهل الادّعاء بأنّنا مفلسون حين نبذّر ما كنّا نملكه!

خرجت بسرعة من الغرفة منزعجة من هذا الكمّ من انعدام الذوق ومن التبذير الأبله.

قلت غاضبة:

- لا شكّ أنّك ستشتري لها أيضاً تلفازاً لها وحدها لتضعه في غرفتها.

قال زوجي السابق بهذه البراءة المنتشية التي كانت تلازمه دائماً ما إن يتحدّث عن الطفلة:

- نعم، سيكون هذا مشروعي القادم.

تنهدّت علانيةً ملاحظةً أنّه قد نسي على ما يبدو سفره إلى إسبانيا. كنّا قد عدنا إلى مدخل الشقّة حين سمعت حفيفاً خلف باب مكتبي القديم، وهو غرفة صغيرة مطلّة على الباحة حيث كنت قد حضّرت دروسي وصحّحت مسابقات تلاميذي. كم أحببته ذاك المكتب، تذكّرته بشيء من الحزن. أردت مباغتة زوجي السابق فما كان منّي إلّا أن دفعت باب مكتبي القديم وتسلّلت إليه وأنا أسمعه يصرخ خلفي بأن أتوقّف وقد جنّ جنونه بغتة.

وهنالك في مدخل بنايتنا تساءلت لاهثة: هل يفترض بي أن أخبر آنج بما رأيته في تلك الغرفة؟ أم أنّه لن يستطيع الإحاطة بجوانب مشهد مماثل، أم تُراه سيسخر منه لا سيّما وأنّه لم يكن يبالي إطلاقاً بزوجي السابق؟ آهٍ، قلت في نفسي، لكنّ الأمور لم تعد بيننا كما في السابق إطلاقاً، لم يعد بإمكاني أن أفاتح آنج بأيّ موضوع كان، وبات عليّ في الوقت نفسه أن أراعيه وأنتبه إلى صحّته؛ لم يعد هناك أحد يمكنني التحدّث إليه (ماذا؟ ألم يكن هناك أحد إلّاه إذن؟ أجل، هذا ما آلت إليه الأمور، وكنّا فخورين جدّاً بذلك كما لو أنَّ عزلتنا الزوجيّة المكابرة، ودُرْبتَنا في ألّا نسمع ما يمكن أن يروى لنا إلّا بآذان تتعمّد عدم الانتباه والصمم، وذلك بهدفِ ألّا نتذكّر شيئاً من قصص الآخرين، وهذا التحصّن المريح، أقول كما لو أنّ هذا كلّه

كان ثمرة جهدٍ بطوليّ أو رمزاً لمهابة خاصّة، فيما، قلت فجأة في نفسي، لم يكن ربّما إلّا تجلّياً لإعاقة حوّلناها بطريقة وهميّة إلى خيار!)

لا، قلت في نفسي أيضاً بكآبة، لن أخبر آنج بأنّي رأيت من جديدٍ كورينا داوي، ولن أقول له خصوصاً إنّي التقيت بكورينا تلك في المكان الذي لم يكن يخطر لي إطلاقاً أنّها يمكنها أن تضع قدميها فيه، أو أن تجرؤ، أجل، أن تستعرض شخصها المنفّر، الذميم، المنحطّ، في الغرفة الصغيرة الجميلة المحترمة التي كانت بمثابة مكتبي فيما مضى، حيث لا أحد، ولا حتّى زوجي السابق كان يؤذن له بدخولها في غيابي، حتّى أنّ ابننا سمّى ذاك المكان طويلاً «مكتب أمّي المقدس».

ربّما كنت سأسأل آنج: هل بإمكانك أن تتخيّل أمراً مماثلاً؟ سنوات طويلة مرت دون أن أفكّر بكورينا داوي، ودون أن يرد على خاطري إطلاقاً أفكار لعينة تتعلّق بها أو، بطريقة أدقّ، بكلّ ما تجسّده في ذكرياتي الخاصّة بحيّ أوبييه[1]، ثمّ وجدتها في بيتي بالذات، في شارع فوندوديج، هناك حيث لم أكن أفكّر في أنّ واحدة مثل كورينا داوي كانت تجرؤ على المغامرة بالمجيء إليه لا سيّما وأنّ مشاعر النفور والخشية من وسط المدينة كانت شائعة لدى سكان حيّ أوبييه أيّامَ كنت أعيش فيه.

كنت سأقول لآنج: أتفهم قصدي؟ وكان هو سيهزّ رأسه صادقاً معبّراً عن النفي. سيقول لا، لا أفهم لماذا رؤية هذه المرأة أثارت فيك اضطراباً مماثلاً لأنّك لم تهتمّي قطّ، وتحديداً، بمعرفة كيف كان يعيش زوجك السابق، مع من، وفي أي غرفة من شقّتك. ستنفرج شفتاه بالطبع

(1) حي أوبييه Aubiers: حيّ شماليّ وسط مدينة بوردو التاريخيّ، ويعبره من الغرب حتّى الشرق خطّ الترام أو الترامواي في بوردو.

عن تلك الابتسامة الخافتة اللطيفة والبعيدة، المتعجرفة دون قصد، التي كان يبديها عادةً حين كنت أقصّ عليه ذكرياتي النادرة عن طفولتي، هو الذي ترعرع في شارع «فيتال كارل» وكان يفتخر بوصفه «من أهالي بوردو الأصائل»، فخراً طبيعيّاً بديهيّاً، راسخ الجذور. تجنبّت اصطحاب آنج إلى أوبييه، والحقيقة هي أنّه لم يسألني ذلك. هذا الحيّ غير موجود بالنسبة له بكلّ بساطة بالطريقة نفسها التي لا يمكن كلّ ما يقع خلف أسوار المدينة أن يدّعي الانتماء لبوردو، وهذه القناعة كانت تكتسي لدى آنج بالتعنّت المطمئنّ والواثق للإيمان نفسه، بحيث إنّه لم يكن يسعى لأن يقنع أحداً ولا أن يناقشه في الأمر بطريقة أو بأخرى، مكتفياً برفع حاجبيه بتعالٍ، واستمتاع غامض، أو بالإبانة عن طيف ابتسامة مهذّبة حين يصدف لي أن أذكر، عن طيش، ماضيً « في بوردو». كان يبدو وكأنّه يقول لي: كنتِ كلّ ما تشائين، إلّا أنّك بالتأكيد لستِ من بوردو.

لا، لا، قلت في نفسي وأنا واقفة في المدخل المظلم، غير شاعرة بأنّي مستعدّة بعد للصعود ومواجهة آنج، غير مجدٍ أن أكلّمه عن ذلك، غير مجدٍ أن أقول له إنّني عرفت في الحال كورينا بالرغم سن السنوات، وتحديداً بسبب هذا الملمح على وجهها، وهذا التعبير في نظرتها اللذين يعنيان لرجل مثل آنج، حتّى دون أن يعي ذلك، استحالة أن تدّعي أنّها من بوردو. كنت واثقة من أنّه كان يرى أحياناً هذا الملمح على وجهي وهذا التعبير في عينيّ، وأنّه يخمّنهما، ويشتبه بهما لا شعوريّاً، ويواصل إبصارهما، حين كنت أحسب أنّني بفضل الثقة بالنفس، والتجربة، والعادة، قد تخلّصت منهما.

صرت سيّدة بورجوازيّة محترمة، وكنت أرتدي دوماً ثيابي بعناية، وكنت أصفّف شعري وأتبرّج، وأتكلّم وفق إيقاع سريع، وبنبرة عالية قليلاً وأتبع

جملتي بالأخرى دون تريّث تقريباً. ومع ذلك كنت أعرف، أنّه لا يمكنني أن أخدع آنج، وأعرف أيضاً أنّ ذلك لا يشكّل أهميّة بالنسبة له لأنّه إذا كان قد ورث الاهتمام بالفروق بين أبناء بوردو الحقيقيّين والآخرين، إلّا أنّه ليس متبجّحاً، لا بل إنّ التفاخر تصرُّف سمجٌ يحتقره. وهكذا فإنّه قد يجد كورينا داوي محبّبة ربّما، لا بل جذّابة أو حتّى ظريفة. لكنّه لن ينسى أبداً أصل كورينا وهذا الفارق بينهما سيكون من تلك الفوارق التي تفصل بشكل لا رجوع فيه بين نوعَين من الأحياء.

بالطبع، كان آنج يحبّني فهو اختارني، ونحن متزوّجان. غالباً ما فكّرت مع ذلك بأنّه تزوّج بي لأنّه كان يملك خلفه زواجاً سابقاً، وأنّ طفلتيه حبلتْ بهما وحملتْهما في بطنها المرأة المناسبة، وأنّ بإمكانه والحالة هذه أن يسمح لنفسه، بعد أن أتمّ واجباته، بأن يتزوّج المرأة التي كانت، بكلّ بساطة، تروقه، مع العلم أنّ ذلك كان دون تبعات. لم يكن الأمر يتعلّق إلّا بالسعادة بعد كلّ حساب. لم يعد يُلزم إلّا نفسه معي، لم يكن هنالك عائلة أو حيّ، أو سلالة كاملة من أبناء بوردو الأصائل. وأعرف أيضاً أن كلّ ذلك كان يجهله آنج. كان منطبعاً بهذه الفكرة، بوجهة النظر هذه. وبالتالي كان آنج طيّباً لأنّه كان سليم الطويّة.

أوّاه، هل كان آنج طيّباً حقّاً؟ ما كان عليه من خلقٍ، أليس النقيض التامّ للطيبة؟

أدارت كورينا، التي كانت جالسة أمام حاسوب، وجهها التعب صوبي.

هتفت في اندفاعةِ سرورٍ حقيقيّة:

- مرحباً ناديا!

ونهضت تعانقني بسرعة، على الطريقة الأميركيّة، الاحترافيّة الوجيزة

البعيدة، مرافقةً بتربيتةٍ خفيفة جدّاً على الظهر. نظرت إليّ مبتسمة ورأسها مائل قليلاً إلى جهة واحدة.

- كم أنت مشرقة! لكنّ جسدك مكتنز في كلّ مكان، مثل طفل صغير.

كانت لديها تلك اللكنة الخاصة بحيّ أوبيبه التي كنت أعرفها جيّداً، هذه الحدّة في الصوت، والخشونة في اللفظ، وغياب الصلة بين الكلمات والعذوبة، وهذه التنغيمات المتباينة بشكل مبالغٍ فيه والتي تفتقر إلى التجانس. مرَّ زمن طويل لم تدنُ فيه هذه اللكنة قريبة من مسمعيّ إلى هذا الحدّ لدرجة أنّها صدمتني وكأنّها رائحة منفّرة. لم يعد زوجي السابق نفسه يتكلّم هكذا مذ تركنا معاً حيّ أوبيبه وانتقلنا إلى شارع فوندوديج.

قالت كورينا:

- تتساءلين ماذا أفعل هنا؟ أليس كذلك؟

تمتمت:

- لا، لا.

وقد أخذني الرعب لدى تصوّري أنّ كورينا داوي يمكنها أن تشرع في إخباري أيّ شيء يخصّها.

تراجعت خطوة نحو الباب، غير قادرة مع ذلك على منع نفسي من إلقاء نظرة على مجمل الغرفة. أرأيت، سأقول لآنج (لكنّي لن أقول له شيئاً، فما جدوى ذلك؟) إنّ ما يدمي قلبي ويفطّره هو أنّني رأيت مكتبي ثانية كما كنت قد تركته، من دون أن يكون هناك شيء يشير إلى وجود واحدة مثل كورينا داوي في هذا المكان، ولكنّها كانت مقيمة فيه منذ وقت لا يستهان به، كما قال لي ذلك زوجي السابق لاحقاً. تسلّلت كورينا إلى بيتي، وتجمّعت في كنبتي سرّاً، غير حاملة معها إلّا حاسوباً والخشونة

الملموسة للكنتها. كان وجه كورينا متعباً وهزالها مثيراً للشفقة. كانت ترتدي قميص نوم من الساتان البنفسجيّ المزيّن بتنّينٍ على ظهره. أمسك زوجي السابق ذراعي وقال لي بنفادِ صبرٍ قلقٍ:

- يستحسن بنا الذهاب الآن.

عندئذٍ، أردت أن أعاكسه بمكرٍ، فغيّرت رأيي.

قلت:

- انتظر قليلاً، لا شيء مستعجل.

اقتربت من كورينا التي جلست من جديد أمام الحاسوب.

سألتها:

- هل تعملين؟

قالت كورينا:

- آخذ مواعيدي عبر الحاسوب.

وبغمزة من عينها غضّنت التجاعيد في جانبٍ من وجهها، أضافت:

- هل تعرفين ماذا أفعل؟ هل حدّثك عن ذلك؟

التفتُّ نحو زوجي السابق. تمتم وقد بدا عليه الحرج والاستياء:

- عاملة جنس.

هتفت:

- الآن؟ في مثل سنّك؟

قالت كورينا بصوت مبتهج:

- ما بالك، لدينا العمر نفسه نحن الاثنتين. على أيّة حال، ليس هذا إطلاقاً ما كنت أفعله سابقاً.

تعمّدت أن أنخر بأنفي كمن يريد الإيحاء بأنّه لا ينخدع. ولكن في

العمق لم تكن لديّ أي رغبة في النقاش لأستوضح ما إذا كانت النشاطات التي مارستها كورينا فيما مضى، حين كنّا نسكن كلّنا في حيّ أوبييه، متعلّقة تحديداً بالعمل في الدعارة أم لا، لا سيّما وأنّني في تلك الفترة كنت قد وجدت أمراً مفهوماً فعلاً أن تقوم كورينا بما تقدر عليه لتجد مخرجاً ما، هي التي لم تكن تنجح في المدرسة البتّة.

قلت لزوجي السابق فيما كنّا ننزل سويّة درج المبنى:

- كلّ ما في الأمر أنّني لا أقبل بأن تصطحبها لتُسكنها هنا.

توقّف ثمّ تمتم لاوياً فمه قليلاً:

- وممّ كنت سأعيش؟

- وهل هي التي تعيلك؟

كنت مندهشة، وكان رأسي يدور بي. ومن دون أن آخذ وقتي للتفكير أضفت مستاءة:

- لم أعد أريد أن ترسل لي بدلَ إيجار واحداً إذا كانت لديك النيّة في ذلك، فالمال الذي يجنيه... جسد كورينا داوي، لا أريده.

أجاب:

- لم يكن هذا رأيك دوماً.

- آهِ، تلك القصص القديمة!

طفح بي الكيل إلى حدّ أنّني بدأت بالصّراخ.

ذلك أنّنا، حين كنّا مراهقين، كنّا أنا وكورينا وزوجي السابق أصدقاء، ولأنّ كورينا تركت المدرسة، وكانت الوحيدة التي تملك مالاً (ولأنّها كانت أيضاً كريمة ومتفانية وشجاعة)، وكانت بطبيعة الحال هي من تدفع ثمن النزهات إلى بركة السباحة (كان جسدها هزيلاً وطويلاً وكانت أطرافها مديدة

ونحيلة كصبيّ يافع) أو إلى حلبة التزلّج على الجليد. لعلّها أمطرتنا أيضاً بالملابس والحلى الرخيصة، لا بل بالكتب والمفكّرات المزوّدة بلولب حديديّ وأقلام الحبر، نحن الذين كنّا نتابع تحصيلنا العلميّ فيما هي انقطعت عنه. كنّا نقبل عطاياها بسرور ولكن من دون امتنان لأنّنا ما كنّا نُكنّ لداوي كبيرَ اعتبار. كيف كانت تستحصل على هذا المال؟ كنّا نعرف دون أن تفصح لنا عن مصدره. كان ذكر هذا الموضوع مع أيٍّ كان أمراً غير مطروحٍ بالنّسبة لنا في تلك الحقبة أنا وزوجي السابق حين كنّا مراهقَين خجولَين، وداوي نفسها لم تكن تتحدّث عنه.

كنّا أصغر سنّاً من أن نقدّر رهافتها. لم يكن لدينا الكثير من الاعتبار لداوي، صحيحٌ ذلك. اليوم، وقد بتّ أدرك إلى أيّ حدّ كانت خدوماً وشجاعة، شعرت بالندم على الفظاظة المتعالية التي كنّا نعامل بها الفتاة اليافعة التي كانتها، وعلى بلاهتنا العمياء والأنانيّة حين كنّا طلّاباً في المدرسة، أجل كان عليَّ أن أتذكّرها بندم. ولكنّ كلّ هذا لم يكن بأيّ حال من الأحوال، وكان بودّي أن أشرح ذلك لآنج، دافعاً لأرى في كورينا الخمسينيّة الهزيلة والرثّة الثياب، والمدخنّة على الأرجح، والمقيمة عندي في شارع فوندوديج، شيئاً آخر إلّا التجسيد البائس لِما ألزمت نفسي بتجنّبه طيلة حياتي، وعدم الاستسلام له أبداً، وإن يكن بدافع التعاطف، ولِما ألزمت نفسي بسحقه إن تجرّأ ذاك الماضي الكريه على اعتراض طريقي.

قلت لزوجي السابق:

- كلّ ما تخلّصْتَ منه عاد ليتلقّفك.

فقال لي بهدوء:

- أنت شرّيرة يا ناديا.

وسألني هل صدف لي أن رأيت من جديدٍ كورينا خلال الثلاثين سنة الأخيرة مذ تركنا حيّ أوبييه.

قلت:

- لا، إنّها المرّة الأولى اليوم.

أصرَّ زوجي السابق على سؤاله:

- هل أنت متأكّدة؟

لم أجب، فأخبرني ما قالته له كورينا، من أنّنا التقينا منذ ستٍّ سنوات أو سبعٍ، عندما كانت خارجة من مخفر لاروسيل حيث كانت معتقلة لمدّة أربع وعشرين ساعة، وكنت، أنا، ناديا، داخلة للقيام بزيارة صغيرة للانتون على الأرجح (أوضحَ زوجي السابق). وكانت كورينا، على حدّ قولها، في حالة من الفقر المدقع آنذاك، ومن البؤس الماديّ والمعنويّ، لدرجة أنّها لم تستطع أن تتمالك نفسها من التشبّث بذراعي متوسّلة إليّ كي أصطحبها لتناول فنجان قهوة في مكان ما، أو على الأقلّ، بما أنّني رفضت ذلك في الحال، أن أعطيها القليل من المال لأنّها لم تكن تملك في حوزتها ما يمكّنها من دفع ثمن تذكرة الباص للعودة إلى منزلها. كنت قد تملّصتُ منها (روَتْ كورينا دون حقد)، وهرعتُ إلى المخفر متظاهرة بأنّني لم أعرفها لكنّها كانت واثقة من أنّني عرفتُها.

هل كان هذا صحيحاً؟ سأل زوجي السابق. لم أعترف. قلت ببساطة إنّ ذلك لم يكن مستحيلاً، وإنّني لم أكن أتذكّر المرّات كلّها التي كنت فيها أصادف في بوردو أصدقاء قدامى (في الواقع لم يكن هذا ليحصل لي البتّة لأنّني كنت أعيش في قلب المدينة، ولم يكن إخوتي وأخواتي ولا حتّى والداي العجوزان يتركون ضواحيهم لزيارتها). ولكنّني تذكّرت

هذا اللقاء، أجل، والوجه التعس العابس لكورينا الذي رأيته عدّة مرّات في الحلم بعدئذٍ، وارتعبت من رؤيته. ولكن أن أحتسي القهوة أمام وجه مماثل، حتّى لو كانت قد وعدتني بأنّها لن تتكلّم ولن تخبرني شيئاً، كان أمراً يتجاوز طاقتي على الاحتمال.

ولكن لماذا لم تضعي في يدها بضع قطَع نقديّة؟ هل بسبب البخل؟ لا، لا! وما يكون السبب إذن؟ لم أكن أريد أن تدوم هذه اللحظة إلى ما لا نهاية، أو أن تُخلق أدنى صلة بيني وبين كورينا، أو أن تتذرّع، مثلاً، بإعادة المال لي فتسعى للقائي.

كم شعرت بالخوف فيما بعد من أن أرى كورينا تنتظرني أمام المدرسة! من أن تمسك بآنج وتتودّد إليه وتدبّر دعوتها إلى منزلنا، ثمّ تشرح له، ولِمَ لا؟، ما أدين به لها، هي كورينا، التي جعلت حياتي الماديّة أكثر هناءة في حيّ أوبييه! **لكنّ كورينا لن تقول على الأرجح شيئاً مماثلاً لأنّها لم تعتبر آنذاك أنّنا كنّا ندين لها بأيّ شيء كان.**

أو ربّما كانت ستذكر، عن حسن نيّة، أهلي، والديّ العجوزين اللذين كانا يتابعان حياتهما حيث أمضياها كلّها، وهكذا سيعلم آنج أنّهما لم يقضيا نحبهما كما ادّعيت، ولن يكترث إطلاقاً بأنّ هذين العجوزين لا يزالان على قيد الحياة في المبنى حيث كانا يقطنان في أوبييه، لكنّه سيلومني على كذبي وسأبدو عندئذٍ مثل شخص غريب بائس.

ذلك أنّني لا أفكّر بهما إطلاقاً، ونسيت وجهيهما وحتّى اسم شهرتهما الذي لم يعد اسم شهرتي منذ وقت طويل بفضل نعمة الزواج.

قلت لزوجي السابق فيما كان يرافقني من جديد في شارع فوندوديج:

- لنكفّ عن التحدّث عن كورينا.

لكنّ الأمر كان أقوى منّي. كانت الكلمات تفرّ من فمي خارجة عن

سيطرتي وكأنّها مدفوعة بقلبي المضطرب، قلبي الغيور.

قلت:

- ألا يزعجك أن تعمل كورينا بالضبط بالقرب من غرفة الأميرة الصغيرة؟

لم يشأ زوجي السابق أن يجيبني. كنت أشعره مستاءً، مهاناً. فتولّاني شكّ وقلت:

- آمل ألّا تلعب كورينا دور الجدّة؟ هل ستسمح لها بالاقتراب من الطفلة على ما أفترض؟

أجابني زوجي السابق:

- ناديا، هذا الأمر لا يعنيك.

كان يمسك بذراعي. وكنت أشعر في جسدي بارتدادات غضبه.

قلت:

- لا تخفْ، لن أحدّث رالف عن كورينا، لن أخبره أنّ صديقة قديمة تتعهّر خلف حائط الغرفة التي ترعى فيها حفيدتك.

كنت أرى أنّ شفتيه كانتا مزمومتين وبيضاوين بسبب جهده لعدم الإجابة. وبصوت يصطنع النعومة سألته:

- على فكرة، ذكّرْني باسم زوجة رالف، والدة الطفلة؟

- هل نسيتِ؟

قلت:

- نعم

- ياسمين.

- ومن هي ويلما تلك، هل تعرفها؟

فكّر لبضع ثوانٍ ثمّ قال:

- ويلها، لا، لا أعرف هذا الاسم.

فأطلقتُ آهاً صغيرة متعجّبة.

لَم ينطق بكلمة. وفي هذه اللحظة ظهر نوجيه تحت أشجار الزيزفون الغارقة في ضباب ساحة تورني.

19- لن نعاود التلاقي أبداً، على الأرجح

أمضيت الليلة التي سبقت رحيلي مع آنج في سريرنا. بدا أنّ جرحه لم يكن يتقيّح، لكنّه كان في حالة التهاب متقدّم بدأت تطوّقه، وبدا كلّ لحم آنج متلفاً. كان جلده مسودّاً ووجهه شاحباً تعترضه ظلال رماديّة. كانت تقرّحات جرحه تؤلمه لذا ساعدته على أن يضطجع على جانبه وظلّ مستلقياً يشرب ويأكل طيلة الوقت في هذه الوضعيّة الصعبة. لم يكن يأبه للأمر. وجلب له نوجيه طستاً من عنده ليقضي حاجته، لكنّ آنج لم يكن يبول ويتغوّط إلّا نادراً.

قال لي نوجيه:

- هذا الأسبوع لم يتغوّط إلّا مرّة واحدة.

ومع ذلك فإنّ آنج كان يشعر أنّه مرغمٌ على تناول كلّ ما يطهوه له نوجيه، وحصص الطعام التي يتناولها كانت ضخمة بالنسبة لمريض. لكنّه ظلّ هزيلاً، لا بل إنّه ازداد هزالاً. لم يعد يتكلّم إلّا نادراً. غدا هواء الغرفة لا يطاق. كان نوجيه يروح ويجيء ببهجة متعاظمة وبيسرٍ طفوليّ. حلق لحيته الطويلة، ما جعله يتغيّر تماماً ويبدو نضراً إلى حدّ أنّ مشاعري تجاهه انتقلت شيئاً فشيئاً من الاحتراز العدوانيّ إلى نوعٍ من العطف المتحفّظ.

بات حقّاً إنساناً آخر. لم تكن لديّ إرشادات أعطيه إيّاها قبل رحيلي. كلّ ما كان يتوجّب عمله سيقوم به حتّى أفضل منّي.

إن تصفية آنج في الواقع كان سيتّمها أفضل ممّا بمقدوري أن أفعل.

اكتفيت بأن أشير له كيف كان يتوجّب عليه التصرّف لكي يتمكّن آنج من موافاتي ما إن يستطيع السفر. وبعد عدّة حسابات، تركت له ثلاثة آلاف يورو نقداً.

قلت له:

- حاول دوماً أن تُقنع آنج بأن يوافق على الذهاب لزيارة الدكتور شار.

قال نوجيه بانشراح في غير موضعه:

- آنج محقّ برفضه أن يعاينه ذاك الشيخ الخرف الخطير.

سألته عندئذٍ:

- ماذا تعرف عن الدكتور شار؟

قال نوجيه:

- ما يتوجّب معرفته، من أنّه يكره الناس من أمثالكم.

وأضاف بنوعٍ من الفضول الحائر:

- ألا تصلكِ أيّ أخبار من أيّ مكان؟

قلت:

- لا، أنا وآنج لا نقرأ الصحف. نستمع إلى الراديو ولكن فقط المحطات التي تبثّ الموسيقى الجاز والكلاسيكيّة.

قال نوجيه بنبرة لائمة:

- ذاك هو السبب في أنّكما لا تعرفان شيئاً عن أحدٍ ولا تدركان أيّ أمرٍ.

قلت:

- نعيش في مجتمع يفيض بالمعلومات من كلّ جانب.

مدّ نوجيه يده وربّت على بطني:

- هناك إذن طفل في الداخل؟

- سبق أن قلت لك، إنه سنّ انقطاع الحيض! أنت غبيّ!

وانطلق نوجيه في ضحكة صادقة، بهِجة.

قال:

- لا أصدّق ما تقولين.

ثمّ أصبح جادّاً فجأة:

- على أيّة حال، لا تذهبي لزيارة الدكتور شار فقد يجهض الجنين دون أن يقول لك.

استيقظت بالقرب من آنج في الصباح الباكر فوجدته لا يزال نائماً.

كان نوجيه في الغرفة واقفاً في أسفل السرير في العتمة. أعلمني أنّ فطوري ينتظرني.

قبّلت آنج على وجنتيه الغائرتين، وعلى شفتيه الحارّتين والجافّتين. بدأت بالبكاء وكنت في انزعاج شديدٍ لأنّ نوجيه لم يغادر الغرفة.

قلت هامسة:

- إنّها المرّة الأولى التي نفترق فيها.

وفجأةً فتح آنج عينيه محملقاً وحدّق إليّ بنظرة خالية من التعبير، ثمّ أغمضهما من جديد وكأنّه تعب من تفحّصه لي بهذه الطريقة.

تمتم قائلاً:

- وداعاً ناديا، المهمّ ألّا تعودي.

قلت والإحساس بالذنب يدمّرني:

- أنت من ستأتي يا حبيبي.

آنج، لن يتركني أبداً - أو ماذا لو تركني؟ كنت خاضعة لمجهولٍ، مريضةً، متروكةً في خضم الاختناق البطيء والتضييق الماكر الذي لا يرحم لمدينة مجنونة تشدّ علينا خناقها لتسحقنا؟ هل كان عليّ إذن البقاء في أوبييه بالقرب من الوالدين العجوزين وباقي الأنسباء؟ هل كان يجدر بي إذن العيش هناك؟ بعيداً عن القلب المجرم؟

همست في أذنه وأنا شبه يائسة:

- ليتك وافقت على أن تعالَج، آه، يا حبيبي، لكُنّا رحلنا سويّة...

هزّ رأسه على الوسادة، مرهقاً. ثمّ بذل جهداً ليقرّب فمه من خدّي:

- هل أنت حبلى يا ناديا؟

فعاجلته بالقول:

- لا، لا، ماذا دهاك! انقطعت عادتي الشهريّة، هذا طبيعيّ الآن في مثل سنّي.

قال آنج:

- هذا أفضل.

رأيت أنّ ضعفه الهائل يمنعه من إضافة أيّ شيء. تدحرجت دمعة من عينه اليمنى وسقطت على الوسادة. كان جلده من الحرارة بحيث إنّ أثر الدمعة جفّ في الحال.

عندئذٍ نهضت وسألت نوجيه الرحيل من الغرفة كي أتمكّن من ارتداء ملابسي.

قال:

- أسرعي لأنّ شرائح الخبز ستبرد.

حين خرجت من الغرفة، تمدّدت رئتاي بألمٍ بعد أن كانتا متقلّصتين

طيلة الليل في الجوّ النتن للغرفة. رمقت آنج بنظرة أخيرة. كان نائماً ووجهه عابس، وكانت شفتاه تتحرّكان قليلاً وكأنّه كان يؤنّب أحدهم في الحلم.

قلت وأنا أدخل إلى المطبخ:

- هذا كثير، لن آكل كلّ هذا.

رأيت أنّ نوجيه حضّر لي في الواقع عدّة قرصات[1] تلتمع بالزبدة الذائبة، مصحوبة بنقانق صغيرة مقليّة وبالبيض المخفوق. وهناك أيضاً سلطة فواكه طازجة متوّجة بكريما مخفوقة وحلوى المادلين التي كان يعدّها نوجيه بنفسه ويتعمّد حرق حوافّها بشكلٍ خفيف.

- هذا على شرف رحيلكِ.

قال بلطفٍ مصطنع شعرت معه أنّني مرغمة على التهام كلّ ما قدّمه لي، وكان لذيذاً جدّاً، على الرّغم من الضيق الذي انتابني من جرّاء ذلك.

وبعدئذٍ شعرت بي ثقيلة، مذهولة. كانت فكرة الشارع البارد ترعبني. طلبت من نوجيه أن يسكب لي فنجان قهوة آخر، ثمّ فنجاناً ثالثاً. وأخيراً ارتديت صدريّتي التي لم يعد بإمكاني أن أزرّرها.

ولكن الجوّ كان حارّاً، حارّاً بشكل دائم في البلاد التي يعيش فيها ابني وكان سيكفيني ما إن أصير هناك أن ألفّ الصدريّة في قعر حقيبتي وأنساها.

سألني نوجيه بكثيرٍ من المودّة:

- هل ستركبين الترام؟

قلت:

- نعم، عليّ فعل ذلك.

وفي الحال ألهب وجهي دفق من الدفء. شعرت بالعرق ينساب بين

(1) كعكة مستديرة صغيرة تؤكل مع الزبدة وشهيرة جدّاً في البلدان الأنكلوساكسونيّة.

نهديّ ليسيل تحت ملابسي الداخليّة. فتظاهرت بالانشغال لتمويه خوفي.

قلت بضحكة عابرة وأنا أغلق حقيبتي اليدويّة وأضع خطّاً زهريّاً على شفتيّ:

- يجدر بي فعل ذلك، أليس كذلك؟

- نعم عليك خصوصاً ألّا تستقلّي سيّارة أجرة.

قلت:

- لست معتادة على أن أدفع لسيّارة أجرة.

ولكنّ نوجيه ما لبث أن لاحظ نيّتي السيّئة. كان يعرف أنّني لا أتّصل بسيّارة تاكسي بدافع الحذر أو لتفادي العثور على سائق يرميني خارج سيّارته في الحال أو ينطلق ليتوه بي في أبعد مكانٍ داخل الأحياء الغامضة.

خرجت على قُرص الدّرج وحقيبتي في يدي. مددت لنوجيه أصابع متصلّبة قليلاً، باردة قليلاً، وقلت:

- حسناً، إلى اللقاء.

قال نوجيه:

- إلى اللقاء.

وفي اللحظة التي لمس فيها أصابعي انتابتني شهقة واحدة فقط، شهقة جافّة حادّة مزّقت لي صدري.

قلت:

- أنقذْه، أتوّسل إليك يا سيّد نوجيه...

هتف نوجيه وقد تولّاه الغضب فجأة:

- فات الأوان قليلاً على مثل هذا النوع من المشاعر، ألا توافقين معي؟ لو أنّكما لم تحتقراني بهذا الشكل لـ...

عاجلته القول:

- عذراً، عذراً، أنا نادمة على ذلك كما تعرف.

انهال علينا حرج كبير. أمسكت حقيبتي وبدأت أنزل الدرج بصعوبة. لم يقترح نوجيه عليّ مساعدتي. سمعت الباب ينغلق خلفي ما إن أدرت عقبيّ.

20- لندعِ الترام يهزأ بنا

كان شارع «إسبري ديه لوا» قاتماً، ساكناً. وكانت الفوانيس القليلة التي تنيره ترسل نوراً أبيض لا يلبث أن يلتهمه الضباب في الحال.

طفقت أجرّ حقيبتي من مقبضها الجانبيّ وكانت جلبة الدواليب الصغيرة على الرصيف غير المستوي تبدو لي قادرة على إيقاظ الشارع كلّه، لكنّ الواجهات الداكنة بقيت هامدة. انتعلت جزمتي ذات الكعب العالي للسفر. وكانت تطرق الإسمنت وكأنّ جريمة تتحضّر، محدثةً ذاك الاصطفاق الأنثويّ والمغوي للغاية. تقدّمت بأقصى سرعة أقدر عليها وكانت أنفاسي تضيق. لكنّ الاصطفاق العجول لكعبيّ كان يفضح خوفي ويزيد منه.

لم أعد أستطيع العيش في هذه المدينة التي كانت ترعبني وتقتلني ببطءٍ. عساني أستطيع على الأقلّ مغادرتها دون أن تتشبّث بقدميّ لإغراقي!

لدى وصولي إلى ساحة البورصة، رحت ألهث تعَباً. كانت الأنوار البرتقاليّة هناك من الوفرة والقوّة بحيث اخترقت الضباب وغلّفت الساحة الفسيحة، والروعة الباردة للواجهات المرمّمة، والمضاءة بشكلٍ سحريّ، وكأنّها بشرارة حريق. هذا الفيض من السِّحر ما فوق الطبيعيّ

جعل رأسي يدور. قلت في نفسي: ما الغاية من الأنوار الوفيرة في ساحة فارغة كهذه؟

على الرصيف الجديد الأبيض أحدثت خطواتي صدىً أكثر دويّاً. كنت بها لا يرقى إلى الشكّ وسط حلبة الميدان بالذات. حثثتُ الخطى لأجتاز الساحة وأنا أجرّ حقيبتي الضخمة التي كانت ترتجّ، وأصل إلى موقف الترام. وعندئذٍ رأيته آتياً من ساحة «الكانكونس»، أو بالأحرى شعرت به، ككتلة من الضوء الملتهب وكأنّه كان محمّىً بضوئه نفسه مذيباً الضباب من حوله.

اقتربت من السكّة. رفعت ذراعي بحركة خرقاء وأنا أفكّر في الوقت نفسه أنّ هذا غير مُجدٍ، وأنّ الترام سيتوقّف بالتأكيد عند كلّ محطة.

مرّ دون توقّفٍ، بسرعة جعلني معها تيّار الهواء الصقيعيّ أترنّح. تراجعت خطوة واحدة. قلت في نفسي ربّما لم ينتبه لذراعي المرفوعة بارتخاء. ولكن من المقصود؟ أهوَ السائق الذي لم ألمحه مجرّد لمحٍ، أم الترام نفسه؟

جلست على المقعد وأنا أرتجف برداً. كان يستحيل عليّ معرفة ما إذا كان هذا الترام ينقل مسافرين أو إذا كانت المقصورات فارغة لأنّه عبرَ بسرعة خاطفة وقد تدفّق منه ضوء مبهر بحيث لم أستطع أن أميّز أيّ شيء في الداخل.

قبالتي، أبعد من الطريق والرصيف، هنالك النهر الذي كانت تتصاعد منه أبخرة الضباب. استطعت أن أشعر بلهاثه الموحل، والبرد المحمّل بالروائح المنبعثة من مياهه القاتمة.

جعلتني الجلبة الصافرة لترامٍ آخر أنتفض واقفة على قدميّ. رفعت ذراعي ملوّحة بها، ومن جديد انسلّ الترام من أمامي، ومن جديد بهرتني

سرعته الفائقة، والاشتعال الباهت لزجاجه. بعد وقت قصير، وفد ترام ثالث، ثمّ رابع قريباً جدّاً، وكلّها مرّت قبالة أنفي، متجاهلةً نداءاتي. إنّ أيّاً منها لم يتوقّف في ساحة البورصة.

كنت أجازف بتفويت القطار عليّ إن أنا أمعنت في تريّثي، لذا تخلّيت عن صبري وبدأت أجرّ حقيبتي على طول رصيف ريشليو. كان الجوّ لا يزال مظلماً وكانت القطارات العديدة تمرّ في الاتّجاهين. بعد اجتيازي مائة متر استدرت بحذرٍ ورأيت تراماً في المحطّة التي غادرتها للتوّ. كان بعض الركّاب ينزلون منه مشعشعين مثل كشّافات تحت أنوار الساحة.

كانت جميع الترامات تتوقّف في ساحة البورصة، أليس كذلك؟

تقدّمت ببطء. المحطّة بعيدة وساقاي رخوتان. للمرّة الأولى منذ وقت طويل شعرت أنّني مهانة ذليلة.

لأنّني في اللحظة التي كنت أولي فيها كلّ ثقتي للترام، كان هو الذي يلفظني.

انتابتني فجأةً الرغبة في أن أضع حدّاً لكلّ ذلك والعودة إلى المنزل في الحال وموافاة آنج. رغبت في أن أتمدّد قربه وأترك لنفسي الاستسلام بصحبته إلى رقادٍ بهيميّ، يقطعه فقط الدخول الخاطف لنوجيه القادم لحشونا بالطعام. تابعت التقدّم مع ذلك، عارفةً أنّني سأتابع حتّى حين تدعوني أفكار معاكسة لأستدير عائدة. لا زلت أحبّ الحياة، لم أتوقّف عن حبّ الحياة، ألم يكن ما ينفّرني أكثر من أيّ شيء آخر لدى عزيزي آنج، وهو أغلى شخصٍ عليّ، علاقته الغامضة بالموت، تلك العلاقة الغيور، المشاكسة، وترك لحمه للفساد؟ لم أعد أريد رؤية هذا المشهد ثانيةً.

استدرت أخيراً، تاركةً الأرصفة، متّجهةً إلى شارع دوميرك الذي كان يؤدّي توّاً إلى محطة سان جان. عدّة مرّات تجاوزني الترام، المليء بالركاب

الذاهبين بالطّبع إلى المحطّة لأنّها آخر الخطّ. وإذ وصلت إلى إحدى المحطّات في اللحظة التي خفّف الترام فيها من سرعته ليتوقّف تردّدت في سعيي مرّة أخرى للصعود، مستأنسةً لرؤية الجماعة الصغيرة التي تحتشد تحت الكشك بغية الاحتماء من رطوبة الضباب الجليديّة، وقلت في نفسي إنّه ما من قوّة شرّيرة بين هؤلاء الناس سوف تتلقّفني. كان يبدو لي على أيّة حال أنّني لاحظت بضعة وجوهٍ وقاماتٍ تشبهني. لم أكن لألاحظ فيما مضى أنّنا أنا وهاتين المرأتين، هناك، وربّما أيضاً ذاك الرجل، نملك شيئاً ما مشتركاً. صرت أقدر على تمييز ذلك بوضوحٍ، وكان حسّ جديد مرهف يلهمني في مسعاي. مثلما كنت أستطيع أن أميّز، دون تفكير، بين رائحتين مألوفتين أو مذاقين معتادين، كنت قادرة على أن أفصل تلقائيّاً الكائنات التي أشبهها عن تلك التي كنت أعتقد بالأحرى أنّني أنتمي إليها، والتي لم تعد تعرفنا أنا وآنج وآخرين بوصفنا كذلك، بكلّ صدقٍ.

قلت في نفسي: إذا كان هؤلاء الثلاثة يُجيزون لأنفسهم التفكير بأنّهم سيصعدون إلى الترام، إذا كانوا واثقين بما يكفي من إمكان انتظاره في هذا البرد الراشح وشبه النتن، فما الذي كان يمنعني أنا أيضاً من أن أحذو حذوهم؟

اقتربت وحقيبتي لصق ساقي. ثمّ تراجعت الخطوات القليلة التي قادتني بالقرب من الكشك. وحين فتح الترام أبوابه، عدلت عن رأيي وهربت، راكضة تقريباً على الرصيف وسط الصخب اللاهث لكعبيّ وعجلات حقيبتي الصغيرة. قلت في نفسي غاضبة: أيّتها الغبية، يا لك من بلهاء تعسة، هل تعتقدين حقّاً أنّ الأمر يتعلّق باختفائك وسط الحشد، وبحملهم على نسيانك لبضع دقائق؟ هذا تصرّف طفوليّ وسخيف. لن

تستطيعي الصعود، وإذا كانوا هم يستطيعون، فهذا لأنّ مصيرهم مختلف قليلاً عن مصيرك. ربّما كنت أسوأ منهم في جميع الأحوال، أو معاقبة بشكل أقسى. أو أسوأ منهم، أجل، لِمَ لا؟

ارتجفت خوفاً وألماً وأنا أتخيّل العقبة الأساسيّة التي قد تمنعني هذه المرّة، وأنا قريبة من الهدف، من أن أصعد إلى الترام: ضربة رهيبة، أو سقطة لعينة أو ما أدراني أيّ شيء آخر أليم أو مهين؛ يا للحماقة فيما لم أعد إلّا على بعد خمسمائة متر تقريباً من المحطّة!

انساب الترام قربي مطلِقاً صفيراً ساخراً. كانت الوجوه الثلاثة لأشباهي المتجمّعين كلّهم في عمق المقصورة كأزهار في باقة مأساويّة، في حزمة حزينة وقاتمة منذورة لأن تُسحق... كانت هذه الوجوه الثلاثة تنظر إليّ بأسىً وإشفاق وكأنّها تقول: أيّتها المرأة التعسة المرغمة على المشي، المسرفة في البدانة وفي الرعونة، المحمرّة كلّها من جرّاء البرد والتعب! أحزنتني هذه الأخوّة البائسة وأخجلتني. كم هم قبيحون!، كم هم تعساء ومذعورون!، قلت في نفسي، وأنا منزعجة من التفكير بأنّهم كانوا ربّما يستخدمون في أذهانهم الكلمات نفسها لدى رؤيتي. ولكن هل كان كلٌّ منهم يقول هو أيضاً في نفسه: لا أريد أن تكون لي بكلّ هذا أيّة علاقة؟

21- ماذا كانت تعرف عنّي؟

أدركت في الوقت المناسب القطار الذاهب إلى تولون. بشيء من الخجل، جلست في المكان الوحيد الذي كان لا يزال فارغاً، بالقرب من امرأة ساءلتها بنظراتي وأنا أحرص على ألّا أبدو متوسّلة. ابتسمت لي بطريقة خاطفة، مذهولة قليلاً. عندئذٍ غصت بارتياح في مقعدي.

كان قلبي مبتهجاً. وافقت هذه المرأة المختلفة جدّاً عنّي على جلوسي قربها، في هذا التجاور الجبريّ. كانت ذراعانا تتقاسمان المسند المحوريّ وتتلامسان. بدا أنّها لم تلاحظ ذلك. كنت من السعادة بحيث إنّ صيحة ظفرٍ أفلتت منّي. لم تُبدِ أيّ ردّة فعل وظلّت مستديرة باتّجاه النافذة مسندة ذقنها إلى قبضتها ولم أكن أرى إلّا جانب وجهها النحيل، المسنّن، وشفتيها الرقيقتين المكسوّتين بقشورٍ كانت تنتزعها أحياناً دون انتباه، بأسنانها. كان شعرها الأشقر مربوطاً على الرقبة بشريط من المخمل الأسود. وكانت تنّورتها وكنزتها السميكة وجواربها، كلّها سوداء. كانت عيناها زرقاوين مستديرتين ومطوّقتين بهالة بنيّة يجعلها شريان خافق ترتعش.

كان المرأى المتسلّط لهذه المرأة الشابّة الفاتحة البشرة (كان بإمكانها أن ترفض جلوسي قربها وما كنت لأجرؤ على اللجوء إلى أيّ كان لإرغامها على تركي أحتلّ هذا المقعد: فمن ذا الذي كان ليقدر على مساندتي؟)، والتي بدت وكأنّها أسيرة حزنٍ مفعم بالحذر، يبهجني في سرّي. كانت تتألّم، قلت في نفسي، يا إلهي ما أشدّ ألمها! ربّما كان عذابها يفوق عذابي؛ ولكن هل كان هذا ممكناً؟

لم تأتِ بحركةٍ، كانت نظراتها ثابتة تحدّق إلى المساحات المترامية للأراضي المحروثة المتوالية خلف النوافذ دون أن تراها. وحدها يدها تحرّكت نحو حقيبتها اليدويّة عندما طالبها المراقب بتذكرتها. توجّب عليه مطالبتها مرّتين لأنّها لم تسمعه. لم يطلب منّي شيئاً وبدا حتّى وكأنّه لم يلاحظ وجودي. تناعستُ ويداي مشبوكتان على بطني المنتفخ حيث كنت أشعر أنّ طعام نوجيه يتخمّر ويتخبّط. وحين، من وقت لآخر، كنت أفتح عينيّ، فلكي أستنتج أنّ الضباب يتمزّق ثمّ ينسلّ بمقدار ما نبتعد عن

الجيروند. قبل الوصول إلى آجان[1] بقليل، رأيت السماء من جديد للمرّة الأولى منذ أشهر. سماء زرقاء كامدة لكنّها السماء على أيّة حال، منعتقةً من تلك الغيوم القطنيّة التي تراكمت فوق بوردو، محتجزةً مدينتي الحبيبة في جوٍّ خانقٍ من الأفكار الجنونيّة، والأحلام الموبوءة.

مغمضة العينين، خطرت لي فكرة غامضة: سأعود يوماً ظافرة، وسأخلّص مدينتي من... من أبخرتها النتنة؟ من ثرثراتها المؤذية، من غرورها الخفيّ؟ آهِ، لم أعد أدري.

استيقظت في مونبلييه، أنذرتني رائحة بأنّني جائعة، لا بل كنت أتضوّر جوعاً. القطار فارغ تقريباً. كانت جارتي تقضم بيضة مسلوقة تاركةً نتفاً صغيرة صفراء تتساقط على تنّورتها ولم تكن تبالي.

كم أنا جائعة! لمَ لمْ يحضّر لي نوجيه سندويشاً بالتونة أو بالجبنة؟

أعادت وضع البيضة التي لم تُمسّ تقريباً في ورقة الألمنيوم وغلّفتها. لم يعد بوسعي المقاومة لذا سألتها متعجبّة من جرأتي بالذات:

- هل أستطيع أن أنهي هذه البيضة؟

وأراحني مثل هذا السؤال، الذي لم تخطر لي إطلاقاً فكرة طرحه فيما مضى، إذ منحني الشعورَ بأنّي كنت أتّضع على الصعيد الأخلاقيّ أكثر بكثير ممّا تصوّرت. وإذ علمتُ أنّني كائن رذيل، لم أعد أجهد، كما كنت أفعل، في التزام أقصى درجات الحشمة والأناقة، بل أجزت لنفسي أن أغمغم أو أهزأ بصوت مسموع علناً، سائلةً جارتي في القطار أن تسمح لي بوضع أسناني حيث وضعت أسنانها في «اللّحم» الطريّ المعدنيّ لبياض

---

(1) آجان Agen: من بلدات جنوبيّ غربيّ فرنسا تقع على نهر الغارون Garonne في إقليم أكيتينا الجديدة Nouvelle-Aquitaine.

البيضة المسلوقة. أيّ توسّل دنيء، قلت في نفسي، صادرٍ خصوصاً من امرأة تعاني من بدانة مثل بدانتي!

التهب وجهي خجلاً. وعندئذٍ أضفت:

- اعذريني، لا أعرف ما الذي دفعني لأطلب منك هذا.

بادرتني بابتسامتها الصغيرة المتشنّجة التي لم تكن تفرج إلّا جزءاً من فمها والتي لا تخفّف شيئاً من الحزن المخيف القابع في أزرق عينيها، المستديريتين الصغيرتين كعينَي عصفورٍ، ثمّ مدّت لي كرة الورق الفضيّة.

- خذي كُلي، لم أعد جائعة.

ثمّ فتّشت في حقيبة اليد الموضوعة عند قدميها بحماس مفاجئ وبخشية كأنّها خشية أن تخيّب أملي، وانتزعت موزة كبيرة صفراء ناضجة من دون أدنى بقعة سوداء، وقالت لي أيضاً:

- كُلي هذه أيضاً، لا أرغب فيها.

ووضعت الموزة برفقٍ على طاولتي الصغيرة فانتابني ضعف هائل واغرورقت عيناي بالدموع. نزعت الورقة عن البيضة، ونظرت إلى الأخاديد التي خلّفتها في البياض الأسنانُ الممتنعة التعسة لجارتي، ونهشت البيضة بحيث إنّ أسناني بالذات لم تتجنّب هذه الآثار بل تبعتها بمثابة عربون متطيّر لامتناني. كنت أوّد، في الوقت نفسه، أن يكفي هذا لإبعاد اليأس الكامد من هاتين العينين الصغيرتين الفاتحتي اللون. لأنّ إحباط المرأة الشابّة لم يعد يمدّني بأيّ غبطة.

ألم تكن ترى شيئاً فيّ يوجب بها أن تتفاداه مرتاعة؟ أم أنّ عذاباتها بالذات كانت تشغلها لدرجة أنّها كانت تُنسيها... كلّ تيقظ، لدرجة أنّها تشوّش عليها الرؤية أو تجعلها لا مبالية بكلّ ما كان يحيط بها؟ لدرجة أنّها لم تكن تخشى الفأل السيّء الناجم

عن أنّ فمي كان ينهش حيث نهش فمها ويمكن أن يُضاف إلى تعاستها الراهنة؟

توقّف القطار في مرسيليا. كان بعد الظهر يشارف على نهايته. نزل جميع الرّكاب ما عدا جارتي. جعلت الشمس الحمراء الدافئة سقف المحطة الزجاجيّ متوهّجاً، وانعكست أيضاً على الوجه الناحل لجارتي عبر الزجاج مضفيةً عليها فجأة مظهراً حيويّاً، شبه بهِجٍ، ولو كان الأمر متوهّماً.

سألتها:

- أتذهبين حتّى تولون؟

قالت:

- نعم.

قلت وقلبي يرتعش:

- من هناك، أستقلّ المركب حتّى ك...

قالت:

- أنا أيضاً.

لكي أخفي رضاي، أفلتّ همهمة. إن كلّ تعبير عن السرور في حضرة هذا العذاب المضني كان سيبدو لي فاجراً.

لم ينطلق القطار مجدّداً. لم يصعد أحد. كنّا وحيدتين. هبط الليل ممتصّاً كلّ مظهر حيويّة من وجنتَي المرأة الشابّة ومعيداً لجبينها العظميّ كُمودَه القَبْريّ. نهضَتْ فجأة متعثّرةً بركبتيّ، وقبل أن آتي بأيّ حركة، تعدّت فخذيّ لتبلغ الممرّ.

سألتني بصوتٍ قلق:

- ألا تجدين، أنت، هذا غريباً، أن يبقى القطار في المحطّة؟

قلت:

- بلى.

وشعرت للتوّ بالقلق الذي كان يقبع في وعيي يبزغ فيما كنت أتكلّم معها.

قالت لي أيضاً إنّها لم تكن تستطيع أن تسمح لنفسها بالوصول متأخّرة إلى تولون وبأن يسبقها المركب. رأيت ساقيها الطويلتين النحيلتين تروحان وتجيئان محتكّتين بعصبيّة بقماش التنّورة محدثتين جلبة تشبه تلك التي للشراع الخافق في الريح - وتلك الريح، آه كنّا نتوسّل إليها لكي تهبّ أخيراً وتضرب أشرعة الطوف وتنفخها حين كنّا نبحر أنا وآنج فوق المياه الساكنة الصافية لحوض أركاشون[1]. في ضوء الصباح الصيفيّ الباهر كنّا نرى الدارة التي ورثها آنج عن والديه تضؤل هنالك على الضفّة المشرقة الوادعة التي كنّا نغادرها للتوّ، ومع ذلك كنت أقول في غمرة هذه الغبطة، هل أنا حقّاً هذه المرأة التي لا ألوهة أخرى تتضرّع إليها إلّا النسيم المؤاتي لأشرعة مراكب الترفيه، ولكنْ كيف وصلتُ إلى هنا، وهل هذا أمر صائب وجيّد أم عليّ أن أتأسّف على ذلك وأن أندم لكوني هجرت الديانة الحزينة والساخطة لأبويّ المؤنّبين اللذين كان آنج (بِقبّعته الجميلة البنفسجيّة ذات الواقية الشفّافة والزجاج العاكس لنظّارتيه الشمسيّتين، ورائحته النقيّة السكريّة) يجهل أنّهما كانا يذويان في مسكنهما في أوبيبه، غير عارفين أنّهما ميّتان، غير عارفين أنّني ادّعيت أنّهما تُوفّيا، ولكن لا بدّ أنّهما كانا يشعران أحياناً في عنقيهما، اللذين كانا يتحسّسانهما بِيدٍ متعجّبة، أو في أسفل صدرهما، أو في أحشائهما، بالعضّة الغامضة للأذى، أو ربّما كانا يضمحلّان في عذاب خفيّ يتأكّلهما، وهما يفكّران في سرّهما بأنّ هذا الشرّ يأتيهما من ابنتهما التي رحلت والتي لم تكن

---

(1) أركاشون Arcachon: من بلدات جنوب غرب فرنسا تقع في أقاليم الجيروند.

تزورهما أو تتّصل بهما البتّة، ولا لمرّة واحدة على مدى السنوات الخمس والثلاثين، وعندئذٍ سمعتها تحدّثني دون أن تكفّ عن ذرع الممرّ بساقيها الطويلتين المتخشّبتين الشبيهتين بساقَي الطائر الخوّاض، وكان وجهها المرير المتفجّع تضيئه المصابيح الصغيرة الزرقاء في السقف وأنوار المحطّة، هذا الوجه الشاحب الأسيان الذي كانت تعروه وفق إيقاع مشيتها ظلالٌ مفاجئة كاشفة عن هيكله.

لمتُ نفسي على عدم انتباهي لأقوالها في البداية. ساعيةً عبثاً لأن أتذكّر ما تناهى إلى أذنيّ دون أن أسمعه، دون أن أدرك أنّها كانت تتحدّث إليّ، فقدت خيط ما كانت تقوله لي. عاودت استغراقي في حلم يقظة عزلني عنها، في اللحظة المناسبة، قلت في نفسي، أفَلَم تكن تروّعني ضروب البوح، ألم أكن أمقتها؟ آهِ كان الأمر مختلفاً تماماً في ما يخصّها، هي، تلك المرأة التي أرادت فعلاً أن يخترق الطعام الذي مسّه فمُها الجوفَ القاتم لفمي بالذات. وها أنّني كنت ضائعة مع ذلك وغير قادرة على متابعة أقوالها أو الفهم. سمعت فقط بعض الكلمات المبعثرة: النار، هناك، بقايا... ولم أكن أستطيع أن أصل أيّ كلمة بالأخرى. لكنّي كنت أشعر بثقل التعاسة المحتومة، بذاك الحمل الغامض الذي بات يلقي بثقله عليّ، ويربكني. كم كنت أودّ مع ذلك أن أتّحد بحزنها، وأن أحاول تعزيتها بكلمات مناسبة. ولكن ها إنّ ذاك النفور البارد والقاسي الذي كنت أعرفه جيّداً يجمّد قلبي المستاء، ها إنّني خفيةً كنت مرتاحة لجهلي كلّ شيءٍ عن عذابات هذه المرأة التي كنت أشعر حيالها بامتنانٍ أقوى فعلاً مع ذلك ممّا كانت تشكّله بالنسبة لي راحتي ورَيبتي الصقيعيّة.

ما العمل حيال ذلك؟ كان احتقاري طبعي يجتاحني، وكذلك الارتياع

ممّا كنته، ولم أكن أستطيع الامتناع عن ذلك، لدرجة أنّه من خلال إدراكٍ خاطفٍ شبه كونيّ (أشبه بالشرارة المخادعة لذاك الذكاء الشامل الذي يثيره أحياناً الإفراط في الكحول) أيقنت أخيراً أسباب عذابنا أنا وآنج وتقبّلتها وصدّقت عليها، وكذلك جميع الآخرين الذين كانوا بالطبع يشبهوننا ليس فقط جسديّاً بل في أعماق نفوسهم الأنانيّة.

صمتت المرأة. كان الانفعال ينهكها قليلاً. خفضت بصري؛ كانت تظنّ أنّني صرت أعرفها فهي لم تكن تدرك لأيّ سافلة سلّمت نفسها! ما الذي حصل معها، ما الذي أسرّت لي به؟ كنت أودّ لو أعلم ذلك ببضع كلمات دقيقة وقاسية ولا شخصيّة.

هبط الليل. سألتني المرأة عن اسمي وقلت لها اسمي دون أن أجرؤ على سؤالها عن اسمها، لظنّي ربّما أنّها قالته لي منذ قليل.

تمتمت وهي ترفع ذراعيها لكي تعقد ربطة شعرها:

- أنا أدعى ناتالي.

ثمّ أضافت:

- أظنّ أنّ القطار لن يذهب أبعد، ونحسن صنيعاً إذ ننزل منه، أليس كذلك؟

تركت مقعدي.

ثمّ قلت بصوتٍ يجعله القلق حادّاً شاكياً:

- والآن ماذا علينا أن نفعل للوصول إلى تولون؟

على الرصيف المقفر مرّ مراقب عجوز يرتدي زيّاً أبيض. نزلت ناتالي من المقصورة أمامي واستوقفته لتسأله بإلحاحٍ عن مركز القطار الذاهب إلى تولون.

قال بنبرة البداهة:

- لم يعد هنالك قطارات هذا المساء. يجب الانتظار حتّى الغد.

ثمّ، بعد إلقائه نظرة على وجهَينا المذعورين، بدأ بالركض، وكانت أذيال سترته ترتدّ على مؤخّرته الضخمة، وإذ بدأت ناتالي بالهرولة خلفه وهي تناديه وتطلب منه تعليمات وإيضاحات، زاد في سرعته واختفى عن أنظارنا.

قالت بابتسامتها الصغيرة القاتمة الملتوية:

- لكأنّنا أثرْنا خوفه.

أردت امتحانها فقلت:

- نعم، لماذا؟

قالت بعد فترة صمتٍ:

- لا أعرف، لا أهميّة لذلك.

لوت شفتيها من جديد بطريقة مأساويّة ونظرت إليّ مواجهةً وكأنّها تتحدّاني أن أجعلها تقول أكثر، أو لتهدئتي كمن يبتسم لسيّدة عجوز أو لطفلٍ صغير، ولكن هيهات الهدوء حيال هذه العين المستديرة اللامعة الغارقة في شقاء مستعصٍ والمفعمة أيضاً بالثقة والأناة الثابتتين لظنّها أنّها أخبرتني قصّتها، وهيهات الاطمئنان لذا أشحت بصري عنها تاركةً لنظري أن يهيم في الفراغ. وجدت فجأةً في ملامحها شيئاً ما مقلقاً.

قلت في نفسي، غريب جدّاً هذا التنافر بين استدارة العين ونحول الوجه، بين الحزن والسطوة، بين جمال طلّة الشخص ككلّ وقباحة التفاصيل تقريباً، الأنف الحادّ، الخدّين المهزولين، الشعر الخفيف. وغريب جداً، قلت في نفسي أيضاً، أنّها لم تكن تريد إبعادي عنها بل بدا الأمر وكأنّها

تريد اجتذابي وإبقائي قربها قدر الإمكان. وبدلاً من إلقاء التحية عليّ ومواصلة السير في طريقها، كانت تقول لي بصوتها الجميل القويّ:

- تعالي، سنستأجر سيّارة.

قلت حائرة:

- هل تظنّين أنّها فكرة صائبة؟

قالت:

- إنّها الطريقة الوحيدة لكي ندرك المركب قبل فوات الأوان.

قلت وأنا على شفا البكاء:

- لا أستطيع السماح لنفسي بأن أفوّته.

قالت وهي تحدّق إليّ:

- ولا أنا.

وامتصّ الظلام الكئيب دفعة واحدة كلّ زرقة عينيها. أردت استعادة رباطة جأشي فأمسكت مقبض حقيبتي وكان حقدي على ذاتي يسكرني تقريباً. تبعتها على طول الرصيف دون أن أجرؤ على السير بمحاذاتها. خشية أن أربكها وأن تربطها نظرات عابرة بي بطريقة ظالمة. ولكنّنا لم نكن نلتقي أحداً، لا تزال الساعة الثامنة ومع ذلك بدت المحطّة الكبيرة فارغة.

قلت بنبرة مستاءة:

- على بطاقتي إشارة إلى أنّ القطار سيذهب حتّى تولون.

قالت بعدما صمتت مجدّداً لبعض الوقت ما جعلني أفكّر أنّها تروز كلّ كلمة مخافة أن تؤذيني أو تقلقني أو سعياً لتبديد ارتيابي:

- نعم، هكذا تجري الأمور.

أضفت:

- سأجعلهم يعوّضون عليّ رحلة مرسيليا - تولون.
- لا تفعلي ذلك.
- ولماذا؟
- وما نفع إظهار احتجاجك؟ قالت بنعومة دون أن تتوقّف عن السير. أنت لست في موقع يخوّلك تقديم شكوى. سيلقون اللوم عليك في جميع الأحوال. وسيثبتون لك أنّك أخطأت بطريقة أو بأخرى.
- ولكن أنت ألم تخطئي أيضاً؟ ألم تحسبي أنّك كنت ذاهبة فعلاً حتّى تولون؟

قالت بتحفّظ:

- نعم، نعم. بالنسبة إليّ لم يكن هناك أيّ مشكلة في أن يوصلني القطار حتّى تولون.
- وهل بسببي توقّف في مرسيليا؟

لم تجب. ذهلتُ في البداية ثمّ أحسستُ بالانزعاج حقّاً. دفعني الخوف للاقتراب منها، واقتفاء خطواتها. لم تكن تحمل إلّا حقيبة يدوية كبيرة سوداء معلّقة إلى كتفها.

قلت بما يشبه النعيق:

- كيف يُعقل ألّا أعرف أبداً شيئاً ممّا يجري؟
- ألا تشاهدين التلفزيون؟

قلت بشيء من الحزم هذه المرّة:

- لا، أنا وزوجي نعارض مشاهدة التلفزيون.

لكنّ صورة آنج محتضراً ببطء على سريرنا اخترقت قلبي في الصميم. ما

كدت أتهيّأ للتعبير عن رأيي بخصوص التلفزيون حتّى تجمّدت الكلمات في حلقي.

في القاعة المضاءة بنورٍ شحيح، اتّجهت ناتالي قدُماً إلى مكتب «أوروبكار». كانت هالات ضخمة من العتمة تغرق زوايا القاعة في ريبة صاخبة بشكل مبهم، ومع ذلك لم أكن ألمح أحداً، وفكّرت عندئذٍ أنّ الظلمات لا بدّ أنّها كانت تحتفظ بالأثر الشبحيّ المتحرّك والغضوب للكائنات التي مرّت من هنا طيلة النهار، ثمّ فكّرت أنّها كانت لا تزال هنا وأنّني عاجزة عن رؤيتها، لذا أشحت بصري عنها ووجّهته إلى ظهر ناتالي، عازمة، لأنه كان يجب فعلاً الاختيار، على الاستسلام كليّاً لمبادراتها.

سمعتها تتحدّث بصوت خافت إلى الموظّفة وهي الشخص الوحيد الذي كانت تراه عيناي على أيّة حال في القاعة. مدّت لها بطاقة الائتمان.

قلت:

- سأردّ لك المبلغ.

فأجابت:

- لا تهتمّي، لا بأس.

وشعرت بالارتياح، وفي الوقت نفسه، ببهجةٍ رذيلة.

22- موت بسرعة جنونيّة

وإذا بي، مثل أنقليس في وعاء، قد استفقت من سباتٍ لزج، الشفتان ملتصقتان والعينان ثقيلتان والمثانة ممتلئة إلى حدٍّ لا يطاق.

قلت في غمغمة جشّاء:

- عليّ أن أتبوّل.

كان فكّي منقبضاً بحيث تحسّسته بحذر، وأنا شبه متيقّنة من أنّي كنت أتلمّس تحت أصابعي الدليل الفعليّ على أنّ أحدهم حطّمه بضربة مخيفة. ولكنّي لم أشعر، على فمي، إلّا بالزبد الدبق للنعاس. تناهى إليّ صوت ناتالي وكأنّه آتٍ من مكان بعيد جدّاً، مكتوماً متباطئاً، محارباً الغمام الكثيف الملموس، على ما يبدو لي، لنعاسي، لو كان لديّ القوة لأرفع يدي.

ألم يكن أمراً يدعو للغرابة أن تستعيد كلمات نوجيه نفسها؟ فقد سألت أو قالت شبه مؤكِّدة:

- هل أنت حبلى؟

قلت غاضبة:

- لا.

ولكن من فمي المليء بالجصّ لم يتسرّب إلّا بقبقة أصوات. تنحنحتُ منزعجة.

ثمّ قلت بنبرة غاضبة:

- على العكس، إذا كانت عادتي الشهرية قد انقطعت منذ بعض الوقت فهذا لأنّني في فترة انقطاع الحيض، وأفترض أنّه ليس النساء الحبالى فقط هنّ اللواتي يرغبن في التبوّل، أليس كذلك؟

وعندئذٍ بدأ إحساس بسرعةٍ ملحوظة يجري في عضلاتي المتصلّبة. هل ضربني أحدهم؟ أم خدّرني؟

احتكّت أصابعي بقماش المقعد الخشن الذي جلست عليه وكان لديّ الشعور بأنّ لحم فخديّ كان يفيض منه، وأنّه كان ضيّقاً جدّاً بالنسبة لي. أدرت رأسي بحذرٍ نحو الجهة التي تناهى إليّ منها صوت ناتالي متوانياً.

لم يسبق لي قطّ أن أخذني نوم ثقيل كهذا في أيّ مكان. شقّ عليّ أن أتبيّن في

العتمة جانب وجه ناتالي المسنّن والزوايا المتهدّلة لشفتيها. كانت تمسك مقوداً. آهِ مقود سيارة توينغو، كتلك التي كانت لنا في حقبة ما، أنا وآنج. كان الليل مدلهمّاً، والطريق مقفرة. كانت ناتالي تقود بسرعة كبيرة إلى حدّ أن السيّارة الصغيرة راحت تقفز بانتظام وتحدث صريراً في المنعطفات.

قلت:

- خفّفي السرعة قليلاً.

أجابت بعد بضع ثوانٍ بلهجة جافّة:

- لا أريد أن أفوّت عليّ المركب.

لم أكن أرى شيئاً أمام واجهة السيّارة إلّا ليلاً ساكناً، شاملاً، ولم تكن تخترقه من وقتٍ لآخر ولا حتّى الأنوار العابرة لبيتٍ ما. هل كنّا في الريف، أم عند شاطئ البحر، أم في المنطقة الصناعيّة؟

كانت الطريق في حال يرثى لها وتجعل السيّارة تترنّح. توقّفت ناتالي فجأة بمحاذاة أحد الأسيجة. نزلتُ بسرعة. بلّلت بعض قطرات البول فخذيّ. إنّه لأمر منعش جدّاً إفراغ المثانة على هذا النّحو، وتهوئة الردفين في هذا النسيم الدافئ، لدرجة أنّني، تحت جنح الليل الأسود وسواد كلّ ما يحيط بي من أشياء غير مرئيّة أو غير موجودة، نسيت حرجي أمام ناتالي. بدا لي أنّني أسمع بعيداً في الأسفل بقبقةً، والتصادمَ الخافت للحصى المتدحرجة بنعومة. تمهّلت في قضاء حاجتي. عمّت صدري فرحة هادئة وتمدّدت رئتاي.

حين عاودت الصعود إلى السيّارة، وجدت ناتالي منكفئة إلى أقصى مقعدها ووجهها متّجه ناحية الزجاج كأنما لتثبت لي أنّها رغبت في أن تجنّبني هذا الانزعاج إذا ما تخيّلتها تراني وتسمعني أتبوّل.

قلت بنشاطٍ:

- شكراً.

انطلقَت من جديد. كانت تلهث وتصفر بطريقة غريبة. كان شعرها مشعّثاً يحجب وجنتيها وجبينها. تغيّرت هيئتها. كانت تنبعث منها رائحة قويّة، غير كريهة، ولكنّها لم تكن تذكّرني بشيء. قادت السيّارة بصمتٍ، بسرعةٍ كبيرة، في الظلمة الرتيبة.

ألا يفترض أن تكون هناك قرى، ومواقف، ومخازن كبرى ذات لافتات مضيئة؟

قلت:

- ناتالي.

أدارت ثلاثة أرباع وجهها صوبي فأطلقت صرخة وأغمضت عينيّ. ثمّ فتحتهما من جديد لكي أبقيهما تحدّقان بثبات أمامي.

وجه قاتم ومجرّد من كلّ لحم، رأس جثّة سبق أن تحلّلت وضعت فوقه على سبيل الاستهزاء أو الرغبة في إثارة الرعب باروكة شقراء.

بدأت شفتاي ويداي بالارتجاف. ناتالي ميتة، قلت في نفسي. كيف أنّ هذا كان ممكناً؟ وما حقيقة كلّ ما كنت أراه؟

وانفرج فمها الكبير الذي كان دون شفتين عن أسنان صفراء غير متّسقة جاهزة للاصطكاك بعضها ببعضٍ محدثةً صريراً مضحكاً، ذاك هو السبب في أنّها لم تكن تقول شيئاً، ذاك هو السبب في أنّها لم تعد تستطيع أن تقول شيئاً.

كنت أشدّ خوفاً من أن أجرؤ على النظر إلى اليدين اللتين تمسكان بالمقود.

وعلى مقودٍ مماثلٍ قبضت يدان جبّارتان مكسوّتان بزغب أحمر، يدا آنج الذي بدا حينذاك وكأنّه متجمّع في سيّارة للأطفال، لكنّ اليدين ما عادتا يديه مع أنّ السيّارة مماثلة

ومن اللّون نفسه.

فكّرت: ناتالي ميتة وأنا حيّة ولكنّها مع ذلك هي التي كانت تقود السيارة، وهي ميتة منذ زمن طويل. لم أدرك ذلك لأنّني لم أراقبها بانتباهٍ كافٍ. يا لعاري، يا لرعبي! إلى أين ستقودني والحالة هذه؟ إلى أين بإمكانه فعلاً أن يقودني هذا الشبح الذي أخطأت في اتّخاذه صديقاً؟ اللّهُمّ إلّا إذا كان قُدّر لي أن أكون صديقة الأشباح دون غيرهم؟

23- لم أعد أريد التقرّب منها

لشدّ ما كانت دهشتي كبيرة حين وصلنا أمام اللافتة التي تشير إلى الدخول في مدينة تولون، ما يعني أنّ الغاية من هذه الرحلة المجنونة في بلاد مجهولة قد تحقّقت.

قالت ناتالي:

- سنصل في الوقت المناسب.

وبما أنّ صوتها كان عذباً، واثقاً وبشريّاً، جازفتُ بإلقاء نظرة ناحيتَها. فاستعدت المرأة التي رأيتها في القطار: جانب وجهها المسنّن، عينها الشبيهة بكُرَيّةٍ مغروزة في اللحم، فمها القلق. نظرت إلى يديها ورأيت أصابع رشيقة وطويلة تمسك بالمقود. شعرت بارتياحٍ فائق بحيث بدأت بالضحك.

ثمّ بهرنا ضوء مجنون، وكأنّه مشهد خارق لِخُدَعٍ بصريّة. أوقفت ناتالي السيّارة في موقف الميناء. ورحنا نطرف بأعيننا قبلَ النزول. لم أكن أجرؤ على النظر كثيراً إلى ناتالي لخشيتي من أن أراها وقد تحوّلت مجدّداً إلى مسخٍ مرعب، ولم أكن أعرف لأيّ حدّ كانت مدركة تغيّرات مظهرها، ولم أكن

راغبة في الواقع بأن أحرجها إذا ما عبّرتُ عن نفوري أو عن خوفي. بدا لي ببساطة لا بل استنتجت بحزن ومرارة أنّه سيستحيل عليّ أن أحبّها لأنّها كانت تثير فيّ إحساساً خفيّاً من الرعب الخالص.

خطونا مذعورتَين قليلاً (حتّى هي!) باتّجاه الكتلة البارزة للالتماعات، واجهة مرتفعة من الأضواء الوامضة كانت تنطلق منها موسيقى بازار ناعمة. بعض المسافرين أنهوا دخولهم. أخرجت تذكرتي ولاحظت ناتالي في الحال أنّني كنت مسافرة في الدرجة الأولى.

قالت:

- للأسف سنفترق.

بدت خائبة بصدقٍ.

سألتني:

- هل كلّ شيء سيسير على ما يرام بالنسبة لك؟

أثّرت فيّ هذه المراعاة الفائقة وأخافتني في الوقت نفسه.

لم يعد لديّ ثقة بها. ماذا كانت تريد أن تظهر لي بعد، أيّ حال من أحوالها تأسف هي لعدم إبانتها لي، أيّ من عذابات روحها؟ هل أحسّت أنّني لم أسمع شيئاً من تعاستها؟ هل خمّنت أنّني، بطريقة ما لا تستبعد الخزي، كنت أحسن حالاً في إعراضي عنها؟ هل كانت تريد أن تنتقم منّي من خلال عرض أهوال أخرى أجهلها أشدّ فظاعة لو حالفها الحظّ وتقاسمنا الحجرة نفسها؟

تمتمت بأنّني سأعرف كيف أتدبّر أمري وأنّه لم يعد هناك من سببٍ لحدوث أيّ أمرٍ سيّئ.

همست ناتالي:

- انتبهي في جميع الأحوال، سيكون الأمر في منتهى القسوة والإجحاف

بالنسبة للناس من أمثالك...

سألتها:

- ماذا تقصدين بـ «الناس من أمثالك»؟

هزتّ رأسها ببطء وبابتسامة صغيرة آسفة، إمّا لأنها لم تحمل سؤالي على محمل الجدّ، وإمّا لأنها امتنعت عن السماح لكلمات الجواب باجتياز شفتيها مدّنسةً فمها وجارحةً أذنيّ.

قلت بشيء من التعالي:

- أتعرفين، لا أفهم فعلاً عمّا تتحدّثين.

شعرت فجأة حيالها باندفاعة حقدٍ، فحتّى لو كانت إنسانة طّيبة، لم يكن يفترض بها، قلت في نفسي، أن تتكلّم على هذا النّحو.

ثمّ إنّ التفاوت بين تذكرتينا كان يجبرنا على سلوك خطّين مختلفين لدخول المركب من جانبه الذي بدا وكأنّ قطعة من لحمه البرّاق الزاهي قد بُترت بمقصٍ للخشب أو بأداة أخرى كانت استعملت لجزّ اللحم البشريّ الطريّ لزوجي ونهشه بطريقة لن يستطيع البرء منها أبداً أو فهم وضعه أو فعلته فيتشبّع بفكرة أنه يستحقّ هذا الأذى الذي أُدخل إلى جسده ويؤول به الأمر لأن يتماثل مع هذا الأذى.

24- وأخيراً شيء من الترفيه عن النفس

كان هنالك أوانٍ جميلة تزيّن الطاولة بأكثر من طاقتها على الاستيعاب.

قلت لأحدهم مأخوذة بما كنت أراه:

- ومن يجرؤ على تناول الطعام في أشياء بهذا الجمال!

جلست وسط الأضواء الوافرة والانعكاسات العنبريّة (كانت المرايا

الفسيحة تعكس ذهب البراويز وبلّور الأقداح والفضّي المتموّج للأشواك والملاعق والسكاكين) مقابل القبطان، ذاك الرجل المتجهّم والصارم، الذي، درجاً على تلك العادة التي تقضي بأن يميّز قائد السفينة الميسورين بين ركّابه، كان يدعو إلى طاولته مسافري الدرجة الأولى ويشرّفهم بحضوره.

قلت في نفسي سعيدة، خفيفة، مضطربة قليلاً: آهِ ما أجمل أن نشعر بأنّنا مميّزون، ومنذ كم من الوقت لم أتمتّع بمثل هذا الامتياز؟

ذلك أنّ القبطان كان يراني. كنّا متواجهين وكان يراني ويبتسم لي على الدوام، الابتسامة الشكليّة نفسها التي كان يبادر بها كلّ مدعوّيه، وعندئذٍ بدا لي الأمر، قلت في نفسي، فيما كنت أنفر من المواساة، وكأنّ قواعد أخرى تسود في البحر ولا تتضمّن إطلاقاً تفادي الناس من أمثالي، كما لا تتضمّن ربّما الاهتمام بتلك الرموز التي كانت تتحكّم بحياتنا أنا وآنج منذ سنةٍ في بوردو، أو معرفتها.

ذلك أنّ القبطان كان يراني. لم يكن أحد يشبهني حول الطاولة. ومع ذلك كنت هناك، وكانت الرؤوس الهرمة تنحني لي لدى تلاقي نظراتنا، وبالمقابل كنت أحني رأسي النشوان والمسرور، المندهش والمتحمّس. آلمت وفرة الأنوار عينيّ. أغلقتُهما أحياناً لأريحهما. وحين فتحتهما من جديد، لا شيء تغيّر، لا الفيض الغريب للالتماعات ذات المصادر التي لا تحصى، ولا التهذيب البارد للقبطان حيالي، ولا حتّى مظاهر الاحترام الخفيّة التي كان يبديها جيراني ذوو الوجوه الشاحبة التي يذوب جلدها متهدّلاً مرتجفاً مجعّداً، وكانت تحيّاتهم خفرة تشير إلى أنّنا ننتمي إلى الملّة نفسها.

قلت في نفسي: لديّ المال، كانت الأهمّيّة له هنا، وكان يلغي كلّ ما

عداه. ألم يكن هذا رائعاً؟ ألم يكن بسيطاً وصحيحاً؟ كم كرهت عندئذٍ ناتالي وإشفاقها وفكرتها المعلنة عن «الناس من أمثالك»، كم كنت أجدهم رائعين هؤلاء السيّاح العجّز المحيطين بي والذين لا يحكمون على أيّ شيء آخر سوى الأهميّة المفترضة لموارِدي. فكّرت: لم يكن كياني المفترض مرئيّاً إذن حتماً في كلّ مكان، وها إنّ حجرة مترفة على مُعدِيّة في البحر المتوسّط قادرة على حجبه، وهذا ما كنت أجهله أنا نفسي!

شعرت بالدوار قليلاً. وضع خادمٌ أمامي نصف كركند مشبع بالمايونيز. كان القبطان يمزح، والجميع يضحكون. لم أستطع لجم انفعالي؛ كانت وجنتاي حارّتَين، رطبتَين. تمنّيت أن يكفّ عن كلامه الظريف لكنّه كان مندفعاً ومتلذّذاً بنجاحه. لم يكن أحد ينظر إليّ بشكل خاصّ، لا خطر كان يترصّد بي ههنا.

ومع ذلك فإنّ قلبي كان قلقاً، ذاك الجزء من قلبي الذي لا كان يزال شريفاً، قلبي المتمرّد والذليل ولكن الذي كان مفتقراً إلى الشجاعة، أجل.

كنت أتناول المايونيز، وخلافاً لذاك الذي كان يحضّره نوجيه، وجدته حامزاً ومالحاً مثل مزيجٍ من الدموع والمخاط. مَن حولي كانوا يواصلون ضحكهم وكانت الأجساد تهتزّ بهجة. تابع القبطان نوادره. كان يتحدّث عن كائنات مضحكة ولعينة، غبيّة وفي منتهى البشاعة، وكان الأمر يتعلّق بآنج وبي وبزوجي السابق وبكورينا أيضاً. كان المزاح سخيفاً وكانت السخرية لاذعة. آهٍ لا لم يكن هذا مضحكاً على الإطلاق.

هل عوقب آنج لأنّه تزوّج بي؟ هل وُسِمَ بالعار لأنّه صار يشبهني أخيراً كما حين نتماثل مع الشرّ الذي يتغلغل فينا ولا نعود نتّقيه لا بل نصير نعتبره خيراً؟

لم يكن الأمر مضحكاً على الإطلاق، وددت لو أهتف بذلك وأنا

أطرق الطاولة بسكّيني. راح القبطان يتهكّم ويمرح مقهقهاً ثمّ يطلق نكتة جديدة، وكان الجميع شديدي التنبّه لما يقوله، متحرّقين لهفة لسماعه فوضعوا الأشواك جانباً منصرفين عن تناول الكركند. وكانت الضحكات المستعدّة للانطلاق مجلجلة تتململ في الخدود المتهدّلة وأحياناً تتفلّت قبل الأوان في موجة قرقرات. كان دفق من الدموع ينهمر من عينيّ. ولكنّي كنت هناك، بحماية مالي، مجهولة وسط هذا الفجور من الأضواء؛ كنت هناك، متبرّجة وفق الأصول ومصفّفة شعري بشكلٍ لائق، وبالطبع في غاية البدانة ومتعرّقة قليلاً تحت حرارة الأضواء، ولكن ألم نكن كلّنا كذلك حول تلك الطاولة، في غاية البدانة ومتعرّقين وذابلين؟ كنت هناك وشعرت بلذّة هائلة بالرغم من كلّ شيء، وعندئذٍ سمعتني أضيف فجأة ضحكتي المكرهة إلى فيض الضحكات التي تحيّي نكتة جديدة للقبطان، ثمّ راحت ضحكتي تترسّخ وتأخذ اتّساعاً وتجفّف عينيّ. فاغرة فمي، مستندة إلى الطاولة، ضحكت لدرجة تمزّقت معها حنجرتي.

لمحت ناتالي تمرّ خلف الأبواب الصفّاقة التي كانت تفصلنا عن الصالة العاديّة والتي بقيت مفتوحة بسبب حرارة الجوّ. تردّدت ثمّ توقّفت ثانية متّكئة على ساقٍ واحدة. رأيتها تنظر إلى وجهي الضاحك، وأسناني المقذوفة إلى الأمام. كنت مجمّدة في فورة الفرحة المعتوهة هذه، لم أستطع أن أظهر لها أدنى علامة على معرفتي بها. قلت في نفسي: يا إلهي هل سمعَتِ الدعابة الأخيرة؟

25- ضممتها إليّ

لشدّ ما كانت دهشتي كبيرة حين وجدت مساءً الخادمة جالسة على فراشي، وظهرها متقوّس حزناً، تلك المرأة التي كانت ترتدي زيّاً كحليّاً مزداناً بالأزرار الصغيرة المذهبّة وتهتمّ بتحضير الحجرات للّيل، وتفتح الأسّرة، وتتأكّد من أنّ صالات الحمّام مزوّدة بالصابون والمناشف.

لم تكن هذه المرأة تفعل شيئاً من هذا. كان ألم فظيع يرجّف كتفيها، واستطعت أن أرى تحت قماش سترتها القاتم الخطّ النافر الحادّ لفقرات ظهرها؛ لكأنّ حزنها ونسيانَها ذاتَها كانا من الوطأة بحيث لم تكن تأبه بأن تستعرض من خلال هذه النتوءات العظميّة الحميميّةَ الهشّةَ لشخصها.

قلت:

- حسناً، هدّئي من روعك.

رفعت إليّ وجهاً متغضّناً أسىّ.

قلت منزعجة قليلاً وجزعة:

- هل أستطيع أن أساعدك؟

قالت:

- الأمر لا يتعلّق بي.

قلت:

- ماذا تقصدين؟

كنّا أنا وهذه المرأة متقاربتين سنّاً. جلست قربها على المضجع دون أن أعرف ماذا عليّ أن أفعل.

قالت:

- هناك سيّدة...

والتوى فمها ألماً.

قالت:

- آه، إنّها قصة مرعبة، ولا أستطيع أن أنساها.

سرت ارتعاشة في ظهري حين أدركت من خلال وصف وجيز قامت به أنّها كانت تحدّثني عن ناتالي التي حضّرَتْ لها الحجرة منذ قليل.

قلت:

- كيف كانت؟ هل كانت (كتمتُ شهقة عصبيّة) طبيعيّة؟

قالت المرأة:

- طبيعيّة؟ نعم، بالتأكيد. وهل بإمكاننا أن نكون طبيعيّين حين نتعرّض لشقاء مماثل، ألا تعرفين ما حدث لها؟

قلت بصوت قويّ:

- لا، لا.

هممت حينئذٍ بالنهوض ولكنّ تعباً ردعني، شعور ما في داخلي بالهزيمة والتخلّي، بالندم والإرهاق. خفضت رأسي مرتجفة، كانت رقبتي العارية تتقبّل ضربة الفأس وثقلها الراعب، وأيضاً الاهتزاز الراعب للنهاية المحتومة.

قالت المرأة وهي تفرك يديها فوق فخذيها المشدودتين:

- زوجها وطفلاها، وقد أرتني إيّاهم في الصورة، عائلة جميلة كما ترين: صبيّ وبنت، وزوجها المبتسم. اصطحب الأب ولديه هناك إلى منزل كانا قد استأجراه لقضاء العطلة، وهي لم تكن برفقتهما لأنّها كانت تعمل وكان عليها أن توافيهم لاحقاً. واشتعلت النار في المنزل في عزّ الليل والصبيّ الصغير احترق لكنّه استطاع الهرب، وعندئذٍ أراد الزوج الذهاب لإحضار الفتاة الصغيرة من غرفتها.

كان الأوان قد فات فاحترقا كلاهما، الأب والطفلة، هل بإمكانك تخيّل هذا؟ احترقا حتّى الموت، أتدركين معنى ذلك؟ الصبيّ في المستشفى وحروقه من الدرجة الثالثة، ولهذا السبب تذهب إلى هناك، لتعوده. كانوا أربعة والآن لم يعد هناك إلّاهما، الصغير الذي يتألّم بشكل مرعب تحت ضماداته وهي، الأمّ، الوحيدة تماماً. أخبرتني ذلك دون أن تبكي، ولا أعرف لماذا أنا التي بكيت... لا أعرف لماذا...

رأيتني مضطرّة لأن أتمتم إزاء هذه المصيبة التي جعلت وجهي كلّه متجمّداً، وفكّي متصلّباً:

- سيكون الأمر على ما يرام...

كان صوتي أجشّ، خافتاً. ألقت المرأة رأسها على صدري، والحزن يمضّها. استطعت أن أرى عند جذور شعرها الرماديّ المصبوغ بالأحمر، الجلد الفاتح جدّاً الضارب إلى الزرقة والمتجلّد لجمجمتها. استطعت أن أرى يدي بالذات مرتعشة تملّس برعونةٍ هذا الشعر المزدوج اللون، وتمسّد بطريقة أشدّ رعونة هذه الجمجمة المجلوّة، اللامعة، الباردة مثل حجر جميل مصقول. كانت المرأة تنتحب بصوت خافت لا ضيم فيه. قلت في نفسي لا بدّ أنّها كانت تسمع الخفقان المتسارع لقلبي الغارق في ندمه وبلبلته، تسمعه... وماذا تراها كانت تفكّر؟

تأرجح المركب مضفياً إيقاعاً منتظماً على يدي التي باتت تربّت على الصدغين الرطبين لهذا الوجه المجهول. إنّها المرّة الأولى منذ زمن طويل التي كنت أضمّ فيها أحدهم بودٍّ ودون أن يخالط ذلك شعور بالقرف كما كانت الحال مع آنج الجريح.

ألم يكن أبي وأمّي هما آخر من عانقتهما يوم غادرت أوبييه، بكلّ التعاطف الذي كانت تثيره فيّ معرفتي أنّني لن أعود أبداً إلى تلك الأمكنة، وأيضاً جهلهما لذلك بحيث إنّني منذ ذلك الحين بدأت بخداعهما والتفكير في أنّني لن أزورهما أبداً، وأنّهما لن يجرؤا من ناحيتهما، بوجهيهما الحائرين وكلامهما المتعثّر والمتقطّع، على أن يأتيا ناحية المدينة سعياً لرؤيتي، وهذا ما أشعرني حيالهما بألم لا متناهٍ؟

26- فات الأوان

بادئ الأمر فتح لي شيخ بسروال النوم الباب، ثمّ اعتذرتُ وقرعتُ الباب المجاور فأجابني شابّ، وهكذا كانت الحال على طول الرواق التابع لمسافري الدرجة الثانية، وكان الأمر غريباً فعلاً، لأنّ ناتالي يفترض بها أن تكون هنا، في إحدى هذه الحجرات.

كنت أوّد أن أقول لها إنّي بتّ أعرف شقاءها وإنّي أرثي لحالها. بدا لي أنّه كان يستحيل عليّ مقاومة أن أقول لها تعاطفي. كانت هذه الضرورة اللهفى وهذه الحاجة المضطرمة والجامحة لأن أرى على الفور تلك التي أهنتها بصمتي ولا مبالاتي الظاهريّة، تجعلانني أقفز من جهة لأخرى في الرواق حتّى بعد أن بدا لي أنّ ناتالي لم تكن هناك.

قلت في نفسي، كيف أمكنها أن تظلّ لطيفة وخدوماً، كيف أمكنها أن تحتمل رؤيتي باردة أمام قصّتها وتستمرّ مع ذلك بمساعدتي ودعمها الفعّال والعمليّ لي طوعاً؟ أبداً، أنا لن أقدر على... هل ربّما كانت تظنّ أنّه لا يتوجّب عليها توقّع أيّ شيء من امرأة من صنفي؟ هل كان موقفي العديم الإحساس والمهين يتماثل ببساطة مع فكرتها عن ردود الفعل

المعهودة لهذا الصنف من الأشخاص الذين يحلو لها من جهة أخرى أن تحميهم لأنّها طيّبة ومتسامحة؟ لا يهمّ، إلّا أنّه لم يكن مقبولاً ولا جائزاً أن تقبع في زاوية من هذا المركب، نائمة كانت أم مستيقظة، في جهلها ما يتوجّب عليّ إعلامها به وإظهاره لها؛ لم يكن جائزاً أن تعيش وتتنفّس هنا في مكان قريب مع الجرح الذي كانت تتسبّب به هذه الأذيّة التي لا تغتفر...

تذكّرت الكلمات القليلة التي كنت قد احتفظت بها حين تحدّثت إليّ في القطار، تذكّرت النار والطفلَين. تمتمت بصوتٍ شبه مسموعٍ وأنا أتعثّر على السجّادة المزدانة بالأزهار في الرواق: يا إلهي! يا إلهي! أينَ هي وأيّ هيئة كانت تتّخذ في تلك اللحظة؟ لم أرها... أو ربّما لم أعرفها؟

لمحت عندئذٍ في آخر الرواق الخادمة تنزل الدرج الذي يوصل إلى ما بين الجسرَين، تلك التي بلّل الدمع خدّها وألقت رأسها على صدري منذ قليل. ناديتها وهرعت إلى الدرج. وبنبرة محمومة سألتها عن رقم حجرة ناتالي. وحين أجابتني بأنّ رقمها 150، لم أجرؤ على معارضتها مع أنّني لم أعد أعرف تحديداً من فتح لي باب الحجرة رقم 150، لكنّي كنت متأكّدة من أنّها لم تكن ناتالي. فهل كانت برفقة أحدهم؟

من جديدٍ اقتربت من هذا الباب وقرعته بقوّة. لم يجب أحد، أحقّاً؟ بدا لي أنّني سمعت شيئاً ما وكأنّه احتكاك، أو حفيف، وأنّ أحدهم يسعى جاهداً إلى إخفاء وجوده دون أن يقدر تماماً على ذلك. عاودت القرع ثمّ همست:

- ناتالي!

ثمّ ألصقتُ أذني بدرفة الباب وسمعتُ عندئذٍ الصدى الخافت لأذنٍ

ملتصقة بالجهة الأخرى من الباب بمحاذاتي تماماً، وسمعت ما بدا لي تأوّهاً ونحيباً خافتاً وبكاءً يتمالكه صاحبه بصعوبة، ولكن، ربّما كان صوت ريح الليل، قلت في نفسي، دون أن أصدّق ظنّي، مثلما كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنّ الريح نفسها كانت تناديني وأنّه كان صفيرها ذاك الذي كنت أسمعه حين، منذ زمن غابرٍ، كان الهاتف يرنّ ولم يكن أحد في الجهة الأخرى من السّماعة، لم يكن هناك صوت بل تنفّس مكتوم، أليم، خجل، هَلِع، مرتعش انزعاجاً وحزناً، وكنت أجيبه بالصمت أو ببضع جملٍ ساخرة تهدف إلى الإيحاء بأنّني لم أكن أجهل من كان المتكلّم العاجز في الواقع عن مخاطبتي لكنّه غير قادر مع ذلك على مقاومة رغبته في سماعي، ولو بشكلٍ خاطفٍ، وأن المتكلّم لم يكن الريح بل لهاث أبي أو أمي أو ربّما كلاهما معاً، وكم كنت أراهما بوضوح متشبّثين بالسمّاعة، وكلّ واحد يرمق الآخر بنظرات تزداد يأساً لكي يشجّعه على التلفّظ بكلمة لم تكن تأتي، بل كانت تضيع وتفنى ما إن تولد في هذا النفس اللاهث، البائس الذي كان يزداد وهناً، ولكن لا بدّ أنّها كانت ريح الليل، قلت في نفسي، وأنا أنفصل عن الباب الذي لن تفتحه ناتالي لأنّها لا تريد أن تظهر عليّ في هذا المساء. عدت إلى الطابق حيث كنت بخطوات بطيئة متثاقلة، وبي شعور أنّني تعاميت عن الجميع منذ الأزل وعن كلّ موقف قُدِّرَ لي أن أحياه.

27- إنّه هو إذن، إنّه ابني

كنت أسعى لأن ألمح ناتالي بين جموع الركّاب، وأترصّد مرآها من أعلى سلّم السفينة تحت الشمس التي لا تزال معتكرة شاحبة، ولكنّ وهجها كان محسوساً، وهواء الصباح الباكر كان يرتعش كلّه بحرٍّ جهنميٍّ متوعّد. وفيما كنت أذوب شوقاً للقاء ابني، كنت أتمنّى أيضاً أن يتأخّر أو ينسى

أو يغفل عن المجيء لاصطحابي من المرفأ، لأنّ رغبتي كانت عارمة أيضاً في رؤية ناتالي مجدّداً.

كم وددت أن تكون هي من يصحبني حتّى منزل ابني في سيّارة مستأجرة حيث لن أشعر بالخوف ثانية من رؤية وجهها يتغيّر ولا بالخوف من أيّ شيء يصدر عنها. ولكن أين يمكنني أن أكفّر عن ذنبي كما يجب وأسألها في الوقت نفسه من تظنّ أنّني أكون، أو ماذا تعرف عمّا أكون؟ ثمّ سأتوسّل إليها أن تغفر لي، أنا التي تماديت في صمّ أذنيّ عن حديثها، وسأعِدها بأن أكون أفضل ممّا كنته.

ولكن ربّما كانت ستقول بابتسامة عريضة ساحرة: لا أحد ينتظر منك أيّ تصرّف إنسانيّ كان.

لا، أبداً لن تقول شيئاً مماثلاً لكنّها ستقول على الأرجح:

- اذهبي لرؤية أبويك المسكينين في أوبييه، واثبتي فعلاً اللطف الجديد الذي تدّعينه على هذا النّحو، قومي بالزيارة التي يستحقّها هذان الشخصان اللذان لم يتسبّبا لك بأيّ أذى.

وسأقول بصوتٍ حادّ:

- لم يتسبّبوا بأيّ أذى، أجل... ولكن هل من أذى أشدّ إيلاماً من رغبتهما في إبقائي داخل إطار حياة تافهة مسوّرة بِحيٍّ مغلق وبطقوسٍ صارمة ومحاذير غريبة ومتعنّتة حيال كلّ ما لم يكن نابعاً من عاداتنا؟ الموت ولا رؤية تلك الوجوه التي ربّما بات وجهي يشبهها قليلاً الآن وقد تقدّمت في السنّ، الموت ولا الشعور بالشفقة المحتومة تعتمل في داخلي ممزوجة بالندم والحنين إزاء الشيخوخة المهجورة والمنبوذة... ألا يبدو على كلّ العجائز الذين درجوا على التكتّم والتواضع تلك الهيئة الحائرة

أو المتوسّلة التي من شأنها أن تدمي القلب حتّى إذا لم يتصرّفوا بطريقة يستحقّون معها رأفتك؟

لكنَّ تدفق الركاب كان يسير ببطء وناتالي لم تكن بينهم.

شبه يائسة، نزلت سلّم السفينة بدوري. شعرت بالحرّ في ملابسي السوداء، وكانت جمجمتي تنكزني وتحكّني.

منذ وصول المركب، كانت بضع دقائق كافية لكي يخلي شحوب السماء الكامد المكان لانبثاق أثير فجّ الزرقة لدرجة أنّ بلاط الرصيف والوجوه والواجهات البيضاء والصفراء، فيما وراء المرفأ، بدت متشبّعة بالزرقة كما لو أنّ كلّ مساحة كان محكوماً عليها بأن تمتصّ مثل هذه الحيويّة.

هل لأنّ عينيّ كانتا تؤلمانني أيضاً؟ في أسفل السلّم، اصطدمت برجلٍ بعنفٍ وارتطم رأسي بكتفه فطارت نظّارتاي لتسقطا أرضاً. أطلق صرخة ألم خافتة لأنّ أسناني ارتطمت بصدره. صرخت به:

- حذارِ أن تمشي على نظّارتيّ!

انحنيت لألتقطها وحين كنت أنهض انتقل نظري من قدمَي الرجل المنتعلتين خفّاً رياضيّاً أبيض، إلى ساقيه الطويلتين الملساوين اللتين لوّحتهما الشمس، والممعنتين في رشاقتهما، وسرواله القصير الكاكيّ الفضفاض ومن تحته كانت تسهل رؤية لباسٍ مخطّط بالزهريّ والأبيض، لا بل كان يبدو لي، وأمام اضطرابي الكبير، أنّني أرى شعر العانة الناعم القاتم واللامع (وأظنّ أنّني شممتُ حينها رائحة نظافة حميمة دافئة معطّرة بالصابون)، وعادت إليَّ، حين كنت أقفل إلى شقّة فوندوديج بعد العمل، الذكرى الغابرة لابني وهو يقفز عليّ وكأنّه قرد صغير قلق، وتحديداً ذكرى ساقيه الصغيرتين النحيفتين والصلبتين تتشبّثان بخاصرتيّ وتلتفّان

عند حقويّ بقوّة، وكان يتوجّب عليّ آنئذٍ أن أصرخ به غاضبة لكي يرخي شِباكه ويقفز أرضاً، كانت الذكرى القاسية في وضوحها لتلك الأطراف الدافئة القويّة النحيفة جدّاً مع ذلك، تتركني مذهولة، مرتجفة. آهٍ، كنت أعرف ساقَي الرجل هاتين أمامي... لقد صنعتُهما.

ارتديت بيدٍ نظّارتيّ كيفما اتّفق، وباليد الأخرى لمست فخذ ابني فتراجع قافزاً إلى الخلف.

قلت وقد وقفت منتصبة تماماً:

- رالف، هذه أنا.

ولكن أشعرني جمال ابني حينئذٍ بغصّة في حلقي. كدت أختنق ووضعت يدي على صدري. كان شاباً فاتناً ولكنّ سحره كان مائعاً قليلاً ومشوّشاً، وشبه خرِع. وها إنّ هذا الفتى ذا المفاتن المبعثرة، والمزايا المفترضة دوماً والمتحقّقة نادراً، قد تحوّل إلى نموذج يُحتذى للرجل الفاتن. بدا أجمل بكثير ممّا كانه والده، زوجي السابق، وكانت لديه تلك الوسامة التي ربّما كانت ستثير سخريتنا أنا وآنج فيما مضى، أعرف، لأنّها كانت مقرونة تلقائياً لدينا بشكلٍ من الغباء، ولكن، إمّا لأنّه ابني، وإمّا لأنّ التأثير المستهزئ لآنج خفّ مع ابتعادي عنه، فإنّ الجمال الحاليّ لرالف كان يصعقني، ويخيفني، لا بل يوجعني، وبعمقٍ.

تفحّصني مقطّباً حاجبيه. نزع نظّارتيه الشمسيّتين لكي يمعن النظر إليّ بدقّة أكبر. ابتسامته المفاجَأة المضطربة أبانت عن أسنانه.

- أمّي؟ أهذه أنت حقّاً؟

قلت بخفّة مزيّفة:

- ألم تعرفني؟

لم يستطع ردع نظراته عن أن تجول بسرعة شخصي كلّه، وكأنّما كان يحاول أن يجد جزءاً فيّ يؤكّد له أنّني فعلاً أمّه حسبما يتذكّرها. مرّ زمن طويل، طويل جدّاً ولم نلتقِ. أمّا أنا فكنت أنظر إليه، دون أن أخفي إعجابي، ولا لدغة الألم هذه التي كنت أشعر بأنّها تضفي على فمي إيماءة بغيضة.

تقدّمت بطريقة خرقاء قليلاً لكي أعانقه فقام بخطوة إلى الأمام، خطوة صغيرة حذرة، وحنى رأسه لكي يدعني ألمس خدّه بشفتيّ، دون أن يلمسني أو يستجيب لقبلتي. بالطبع كان هذا الرجل الذي صادف أن كان ابني ذا كمال جسديّ مقلق، ومع ذلك...

اجتاحني ضيق مبهم، دبق، رهيف، خفيّ، كما لو أنّني باقترابي من ابني انزلقت داخل شبكة عنكبوت هائلة.

قلت في نفسي: أيّ شيء بدا مقلقاً في مظهره؟

كنّا وحدنا على الرصيف. أرغمني انعكاس الشمس على البلاط الأبيض أن أغمض عينيّ تقريباً، وشعرت أنّ جسدي يضطرب إزاء الاعتداء العنيف الملحّ لهذه الحرارة الثقيلة. أصبح نفَسي متقطّعاً.

ما الذي كان يقلقني في هيئة ابني؟

قال بصوت فظّ:

- كم سمنتِ.

حسناً... وهل هذا يزعجك؟

قال:

- بصفتي طبيباً، نعم.

قلت:

- وبصفتك ابني رالف؟

قال مطلقاً ضحكة صغيرة مفعمة بالإحراج:

- قليلاً أيضاً.

قلت:

- لأنّني بلغت سنّ انقطاع الحيض. لكنّ هناك من لا يصدّقونني ويريدون التصوّر أنّني حبلى، هذا مضحك.

قال ابني:

- يسهل التحقّق من الأمر.

أشاح بنظره، محتاراً على الأرجح إزاء المنحى الحميم الذي اتّخذه حديثنا.

كان يرتدي قميصاً قصير الأكمام من الكتّان الأبيض الملتصق بجسمه بغرابة والذي كان يبرز جذعه العريض المسطّح لدرجة أنّ الأزرار المعدنيّة الصغيرة بدت وكأنّها ستنفكّ. كلّ ذلك، القامة النحيلة المفتولة العضلات، الخصر الضامر، الوجه الجافّ الأجوف، الشعر الأسود المجعّد الغزير، العينان البنيّتان المطوّقتان برموشٍ طويلة كثيفة... كلّ ذلك كنت أذكره وأعرفه. ولكن الباقي؟ ذاك الذي لم أكن أتوصّل إلى تحديده بدقّة، ولا أستطيع أن أسمّيه بعد ويجد مصدره الغريب في نظرة ابني، ما الذي كان إذن؟ كان ابني رالف ولم يكن هو في الوقت نفسه، كان ابناً حُبِيَ بعينَي شخصٍ آخر. وهذا الآخر كان رجلاً متحمّساً ببرودة، تحرّكه حميّة جافّة، ويحدوه شغف لا يمكن التواصل معه وفائضه لا يتسرّب إلّا من خلال نظرته المتعنّتة بشكل خفيّ وقاطع مع ذلك.

آه، كان الأمر مؤلماً لأنّ ما كان يميّز شخصية ابني إلى حدّ أنّه كان

يزعجني غالباً لديه، ألم يكن عكس ما يبدو لي اليوم، ألم يكن بالأحرى تلك السخرية الدائمة والبغيضة تجاه كلّ شيء دون تمييز، وتلك المسافة المستهزئة والمستخفّة التي كان يتّخذها جذريّاً إزاء كلّ حدثٍ؟ هكذا كنت أتذكّر ذاك التعبير النائي والساخر بإبهام لوجهه حين أعلمني أنّه كان يفترق عن لانتون، تلك الطريقة بالنظر إليّ مسارعاً إلى تلقّف أوّل علامة انزعاج قد أُظهرها لدى إعلانه هذا الخبر (لأنّني كنت أحبّ لانتون كثيراً، أجل، كنت أحبّه كثيراً) فيتسنّى له التهكّم عليها بلؤم كما لو أنّه كان أمراً مستهجناً ومشبوهاً وغير مرموق أو جدير بالامتنانً أن تحبّ أمٌّ عشيقَ ابنها أكثر من الابن نفسه.

في عينَي ذاك الرجل، المنتصب أمامي على ساقيه الحليقتين، والذي كان يهب بإقدامٍ وجهه للشمس المرعبة، ما من شيء تهكّميّ، بل قساوة متصلّبة، لا بل ما يقرب من الفظاظة.

فتحت حقيبتي وأخرجت منها رسالة لانتون.

قلت:

- مهلاً، قبل أن أنسى، هذه من لانتون.

أمسكها دون ارتعاشة. جعل من الرسالة كرة، نظر من حوله وكأنّه كان يفتش عن سلّة قمامة. وبما أنّه لم يرَ على الأرجح واحدة، دسّ الرسالة المدعوكة في جيب سرواله القصير.

قلت بلهجةٍ قلقة:

- عليك أن تجيبه وإلّا فسيظنّ أنّني لم أسلّمك إيّاها.

قال ابني:

- لا أهميّة لذلك إطلاقاً.

قلت متمتمة:

- ولكنّه إذا ظنّ أنّني لم أطعه فسيصبّ انتقامه على آنج.

قال ابني:

- لا تصدّقي كلّ ما يقوله لك.

وكانت نبرته قاطعة وأرادت أن تفهمني أنّ الموضوع أُقفل.

رفع حقيبتي. وفي هذه اللحظة بدأ فمه في الارتجاف. وغمغم قائلاً:

- ماما... آه...

ثمّ ما لبث أن تماسك. زمّ شفتيه وأدار لي ظهره حاملاً حقيبتي وبدأ في السير باتّجاه موقف السّيارات. تذكّرته حين كان يتقدّم متخشّباً دون أيّ مهابة، حين كان، هو ابني، يُجرجر خفّه الرياضيّ رافعاً قدميه بمشقّة، محنيّ الظهر، مرتخيَ العنق، على أرصفة بوردو حيث كان سأمه يدفعه لأن يهيم على وجهه في مسيرات طويلة. كم صار مستقيماً وصلباً! كم أنّ هذه البلاد القاحلة قسّت عوده!

تبعته وأنا أشعر بحرارة الرصيف الحارقة تخترق نعل جزمتي.

تقدّم صوبنا رجل طويل القامة وذكّرني وجهه بشيء ما. كان يعتمر قبّعة أميركيّة ذات واقية شفّافة. تجاوز ابني دون أن ينظر إليه لكنّه توقّف ما إن أصبح بمحاذاتي. كان ظلّ الواقية الخفيف يضفي على جبينه وخدّيه انعكاساً ليلكيّاً. تابعت سيري لكنّه قام بقفزة جعلته أمامي بالضبط، ما أوجبني أن أتوقّف بدوري. جعلني الجزع أترنّح بكليّتي. ناديت بصوت خافتٍ ثاقبٍ:

- رالف!

ضحك الرجل ضحكة حاقدة، شعرت أنّه كان يتوجّب عليّ أن أعرف

من هو، وأنّه كان يفترض بي أن أعرفه وأنّني قادرة على ذلك لو لم أكن جبانة.

- رالف!

ولكنّ ابني أصبح بعيداً ولم يسمعني.

رالف!

ألم يكن هناك غضب في صوتي، أشبه بذاك الغضب المبهر، المسكر، المتغذّي من طاقته بالذات، والذي كان يستحوذ على كلّ كياني ويتركني، بعدئذٍ، مضطربة، حين كان ابني فيما مضى يرتمي بين ذراعيّ ويتأخّر في تحرير ساقيه الصغيرتين المشبوكتين بقوّة في ظهري، ذاك الغضب الذي كان يجعلني غير واعية لقوّتي ومسرفة في ردّة فعلي، لأنّه كان يحدث لي أن أدفع ابني بتلك الفظاظة التي كانت تجعله ينقلب ساقطاً في مدخل الشقّة. وحدث ذات يوم أن ارتطمت جمجمته بالأرضيّة بخطورةٍ مقلقةٍ، لا بدّ أنّ هذا حدث علَى هذا النحو مرّة على الأقلّ، ما لجم على الفور غضبي الجنونيّ، وجعلني أرتمي قربه أعانقه وأهدهده، تعيسة، راجية في داخلي أن ينسى هذا المشهد، وألّا يذكره أمام أحد، وألّا يحتفظ أبداً عن أمّه بهذه الذكرى الغريبة.

بصق الرجل عند قدميّ، بصقةً جافّة واهية. ثمّ قذف كلمة لم أفهمها، وسمعت فقط نهايتها: «...ئنة». أطلقتُ صرخة رعب. التفّ الرجل حولي ثمّ ابتعد مسرعاً قافزاً من فوق الحاجز الذي يمنع الوصول إلى المراكب، إلى أن اختفى خلف إحدى الحاويات.

28- هذا بالضبط ما كانوا يكرهونه ويجدونه معيباً

حين وافيت ابني بالقرب من سيارته، شعرته نافد الصبر، شبه غاضب. لم أقل له شيئاً عن لقائي بالرجل وعمّا جرى لي. أشار إليّ بأن أصعد في المقعد الخلفيّ من السيّارة.

كانت سيّارة ابني في منتهى الفخامة: بيضاء، ضخمة، وبدت لي جديدة. لم أستطع إلّا أن أرمقها بنظرة سريعة لأنّها كانت تتلألأ مبهرة في الشمس. فتحت الباب الثقيل جدّاً، الضخم، وتركت نفسي أتهاوى، لا بل أتنفّس الصعداء، على المقعد المنخفض واللدن من الجلد الأسود.

ما الذي لم نقله أنا وآنج عن الذين يشترون سيّارات ضخمة، بأيّ احتقار وحشيّ وبأيّ عدائيّة جامحة كنّا نكيل لهم الشتائم، نحن الذين كنّا ندسّ بفخرٍ واعتزازٍ جسدينا العريضين في المساحة الضيّقة لسيّارة التوينغو، راضين لمعرفتنا أنّ إمكانيّاتنا تسمح لنا بشراء هذه البرلينيّة[1] أو تلك التي كانت تتسنّى لنا رؤيتها في الملصقات الإعلانيّة في شارع فيكتور هوغو (وهناك فقط لأنّنا لم نكن نشاهد التلفزيون قطّ) المتغنيّة بمزايا قوّتها والراحة التي توفّرها، وكنّا ننظر إلى السعر ونتعجّب من الناس الذين قد تدفعهم بلاهتهم المخيفة إلى إنفاق مثل هذا المبلغ على سلعة كهذة، وكان يثيرنا أن نعرف ذلك، وأن نعرف أنّ الآخرين يعرفون أنّنا قادرون بسهولة نحن أيضاً على أن نشتري، لو أردنا، هذه الروعة البلهاء، هذه الأبّهة السافرة لنتوّج بها نجاحنا الهانئ.

وها إنّ ابني بالذات، قلت في نفسي وبي استياء مريع، يشعر بالحاجة لأن يختال في مثل هذا النوع من المركبات الفاجرة.

وذانَك العجوزان في أوبييه، اللذان شاءت الظروف أن يكونا والديّ، كم كانا يهرعان إلى النافذة حين ينبئهما سمعهما المتمرّس بوصول سيّارة فخمة إلى موقف

(1) سيّارة كبيرة مقفلة ذات أربعة مقاعد صنعت أصلاً في برلين.

السيّارات أمام المبنى! كم كانا يفرحان بمرآها إذ كان يصلهما رذاذ من شرارات هذا المجد، لكأنّهما كانا ينالان شرفاً لسكنهما حيث كانت مثل هذه السيّارة تتفضّل بأن ترتكن لعشر دقائق، ولم يكن ينتابهما أيّ شعور بالغيرة أو الحسد على الإطلاق، إذ كانا أشدّ خضوعاً من أن يشعرا بذلك. آه لو كان بإمكاني أن أمنع نفسي عن التفكير بذلك مجدّداً، لو كان بإمكاني أن أقذفهما خارج ذاكرتي!

قالت بصوت خفيض، متناغم:

- مسرورة بأن نتعارف.

جالسة في المقعد الأماميّ، مدّت لي يدها في الفسحة بين المقاعد.

قال رالف باختصار:

- ماما، هذه ويلما.

مددت يداً مرتجفة. صافحَتها دون أن تشدّ عليها، وارتعشتُ لملامستي بشرة ناعمة دافئة. قلت في نفسي: لا بدّ أنّها شعرت لدى ملامستها يدي الصغيرة الجافّة والممتلئة والمذعورة بأنّها تلامس جلد سحليّة.

سألتني:

- هل كانت رحلتك مريحة؟

لكنّها استدارت في الحال، غير مبالية بالجواب وبمسألة أنّني سأجيب. لذا بقيت صامتة، وأنا أشعر، وسط عجزي وأساي، أشعر بقدراتي على التفكير والحكم وإضفاء صفة النسبيّة على كلّ شيء تغمرها هذه الموجة الآتية من عمق الإعجاب اللامشروط والولاء الأليم الذي تركني بسلام لمدّة طويلة حين كنت محميّة برباطة جأش آنج الذي لم يكن يرغمه شيء أو أحد على عبادته.

كنت جسداً أعزل، قابلاً للانهزام، جديراً بالشفقة، منتزعاً من صدفته

أو من ترسه، وفي غاية العريّ.

لا عمل لديّ، كنت وحيدة. لا شيء عاد بإمكانه إنقاذي من الشعور بحقارتي. وكان كافياً، كما كانت الحال فيما مضى حين كنت شابّة وعزلاء، وكنت ألتقي، مثلاً، بغلاديس أو بريسيلا ابنتَي آنج، أو بصنفٍ معيّن من أمّهات التلاميذ الشامخات والشهوانيّات، والمليئات بالغطرسة والبراءة في الوقت نفسه، كان كافياً أنّ ويلما المجهولة هذه، والتي لا يوجد سبب شرعيّ، على حدّ علمي، لأن تكون هنا قرب ابني، وكأنّها زوجته، أن تستدير نحوي بشيء من التعجرف اللاإراديّ، وتعرض لي ثلاثة أرباع وجهها المسمرّ الجميل المملّس بمسحوقِ تجميلٍ[1] يميل إلى البرتقاليّ ولا يمكن تمييزه إلّا لتباينه مع بشرة العنق الكامدة والفاتحة، أجل، كان كافياً أنّ هذه المرأة الغريبة وصاحبة الأناقة التقليديّة والملفتة، والتي هي في سنّ أقرب إليَّ منها إلى ابني، أن تظهر فجأة، وكأنّها انصهارُ كلّ الكائنات اللامرئيّة والسامية في شخص مرئيّ، لكي أتخلّى عن مصارعة السلطة التي كنت أعيرها إيّاها، وأتخلّى عن حريّة فكرٍ واستقلاليّةٍ كنت أعتقدني متمسّكة بهما أكثر من أيّ شيء آخر.

آه، أيّ وهنٍ كنت أحسّه داخلي، أيّ ضعفٍ، قلت في نفسي، أيّ امرأة كانت ويلما هذه وأيّ علاقات كان عليّ أن أنميّ معها؟ هل كان يتوجّب عليّ مطالبتها، بصفتي والدة رالف، باحترامٍ خاصّ؟

وفيما كان ابني يشغّل محرّك سيّارته، تزحزحت قليلاً عن مكاني على المقعد لأرى بشكل أفضل ملامح جانب وجهها. كان المكيّف يهدر وبدأ الجوّ يبرد تقريباً.

---

(1) في الاصل كريم أساس fond de teint، وهو مسحوق تجميليّ موحّد للون البشرة.

ما الذي لم نقله أنا وآنج عن السيّارات المكيّفة وعن هؤلاء الذين يمتلكونها، ما الذي لم نقله عن القليل الذي انكشف لي سابقاً عن حياة ابني...

كان شعرها الكستنائيّ الفاتح قريباً من لون جلدها، وكان شعرها أملس، لامعاً ينسدل بعناية على كتفيها. كان زغب خفيف قاتم يغطّي أعلى وجنتيها. وكانت عيناها سوداوين كعينَي ابني ويزيد من حجمهما الكحل ومظلّل الرموش.

بغية الذهاب إلى المرفأ واصطحاب حماتها في الصباح الباكر، تبرّجت هذه المرأة بشكل كامل. كانت شفتاها المكتنزتان والعريضتان مصبوغتيَن بأحمرِ شفاهٍ متوهّج. كانت ترتدي ما يشبه بذلة، والسروال من الكتّان الأسمر.

سعلتُ سعالاً خفيفاً ثمّ سألتُ:

- أين ياسمين؟

قام ابني بالتفافة ماهرة للخروج من موقف السيّارات وموافاة الطريق الرئيسيّة المغبرة. رأيته يقطّب حاجبيه. أمّا المرأة، فابتسمت بطريقة مبهمة.

قال ابني بعدائيّة محتواة:

- ولكن ماذا دهاكِ؟

قلت:

- أسألك عن ياسمين زوجتك.

شعرت بنَفَسٍ حارّ، وبلهاثٍ ثقيل يلفح أذنيّ، وبوبرٍ يدغدغ رقبتي. أدرت رأسي بسرعة فوجدت شدقَ كلبٍ ضخمٍ بمحاذاة وجهي، وبدا وكأنه يهدّدني، إن أنا تكلّمت أكثر، بأن يمزّقني إرباً. كان الكلب مضطجعاً بالطبع في صندوق السيّارة؛ هل امتثل الكلب لأمرٍ صامت من ابني فانبثق

في اللحظة نفسها التي طرحت فيها سؤالي؟

التصقت بالنافذة مبتعدة قدر الإمكان عن هذه البهيمة المرعبة.

قلت وأنا ألهث قليلاً:

- لم أكن أعلم أنّك تحبّ الكلاب.

قال ابني:

- إنّه كلب من بوردو.

قالت ويلما:

- يدعى أرنو.

قلت باستهزاء خفيّ:

- آهٍ، حقّاً أرنو...

يا للفظاعة، كنّا نفكّر أنا وآنج، يا لفظاعةِ أن يصطحب هؤلاء البورجوازيّون الشبّان في نزهاتهم أضخمَ الكلابَ وأكثرها هولاً مطلقين عليها أسماء بشريّة، يا لفظاعة هؤلاء الشّبان!

كانت منازل غير مكتملة تحفّ بجهتَي الطريق، وكانت جدرانها من الطوب الخام الذي تنتفش منه الأسلاك المعدنيّة الصدئة. أضحت الشمس مرتفعة في كبد السماء وبدا لي أنّني أشمّ عبر الزجاج رائحة الحرارة الجديدة للصباح، المفعمة أملاً. انحنيت باتّجاه ابني وغمرت رقبته بأنفاسي الدافئة لأنّه، قلت في نفسي، بات يحبّ الكلاب. قلت في نفسي أيضاً بما يشبه انبثاق حلم، أو شذرة منه: إنّها الرقبة النضرة لبنيّ الصغير!

همست:

- وماذا عن ياسمين؟

وجّه ابني ضربة قويّة من باطن يده إلى وسط المقود. ثمّ هتف قائلاً:

- هل ستقفلين فاك، أم ماذا؟

لم أكن أتوقّع مثل هذه العدائيّة. وكانت ردّة فعلي أن اغرورقت عيناي بالدمع ولكن من دون حزن. رأيت ويلما تضع يدها على الفخذ العارية لابني، مهدّئة من روعه، وحين سحبت يدها بقي أثرها الدبق على الجلد العنبريّ. رمقتني بنظرة محايدة، دبلوماسيّة، تروز ميزان القوى الراهنة.

قال ابني وهو يكزّ على أسنانه:

- أنت غير مهذّبة. تلحقين بي العار يا أمّي. كيف تجرؤين على طرح هذا النوع من الأسئلة أمام ويلما؟ هذا لا يعقل، أنت تعرفين ذلك جيّداً، هذا لا يعقل.

تمتمت ويلما بهدوء:

- دعك من الأمر، لا أهمّيّة له.

قال ابني بصوتٍ حادٍّ قليلاً:

- لا بل إنّه بالغ الأهمّيّة.

قلت منزعجة:

- المعذرة... المعذرة...

وددت، كي أستدرك ما قلته، أن أسأل عن أحوال الحفيدة الصغيرة ولكن لم يكن بإمكاني حتّى تلك اللحظة أن أعقد قراري على لفظ اسمها، هذا الاسم الفظيع: سوهار، الذي كان يطنّ في أذنيّ مثل استفزاز أو تهكّم أو وقاحة لا بل مثل شتيمة لاذعة. هل شعرت ويلما بذلك؟

قالت وكأنّها تردعني عن قول شيء بإمكانه أن يخلّ باستقرار هذه الحياة:

- نعيش بهدوء كبير أنا ورالف.

قلت:

- نعم، والد رالف قال لي إنّ حفيدتنا... كانت طفلة هادئة جدّاً.

اكتنفت كلماتي الأخيرة بصمت ثقيل، ابتلعها والتهمها هذا الخرس الذي لا يقطعه ولا حتّى الأنفاس الصاخبة لهذين الغربيين الجالسين أمامي، وكأنّهما كانا يقطعان أنفاسهما لكي لا نتقاسم شيئاً وخصوصاً الهواء المكيّف داخل السيّارة. وحدها أنفاسي كانت تهدر وتتردّد مصحوبة بزفير الكلب المتقطّع الرطب الضيّق في صندوق السيّارة.

سألت لأبدّد الإيقاع الذي يصلُ نفَسي بأنفاس الكلب أكثر ممّا كنت مهتمّة بالجواب:

- هل أحوالها جيّدة... أقصد الصغيرة؟

ومن جديد ران هذا الصمت المطبق، المتوعّد. أدرت وجهي صوب الزجاج وأنا في حيرة لا حدّ لها. ما الكلام الفظّ الذي قلته؟ هل كانا يحقدان عليّ لأنني لم ألفظ اسم سوهار؟ ولكنْ، لم يكن بمقدورهما أن يلاحظا ذلك بتلك السرعة ليتّفقا على الصمت الذي كانا يواجهانني به، أو أنّهما والحالة هذه... كانا يعرفان كلّ شيء، ويدركان كلّ ما يعتمل في داخلي... وهذا غير قابل للتصديق، أجل...

غادرت السيّارة الرباعيّة الدفع الطريق فجأة التي على طولها، وخلف الدارات الجديدة أو المهجورة قبل أن تُنجز، بدا البحر الجامد والقاتم وكأنّه كان يحتمي من الضوء وأزرق السماء.

قلت:

- هذا البحر كامد.

وقال ابني وهو يهزأ منّي بنبرة ثقيلة:

- هل هذا هو الأسلوب الشعريّ الذي كنت تعلّمينه لتلاميذك؟ لا عجب في أنّهم لم يعودوا يريدونك في المدرسة!

قلت مغتاظة:

- كنت أظنّ... كنت أظنّ أنّك أصبحت رجلاً لطيفاً وأنّك كنت مصمّماً على أن تحبّني، على الرغم من كلّ شيء، مثلما أنا أحبّك على الرغم من كلّ شيء!

قال ابني وقد أصبح في الحال هادئاً وعذباً على الرّغم من هذه الشراسة التي تبدو وكأنّها كانت تسكنه وتجعل صوته مهتزّاً، لاذعاً:

- هذا صحيح!

كنّا نتقدّم على طريق محصبة، شديدة الوعورة لا تني تنعطف وفق زوايا حادّة. قلت لنفسي بشيء من القلق: ابني يسكن إذن في الجبل.

وبمقدار ما كانت السيّارة تتسلّق الطريق بصعوبة متزايدة بين باقات القطب اليابسة والقاتمة وأشجار التنّوب الخفيضة ذات الجذوع السوداء والأغصان البيضاء العارية، كان البحر يتقلّص ليغدو بقعة ضعيفة إلى أن اختفى كليّاً عن الأبصار. وعندئذٍ انتقلنا إلى الجهة الأخرى من الجبل، على المنحدر المظلم فانقبض قلبي في صدري.

كان الظلّ هائلاً يمتدّ على مسافة كيلومترات حولنا، ويغمر غابة أشجار التنّوب المحروقة، وأيضاً الوادي المقفر الذي في عمقه بدا الجدول الهزيل القاتم، من هذا العلوّ، وكأنّه عالق في مرايا قاتمة. أوقف ابني المكيّف.

برد الجوّ فجأة وباغتني السكون حتّى أنّ الكلب لم يعد يلهث وكأنّه كان يقتصد كلّ قوّة. شغّل ابني التدفئة. كنّا نواصل الصعود دوماً بلا نهاية وبسرعة بطيئة، وبدا لي أنّني كنت أبتعد عن آنج وأفترق عنه بطريقة أكثر

تأكيداً، لأنّ درب النزول للعودة إليه بات طويلاً.

29- إنّهما هكذا

كان ابني وهذه المرأة، ويلما هذه التي لِعمرها وثقتها وجمالها تأثير عليّ أكثر ممّا كنت أجرؤ على التسليم به (لا أملك سطوة عليها، ولا أيّ نفوذ ممكن ولا يسعني حتّى تصوّره، ولن يكون بمقدوري أيضاً أن أسعى لنيل إعجابها كما فعلت مع لانتون الذي كان شابّاً وشاءت الظروف أنّه لم يكن لديه أمّ أنموذجيّة ذلك أنّها غيّرت حياتها وأزواجها مراراً كما أحالت عاطفتها على أطفال جدد مراراً بحيث إنّ الحصّة الهزيلة المتبقّية للانتون فقدت بالنسبة له كلّ رونقٍ)، كان ابني وويلما يسكنان منزلاً حجريّاً فسيحاً في إحدى جَنَبات الجبل، في قرية سان أوغوستو.

كان عليَّ أن أصِف هذا الوضع بأكبر قدر ممكن من الهدوء لأنني لا أستطيع أن أغيّر شيئاً. لكنّي لم أكن أتوقّع إطلاقاً أن أجدني في هذا المكان.

كان أكثر ما يثير خشيتي وجوب مواجهة اسم حفيدتي، إذ لن تعود لديّ أدنى ذريعة لكي أُجنّب فمي لفظه. وأكثر من ذلك ربّما كنت أخشى، كيف السبيل للاعتراف بذلك والبوح به؟، من أن اتبيّن، إزاء وجه الطفلة، وعينيها اللتين يتمايز لونهما الداكن نوعاً ما عن بياضهما، وإزاء بشرتها الجميلة، الانحطاط الذي أوصل ابني نسْلنا إليه.

كان قد استحال عليّ أن أسأل زوجي السابق، ذاك الرجل البريء والطيّب والجاهل ماذا كانت تشبه حفيدتنا من وجهة النظر هذه، وكان ذلك هو الأمر الوحيد الذي كان يشغل بالي في الواقع. لو أنّني سألته لما كان فهم قصدي.

لا أشاهد إطلاقاً التلفزيون، قلت له، إنّ عقلي لم يكن كعقلك المشوّش من جرّاء كلّ هذه التفاهات. فأجابني ذاك الرجل الساذج: أتعلّم أشياء كثيرة بفضل التلفزيون. كان بإمكانه أن يقول لي أو كان يحقّ له أن يقول لي: ناديا، تعرفين الشرّ وتحتكّين به أكثر منّي، إنّ إمتناعك عن مشاهدة التلفزيون لم يحمك، ولم يطهّرك، لا، لم تلقي بنفسك في النار العظيمة المطهرّة بحرمانك من التلفزيون، بل ربّما رميت بها، وما أدراني؟، في مستنقع موحل. أمّا أنا فلم أتغيّر على الرغم من حبّي للتلفزيون، هكذا كان بإمكانه أن يجيبني به زوجي السابق الطّيب السريرة.

ولكن لم يتسنّ لي أن أنحني على وجه سوهار الصغير، أيّاً يكن.

سألت رالف ما إن وصلنا:

- أين ابنتك؟

تولّاني دوار فاستندت إلى السيّارة تفادياً للسقوط. سرنا في منعطفات كثيرة لدرجة أنّ رأسي كان يدور بي وشعرت بالغثيان. غمغم ابني بعض كلمات غير مفهومة وكان وجهه يعروه غضب متأهّب لأن ينصبّ على أمّه المسكينة الغارقة في الجهل وعدم الفهم.

كنت أنا القادرة فيما مضى على إلقاء الذعر في نفسه بمجرّد تقطيب حاجبيّ، أنا التي كنت أستطيع دفعه للبكاء لا لشيء إلّا لإشعاره بأنّي قادرة على الغضب... متى وفي أيّ عمر كان ابني حين بدّل الخوف وجهته؟ كان ابني الصغير الذي يحبّني كثيراً يخشى أن يغضبني ولم يكن يتحمّل أن أبدو ناقمة عليه لأيّ سبب كان، ثمّ حين غدا شابّاً أظهرَ من سرعة الغضب ما جعلني أزن كلّ كلمة أجرؤ على قولها له، على الرّغم من وثوقي بأنّي لن أستطيع أبداً تفادي امتعاضه، وكنت شبيهة عندئذٍ ببعض من تلامذتي الذين كنت أشعر، حين أسألهم، بأنّهم يرمون بأنفسهم في الهاوية، راجيةً

بالطبع أن يكون لسقطتهم البطء العائم للأحلام وسرمديّتها، وكذلك أن يطفو وجهي ثابتاً لا يتغيّر في ليل الأزمنة، صبوراً هادئاً أمام وجوههم بالذات التي يتأكّلها القلق.

ووجدت حينئذٍ الشجاعة لأن أسأله أيضاً:

- أليست هنا؟

أجاب ابني بطريقة فظّة:

- لا.

كان المنزل حيث يعيش ابني وويلما هذه يشرف على الوادي، ويولي ظهره للطريق. كان منزلاً شاهقاً وفي منتهى الصرامة، مبنيّاً من الحجارة الرمادية، وبالإمكان رؤيته من الطريق حين نصعدها وإن نكن بعيدين عنه عدّة كيلومترات.

قلت:

- كنت آمل أن ألتقي أخيراً حفيدتي ولكنّ أملي خاب.

قال ابني:

- حسناً، الأمر مستحيل كما ترين.

كنت قد حزمت أمري لأعرف الطفلة ولذا كنت غاضبة لا بل حزينة لغيابها، ولم أكن أشعر بالارتياح بخلاف ما تصوّرت.

بحثت عن نظرة ويلما رافعة حاجبي متسائلة، مندهشة. لكنّها أشاحت وجهها كامرأة كتوم لا تتدخّل إلّا بما يعنيها، وهكذا أدركت بطريقة أكيدة أنّها لم تكن ياسمين، والدة الطفلة. كانت الفكرة قد راودتني في السيّارة بأنّ ويلما هذه قد تكون ياسمين، وبأنّنا ربّما اخطأنا أنا وآنج حين اعتقدنا أنّ ابني تزوج بامرأة تدعى ياسمين أو أنّها كانت قادرة على تغيير اسمها

وقرّرت أن تختار لنفسها اسماً آخر، وهذا قرار كنت سأتّخذه أنا نفسي لو كان اسمي ياسمين.

هذا ما كان عليه الأمر ببساطة تامّة، كنت قد قلت في نفسي، إذ ركنت لهذه الفكرة مطمئنّة لدرجة أنّها أضحكتني.

ياسمين تلك لم أكن قد رأيت صورة لها قطّ. كان ابني قد أبلغني بإيجازٍ عن زواجه حين تلاقينا في شارع سانت كاترين وقد رفض أن يقول لي أيّ شيء إضافيّ عن زوجته، إلّا اسمها، وهو ياسمين (أو أنّه قال ويلما في الحقيقة؟).

كان ابني قد رفض أن يتحدّث إليّ عن زوجته بذريعة أنّني، وعلى حدّ قوله، تملّكتُ لانتون عندما كان لا يزال يعيش معه، وأنّني أخذت لانتون منه، وأنّني، على حدّ قوله، خنته مع لانتون. ثمّ أضاف لدى رؤيته وجهي المندهش أنّه يقصد الكلام بطريقة رمزيّة، وهذا أسوأ. وكان يريدني أن أدع ياسمين، زوجته، بسلام.

فاعترضت قائلة:

– ولكن بمَ يمكنني أن أؤذي زوجتك، ممَّ أنت خائف؟

كان يخشى... كيف بإمكاني قول ذلك دون أن أرتعش؟ كان يخشى أن أبثّ في زوجته الخجل والاحتقار لنفسها، تحت ستار عاطفتي حيالها واهتمامي بشخصها.

فهتفت أيضاً وعيناي تفيضان بدموع يائسة:

– ولكن هل سبق لي أن تصرّفت مع أحدهم على هذا النّحو؟ هل سبق لي أن فعلت ذلك؟

فأطلق ابني ضحكة استهزاء وولّى هارباً دون شفقة مفعماً حقداً. كيف

أمكنَ أن أثير في ابني هذا الحقد بالذات، ابني الوحيد الذي أحبّني كثيراً، هذا ما لم أكن قادرة على فهمه. وعلمت لاحقاً أنّ ابني غادر ليعيش في سان أوغستو ويعمل هناك مصطحباً معه ياسمين زوجته الحديثة العهد، ثمّ وُلِدَت ابنته.

قال لي آنج حين تلقّينا خبر ولادتها:

- أرأيت، لم يعد حاقداً عليك فهو يُبلغك أنّك أصبحت جدّة.

قلت مسرورة بادئ الأمر:

- نعم.

لكنّ اسم الطفلة أثار حفيظتي وفكّرت عندئذٍ أنّ ابني لم يكن قد أرسل لي هذا الإشعار بولادة ابنته إلّا لهذا السبب: إلّا لأنّ الأحرف الخمسة من اسم سوهار كانت تشكّل حربة اخترقت قلبي من الوريد إلى الوريد.

وها أنذا في منزل ابني القاتم، وقلّما كان يهمّني هذا الاسم المرعب. شعرت أنّني لست على ما يرام. أين هما الطفلة ووالدتها؟ أنا التي كنت أخشى كثيراً رؤيتهما (وكان يَجرحني أنّ ابني لم يعرّفني إليهما قطّ) بات أمرهما يقلقني.

كان المنزل الذي يعيش فيه ابني وويلما هذه يبدو الأهمّ في القرية التي لم تكن تتألّف إلّا من حفنة من المنازل المتواضعة الرماديّة المتلاصقة حول الكنيسة الصغيرة الخالية من كلّ بهرجة. كان المنزل منعزلاً لكنّه قريب بما يكفي لكي يستطيع سكّان هذه البيوت الفقيرة أن يكونوا على علم بكلّ ما يجري فيه. كان منزل ابني الهائل مؤلّفاً من ثلاثة صفوف من النوافذ الضيّقة، في الجهة الأخرى للطريق، ويحجب كلّياً عن المنازل المجاورة المنظر المطلّ على الوادي، اللهمّ إذا لم يكن يقيها هذا المنظر الكئيب

الذي يستغرق النظر فيه ويسرح: الغابات التي دمّرتها الحرائق المتواترة، والجدول الجامد، والظلّ البارد المنتشر في كلّ مكان.

كانت الحرارة اللاهبة تتركز كلّها على المنحدر الآخر، قبالة البحر. من هذا الأتون الذي لا نشعر هنا بوهجه أبداً، ترتفع ضبابة غير مرئيّة تجعل الهواء مرتعشاً حتّى سان أوغستو. قالت لي ويلما إنّ هذا الاهتزاز الخفيف للجوّ يجعل الناظر يرى أسربة. قالت لي إنّه قد يتولّد لدينا انطباع أحياناً بأنّ طبقة من المياه تطفو فوق القرية، وإنّه إذا حصل لي هذا، وإذا ظننت أنّني أرى انعكاس أشجار نخيل في البحيرة الوهميّة، فيجدر بي ببساطة أن أغمض عينيّ فتتبدّد الرؤيا في الحال.

أمر ابني بإنزال الكلب من صندوق السيّارة. كان يتحضّر لإفلات الرسن وإعتاق الكلب الذي لم يكن ابني ولا ويلما هذه، حسبما قالا لي، يحبّان إبقاءه مربوطاً.

قال ابني بصوت متوعّد قليلاً:

- آرنو رائع!

وكأنّه توقّع أن أشكّ بالأمر علانية أو أن أستفزّ الكلب بهدفٍ وحيدٍ وهو أن أثبت أنّه كان سيّئاً.

كان يفترض به أن يعرف مع ذلك أنّ الكلاب لا تهمّني، وأنّ الكلاب غير موجودة بالنسبة لي. إن كلّ كلام عن الكلاب يضجرني بطريقة لا تُحتمل. ولكن في اللحظة التي أرخى فيها ابني رباط الكلب عاد وأمسكه بطريقة تنمّ عن انزعاجه ودهشته لأنّ أرنو كان على وشك أن يثب عليّ.

قال ابني:

- هذا غريب. هل كان لديك كلب في بيتك؟

قلت وأنا لا أزال تحت وطأة المفاجأة من عدوانيّة مماثلة:

- بالتأكيد لا.

قال ابني متحرّزاً:

- ومع ذلك لا بدّ أنّه اشتمّ رائحة كلبٍ ذكرٍ على ملابسك.

قالت ويلما بجفاف:

- لا يمكن أن يكون هناك فرضيّة أخرى.

قلت:

- لا أحاول أن أخفي عنكما أيّ شيء كان.

كنّا نشعر بالاستياء ثلاثتنا وتركنا جانباً مسألة الكلب ومشاعره تجاهي. كان ابني وويلما هذه يبدوان غاضبين، وشبه متألّمين لدى تحقّقهما أنّهما كانا يجهلان أسباب تصرّف أرنو. وتسنّى لي لدى رؤية كبريائهما وعاطفتهما المجروحة أن اقدّر مدى تعلّقهما بالكلب.

ليس لديهما إذن طفل يحبّانه أم أنّ البنيّة الصغيرة لا تكفيهما، هل هي مخيّبة لآمالهما، أهي قبيحة أم تسِمها الكثير من العلامات المنفّرة؟

داعبت ويلما الجوانب العريضة الصهباء للكلب وكأنّها تحاول أن تسأله الصفح عن إساءةٍ ما. ركعت أمامه ووجهها الرائع لصق شدق الكلب وهي تقول:

- هيّا يا جميل، هيّا.

ولعق الكلب خدّي هذه المرأة وأنفها وفمها، ويلما هذه التي كانت تعيش مع ابني والتي، لكي تلتقي بي، تبرّجت بكلّ عناية هذا الصباح. أزال لسان الكلب الطويل عن وجهها مسحوق التجميل والبودرة وأحمر الشفاه وحتّى كحل الرّموش جاعلاً إيّاها تضحك ببهجةٍ مصطنعة بعض الشيء.

أراد ابني بدوره أن يلعق الكلب وجهه تماماً. وأخذا يتنافسان على سبيل اللهو، على الجلوس أمام شدق الكلب، ويتصارعان لنيل هذه المباركة. انتصبت ويلما بوجهها المجرّد من المساحيق، الأبيض والمليء بالزغب، فخورة، راضية. كان هناك نوع من التحدّي الغامض حيالي في طريقتها باستعراض عري وجهها الذي كان لا يزال يلتمع بريق الكلب (كان بإمكاني أن أشمّ الرائحة القويّة، الرائحة الزنخة، وكان بإمكاني أن أتصوّر كم كان دبقاً جلدها) وكأنّ هذه المرأة االمتبرّجة كانت تريد أن تتحدّاني بأن أجدها أقلّ جاذبيّة على تلك الشاكلة.

استدرت وتقدّمت نحو باب منزل ابني. **هذا الصبيّ الصغير الذي كان يحبّني لحدّ اليأس والذي لم يحبّني أحد كما أحبّني هو،** لم تكن لديّ رغبة في رؤيته ينهض ووجهه ملطّخ بلعاب كلبه، عارضاً هذه اللذة المقرفة، يا إلهي، هل كانا من العزلة، قلت في نفسي أيضاً، بحيث كانا يهبان نفسيهما بتواضع لمداعبات أرنو، لا بل يستجديانها في الواقع؟

كان الجوّ بارداً، جافّاً ودافئاً في آن. كانت سماء فسيحة زرقاء تغمر منزل ابني، وخلفنا، في الجهة الأخرى من الطريق، تُلمَح المنازل الصغيرة المتلاصقة بالقرب من الكنيسة الساكنة والتي ظننتها مقفرة لو أنّني لم ألمح عند النوافذ ستائر بيضاء ناصعة.

أخرجت ويلما من حقيبتها محفظة مفاتيح ضخمة لتفتح الباب. أشارت إليّ كي أتنحّى. أدخل ابني الكلب أوّلاً وهو يجذبه من رسنه. والكلب، إذ عرفني خلفه، كان يدير رأسه ويهمهم رافضاً الانصياع. وكان زبدٌ غاضب يتراكم على بِرْطيلَيه الأسودين المتهدّلين.

هتف ابني بشيءٍ من الغضب:

- ومع ذلك لا بدّ أنّ رائحة كلب تنبعث منك، لا يمكن أن يكون للأمر سبب آخر.

قالت ويلما:

- آرنو مهيمن جدّاً.

قلت على سبيل المزاح:

- ربّما لشعوره بأنّكما لا تستقبلانني برحابة صدر.

قال ابني بجدّية لا بل برصانة ودونما لؤم أو نيّة في أن يبدو قاسياً:

- نعم، ربّما.

ما قاله أثّر فيّ. بدا لي أنّه فقد سخريته، هو الذي كان ساخراً إلى حدّ الإزعاج في أغلب الأحيان، وكان يصعب فهمه، ومعرفة ما إذا كان، في بعض المواقف، يعبّر طوعاً عن عكس ما كان يريد أم ينبغي فهم ما يقوله حرفيّاً.

وما دمتُ في سان أوغوستو، في معقل ابني، فلم أعد أشكّك بمعنى ما يقوله. إنّ التصلّب المتحمّس الذي يزيّن كلّ كلمة يقولها بختمٍ من الحرفيّة المطلقة يبعده عن الذكرى التي كنت أملكها عنه، أكثر ممّا لوْ كان أعاد ترميم وجهه. ونتيجة لذلك، كنت أنظر إلى وجه ابني وأجهل إن كنت أعرفه إلى الحدّ الذي تصوّرت. كنت أفضّل، قلت في نفسي، لو أنّه اكتسب اللهجة القويّة القاسية لأهالي سان أوغوستو بدلاً من هذا التعاظم المنتشي بذاته، ومن هذه الصراحة التي لم يكن فيما مضى يفوّت أيّ فرصة ليستهزئ بها حين كان أحياناً يرانا أنا وآنج ندلي برأينا بخصوص التعليم. كان يتّهمني بأنّني لا أفهم شيئاً في فنّ الدعابة، وكان يعيب عليّ ما كان يدعوه هيئتي الحائرة إزاء كلامه المستفزّ.

كيف تحوّل فتاي الصغير الرقيق والحسّاس والملاطف إلى هذا الشابّ الذي لم أعد أحبّه؟

لم يكن، بالمقابل، يظهر أبداً، نفاد صبرِ حيال زوجي السابق، أبيه، مع أنّ أباه كان عاجزاً عن فهم نوع سخرية ابننا وطريقته في التعبير.

ذلك أنّ رالف كان قد شعر أو أدرك أنّ طيبة والده وبساطته كانتا تجعلانه بالضرورة غافلاً عن السخرية، وكان رالف يحترم كثيراً هذه الغفلة، وربّما كان يتحسّر ألّا يكون لديه هو أيضاً هذا النوع من البراءة، وربّما كان يضمر الحقد تجاهي لأنّني أفسدته إذ نمّيت لديه قدرة على رؤية الأشياء من زوايا مختلفة. ومع ذلك كنت أكره ميله للتهكّم وضحكاته التي لا بهجة فيها، وكنت بدأت في كرهه، هو بالذات، حين كان يبالغ في التنكيد.

كان يفترض بي أن أسرّ لرؤية ابني وقد تخلّص من هذا العيب. فلماذا إذن كان يؤلمني ذلك ويشغل بالي؟ هل لأنّه بقي دون شفقة؟ هل لأنّه كان متصلّباً متوحّشاً بطريقة كانت تبدو لي أكثر خطورة حيالي، بالرغم من نزوعه الموتور للصبر والأناة؟ كنت أودّ أن أقول له: لن تصبح أبداً مثل أبيك، فات الأوان، ولم تكن مقدّراً لذلك. آهِ، كنت أودّ أن أقول له أيضاً وبغضبٍ: ألا ترى أين قاد أباك المسكينَ التعسَ قلبُه الواثق؟ قاده لأن يعيش دون خجل على نفقة كورينا داوي، ويسكن دون خجل في شقّة لم تعد ملكه، ويرتّب دون خجل غرفة عديمة الذوق لطفلة صغيرة لن يراها في أفضل الحالات إلّا بضع مرّات في السنة، ويكشف في بوردو للعيان، وأيضاً دون أيّ خجل، عن وجهٍ لم يكن بوسعه أن يدرك أنّه مكروه.

اختفى ابني في البيت برفقة أرنو. ثمّ عاد وهو يقول إنّه احتجز الكلب في عيادته، وحينئذٍ تذكّرت أنّ ابني طبيب. لم أره قطّ يمارس مهنته ولذا

كنت ميّالة للسهو عن ذلك قليلاً.

لم أعرف ابني إلّا طالباً. كان منكبّاً على تحصيلٍ علميّ لم يكن ينتهي لحدّ أنّني كنت أتصوّر بطريقة غامضة أنّ الهدف من دراسته كان الدراسة بحدّ ذاتها وأنّها لن تفضي إلى هذه المهنة، مهنة الطبّ، التي اختارها ابني عملاً بنصيحة لانتون.

دفعتني ويلما إلى الداخل بلكزةٍ خفيفةٍ في حقويّ. كانت القاعة الكبيرة لمنزلهما قاتمة وباردة... كانت أقنعة خشبيّة وجلديّة معلّقة إلى الجدران الحجريّة، وكذلك قطَع فروٍ مدلّاة من أُطُرٍ وعدّة رؤوس من الخنازير البرّية المصبّرة.

قال ابني بشيء من الغرور حين كنت أتأمّل الرؤوس وأفكّر في ما يمكن أن يقوله آنج عن مثل هذه المجزرة:

- بدأت أصطاد برفقة ويلما.

كان آنج يقول إنّه ليس هناك عرق أكثر انحطاطاً من الصيّادين.

سألت بصوت خافت:

- تعلّمت الصّيد إذن؟

فاستدارا كلاهما نحوي بوجهيهما اللامع.

كان آنج يقول إنّه يجب إعدام جميع صيّادي هذه البلاد.

قال ابني:

- بالطبع، ويلما علّمتني.

كان وجهاهما يرسلان شرارة شاحبة في القاعة القاتمة لأنَّ الرغبة والفخر كانا يضيئانهما من الداخل فيما كانا، ولا شكّ، يتذكّران حملاتهما في الأدغال مجهّزين بأسلحتهما الفتّاكة التي رأيتها في غرفتهما، مطاردين خنزيراً بريّاً،

أو خنزيرة بريّة جنّ جنونها وهي تدفع أمامها صغارها، وتتصاعد منها الروائح النفّاذة للرعب على مقربة من خطم أرنو. وتساءلت لاحقاً ما إذا كان رعب البهيمة السوداء قد أعطى تابله اللذيذ للبرنيّات التي يقدّمها ابني ويعدّها؟ أيُبرِز الهلع رائحة اللحم؟

لشدّ ما كانت دهشتي لاحقاً حين رأيت أنّ ابني قد صار طبّاخاً ممتازاً، وعاشقاً للحوم الحمراء وأنّ لديه ميلاً، بشكلٍ لا جدال فيه، للدّم.

بذلت جهداً كي أعبّر عن إعجابي بالأقنعة والرؤوس لأنّ ابني وهذه المرأة كانا مضيفيّ.

تمتمت وقد لاحظت على الفور أنّ ذلك يحمل السرور لرالف:

- هذا جميل جدّاً.

لم يستطع الامتناع عن الابتسام، ابتسامته القديمة العريضة والمتردّدة في الوقت نفسه، المذعورة والبهِجة، ابتسامته حين كان صبيّاً صغيراً.

ألم يكن يبتسم هكذا عندما كان ينتظر حكمي على واجبٍ مدرسيّ أو رسمة أو حتّى هديّة صنعها لي، ألم يكن يبتسم هكذا حين كان يرى أنّ حكم أمّه أتى لصالحه وحين عرّفني، مثلاً، على لانتون العزيز؟

ثمّ، من جديد، اتّخذ وجهه هيئة صارمة جامدة محمومة.

قالت لي ويلما:

- سأريك المنزل

قال ابني:

- حسناً تفعلين، أريها المنزل.

ثمّ طلب فيما بعد من ويلما أن تعاينني ما إن يصبح ذلك ممكناً.

30- ماذا رأت؟

ممدّدة على سرير المعاينة في عيادة ويلما، فكّرت بابني الذي لم يرافقنا في جولتنا على المنزل، هذا المسكن الشاسع والمكفهرّ حيث تعيش هذه المرأة منذ زمن لم أتوصّل إلى تحديده: أمنذ بضعة أسابيع أم بضعة أشهر أم أكثر من سنة؟

شعرت أنّ ابني لم يكن يتجوّل أبداً في الطوابق العليا الأشدّ برودة وقتامة من الطابق الأرضيّ، والتي تتضمّن غرفاً متعدّدة وشبه فارغة. كانت غرفتي مزوّدة بسرير وبمكتب صغير وكرسيّ. كان غطاء من المخمل الزهريّ يكسو السرير وكان انزعاجي فائقاً لدى رؤيتي هذا القماش الذي لن تكون لديّ الجرأة، قلت في نفسي، حتّى على وضعه في مضجع كلب، ولم أستطع إخفاء انفعالي.

لاحظت ويلما ذلك.

قالت لي:

- كلّ ذلك كان هنا قبل أن نشتري المنزل. وبما أنّنا لا نستقبل أحداً، فإنّنا لم نجهّز الغرف العليا بعد.

مستغلّة فرصة غياب ابني، سألت ويلما، بطلاقةٍ:

- أين غرفة الصغيرة؟

قالت ويلما دون تفكير:

- أيّ صغيرة؟

اصطبغ خدّاها بلون زهريّ. جرّت حقيبتي من الرواق إلى الغرفة تفادياً للنّظر إليّ.

قلت:

- الصغيرة...

ولكنّ اسم الطفلة اللعين هذا، سوهار، امتنع حينها بإصرار عن عبور شفتيّ.

قلت بلهجةٍ شبه يائسة:

- تعرفين جيّداً قصدي. أرجوك لا تتظاهري بعدم المعرفة! حفيدتي...

هل كان لزاماً أن أعاقَب في كلّ مرّة أبدو فيها وكأنّني أتهرّب من لفظ الاسم المخيف؟

فقاطعتني قائلة:

- عليك بالتحدّث عن الأمر مع رالف.

ونزلنا من جديدٍ الدرج الحجريّ الطويل. في القاعة الكبيرة، فتحت ويلما باباً بمفتاحها وأدخلتني إلى عيادتها.

سألتها:

- هل أنت طبيبة عامّة مثل ابني رالف؟

قالت هذه المرأة:

- لا، أنا طبيبة نسائيّة.

ثمّ أضافت بلهجةٍ عذبة، احترافيّة:

- اخلعي ثيابك ماما واجلسي هناك. سأعود في الحال.

لم أرَ قطّ في بوردو عيادة عصريّة ومجهّزة بإتقان كعيادة ويلما في قرية سان أوغوستو المتواضعة هذه. كان كلّ شيء فيها أبيض ووردياً، من السجّادة حتّى الكنبات. لم يكن المكتب إلّا لوحاً طويلاً من الزجاج يعلو أربع قوائم ورديّة ضارباً لونها إلى الحمرة. كان الحاسوب، من ماركة ماكنتوش، ذا لونٍ مماثل، وأيضاً فراش سرير المعاينة الذي استلقيت عليه وكلّ مصباح

وكلّ غرضٍ على الرفوف.

كانت نوافذ الغرفة تشرف من جهةٍ على الوادي العميق والقاتم، ومن الجهة الأخرى على المنازل المتجمّعة حول الكنيسة. لم يكن هناك ستائر. حين رفعت رأسي قليلاً كان بإمكاني رؤية نوافذ الجيران، وخطر لي أنّهم يرونني بالطريقة نفسها وينظرون إليّ ممدّدة، عارية، على سرير المعاينة في عيادة ويلما، هذه الطبيبة النسائيّة التي تعيش مع ابني. أو ربّما كانت هذه المنازل فارغة ومهجورة ونحن الكائنات البشريّة الوحيدة في سان أوغوستو.

عادت ويلما مرتدية بذْلَةً بيضاء وكان شعرها مرفوعاً وقد وضعت المساحيق على وجهها الناعم من جديدٍ، وبإتقان. كنت منزعجة جدّاً من أن أقدّم نفسي لها بهذه الطريقة في كلّ بؤس جسدي الذي أهملت الاعتناء به. غطّيت عينيّ بيدٍ وتمتمت:

- أنا منزعجة جدّاً، تعرفين...

قالت ويلما:

- دعك من ذلك، فأنا طبيبة...

قلت وكنت فجأة عاجزة عن الصمت:

- كنت امرأة جميلة ولكنّي لا أعرف كيف حصل لي هذا. عشت ولم أهتمّ بشيء، وجسدي، كيف أقول لك ذلك، أفلت من سيطرتي لأنّي لم أكن أهتمّ به وعاش حياته مستقلّاً عنّي، على مرأى منّي كلّ يوم بالطّبع، ولكنّي، في الواقع، لم أكن أرى شيئاً...

قالت ويلما بلطفٍ:

- اهدئي، ليس هذا ما أنظر إليه.

أشحت بوجهي جانباً لكي لا ترى عينيَّ الدامعتين.

كان المنزل ساكناً تماماً. ماذا كان يفعل ابني؟ هل كان يراقبنا؟ بدا لي بطريقة غامضة أنّ الغرفة كانت تنبض كلّها بأنفاسٍ أخرى غير أنفاسنا.

كانت هذه المرأة، ويلما، تروح وتجيء، وترتدي قفّازين وتحضّر أدواتها. لاحظت خفّيها الجلديّين الجميلَين، بلون الخوخ، وكعبيهما المتوسّطَي العلوّ، وتحت التنورة البنفسجيّة التي تقطعها البذْلَة، بانت ربلتاها الغريبتان في صلابتهما، وعرقوباها الضخمان، وهذه تفاصيل كانت تدهشني لدى امرأة في غاية النحول. همست:

- ألا يبدو انتفاخ بطني غريباً؟

همست ويلما:

- سنرى ما الأمر.

وفجأة أصبح صوتها متهدّجاً خشيةً، وضعتُ كلّاً من قدميّ في الحلقة وأنا أشعر بلحم فخذي يرتجّ ويرتعش. ومع أنّ جلدي لم يكن فاتحاً إلّا أنّه كانت تتخلّله دوالٍ نافرة جدّاً.

أبعدت ويلما ساقيّ برفقٍ وغرزت ببطءٍ المنظار في مهبلي.

قلت منتفضة قليلاً:

- هذا بارد جدّاً.

لم تجب ويلما، رفعت رأسي قليلاً وتلاقت نظراتنا، وكانت نظراتها مفعمة بالذعر والحيرة.

نهضت فجأة عن كرسيّها. دسّت يديها في قعر جيوبها، ونظرت إلى النافذة لجهة الشارع، ثمّ عادت، وجلست من جديد ناظرةً عبر المنظار ثمّ أدارت حلقة التعيير موسّعة فتحتها. أطلقتُ آهةً ثمّ أدارت الحلقة في

الاتّجاه المعاكس.

قلت:

- ماذا؟ ماذا رأيتِ؟

لم تجب فكرّرت سؤالي ولم ألقَ إلّا الصّمت.

رفعت نظري من أعلى كتفيها نحو النافذة فرأيت دجاجة صغيرة بيضاء تقف على الحافّة الخارجيّة مستندة إلى قائمة واحدة ناظرة بانتباهٍ قلقٍ ولكن مركّز، وبدت وكأنّها تراقبني بعين لا ترحم. سألت:

- هل لديك دجاج؟

ظلّت ويلما لهنيهة غير فاهمة ثمّ أدارت رأسها.

قالت وكأنّها كانت مرتاحة لتغيير الموضوع:

- نعم، ولكن لا نملك الوقت للاهتمام بها. لا نجمع البيض، بإمكانك أن تفعلي هذا لو شئت.

قلت غاضبة قليلاً:

- لم يسبق لي أن فعلت هذا. ولا أعرف هل سيكون لديّ الوقت أنا أيضاً. يجب أن أعود للعمل وأن أجد مدرسة هنا.

هتفت ويلما بنبرة من الخيبة الغريبة:

- لن يكون هذا ممكناً مع ما تحملينه في أحشائك.

وسحبت المنظار بشيء من القسوة ورمته في دلو معدنيّ صغير، وأزاحت كرسيّها بعنفٍ ثمّ انتزعت قفّازيها بشيء من الغضب.

- مع من فعلت هذا ماما؟ ما الذي فعلته بحياتك؟

نهضت ليس من دون ألم وجلست على السرير وساقاي تتدلّيان فوق البلاط الأبيض والورديّ المحمرّ الذي يشبه أحجار لعبة الداما.

ارتجفت مذعورة.

قلت بصوت حادٍّ:

- هلّا... قلتِ لي ما بي؟

وأضفت لاهثة:

- وأيّ ذنبٍ اقترفتُ أيضاً؟

لاح بعضُ حنوّ وإشفاق في عيني ويلما المديدتين البنيّتين. أرادت أن تكسب الوقت، فحلّت عقدة شعرها المطاطيّة بحركة بطيئة، غنجة.

قلت:

- ليست خطيئة عظيمة أن ينقطع حيضي.

قالت:

- آهِ يا ماما، الأمر لا يتعلّق إطلاقاً بانقطاع الحيض!

- لماذا إذن انقطعت عادتي الشهريّة؟

هزتّ رأسها حائرة.

ثمّ قالت:

- على أيّة حال، لست مريضة. هناك... شيء ما لا يشبه ما نعرفه.

خفت فجأة أن تقول شيئاً إضافيّاً. قفزت عن السرير برعونة. شعرت بما يحتويه بطني الذي فوجئ بحركتي، شعرت به يتأرجح فوق العانة، ثمّ يستقرّ ويجمد.

ارتديت ثيابي من جديد على عجل، وويلما، من جهتها، خلعت بذْلَتها التي كانت ترتدي تحتها كنزة من نسيج الأنغورا البنفسجيّ. في أعلى نهديها، جلدها الكامد مرتخٍ قليلاً فيما وجهها مشدود إلى أقصى درجة ممكنة. ربّما كانت هذه المرأة التي تعيش مع ابني أكبر سنّاً منّي.

ودون أن أنظر إليها سألتها وانا أزرّر بنطالي بمشقّة:

- هل سيزداد بطني انتفاخاً؟

قالت ويلما

- نعم، ليست هذه إلّا البداية، على ما أظنّ.

- ألا يمكن إيقاف كلّ هذا؟

- هذا ليس مألوفاً ماما. لن أسمح لنفسي بأن أجازف. سوف نرى ما يمكن فعله.

تمتمت:

- ولكن، أليس هذا أمراً... شيطانيّاً؟

قالت ويلما:

- بلى.

وجهدتْ، لكي تخفي رعبها، أن تضحك وكأنّه كان لا يزال ممكناً إضفاء طابع مسلٍّ على حديثنا، أو كأنّ هذا التكلّف كان، في جميع الأحوال، ضروريّاً لا لكي تخدع كلّ واحدة منّا الأخرى بل لكي نقدر على التجاور دون أن يهدّنا الذهول إحدانا في حضرة الأخرى، ويتركنا العجب فاغرتَي الفم.

طرحت سؤالاً أخيراً على هذه الطبيبة النسائيّة التي كانت تعيش في منزل ابني، والتي، قلت في نفسي، ربّما كانت تبقي ابني في الأسر بطريقة ما.

- ما أحمله في أحشائي هل من الممكن أن يكون الطعام سبباً له؟

رفعت حاجبيها مندهشة وقالت:

- بالطبع لا، هذا لا علاقة له إطلاقاً بالطعام.

31- الطعام سيّئ في منزل ابني

كنّا نتناول العشاء ثلاثتنا في غرفة الطعام الرماديّة الباردة التي أرادها ابني وهذه المرأة بمثابة المعرض الدائم لمآثرهما في الصيد. لم يكن يوجد على الجدران الحجريّة إلّا صور مؤطّرة تظهر رالف أو ويلما في زيّ الصيد، يمسك كلّ منهما بتدْرج أو كُركيّ من قوائمه أو يسحق بحذائه العسكريّ الضخم اللَبان الدامي لخنزير بريّ أو لأيّلٍ، مبتسماً دوماً ابتسامة ظفرٍ عريضة لا بهجة فيها، ابتسامة مَن يقتل لا بدافع الفائدة أو اللذّة بل بدافع القناعة بأنّه يعمل على هذا النحو في سبيل الخير العامّ. كانت ابتسامة ويلما واضحة، قاطعة، خالية من الندم أو الانزعاج، لكنّ الشفتين الجميلتين المكتنزتين لابني بدتا وكأنّهما تجهدان لتتفاديا، وهما على هذا الجمود في حيرتهما الخفيّة، ظلّ ارتجافة.

جلسنا إلى الطاولة المصنوعة من خشب السنديان؛ كان جميع أثاث تلك الغرفة ثقيلاً وداكناً. كان الكلب أرنو يرسل نباحه من عيادة ابني التي يفصلنا عنها باب واحد.

قال ابني بسأمٍ قلِقٍ:

- هو معتاد على ملازمتنا، لذا فهو لا يفهم ما الذي يجري.

قلت:

- تتحدّث عن الحيوان وكأنّه ابنك.

تقلّص وجه ابني وأضحى متجهّماً. ادلهمّ الليل في النوافذ الضيّقة. بين النباح والآخر ساد سكون مطلق.

وضع ابني على الطاولة صَحفةً مليئة بلحمٍ قاتم سابح في صلصة كثيفة بلون النبيذ، وأخذ يغدق عليّ الطعام، معقّباً دون خَجل أنّه أمضى ساعات

طوال وهو يطهو هذه الطريدة؛ آهِ كم شعرتُ به فخوراً بأن يجعلني أقدّر ما أعدّه لي.

كيف بإمكاني أن أهدم اليوم ما بنيته لمدّة عشرين عاماً؛ كيف بإمكاني أن أحرّر ابني من انتظاره القلق والمتشنّج لحكم والدته؛ كنت أودّ أن أقول له: لا تهتمّ كثيراً لأحكامي، فهي كغيرها من الأحكام، لا أكثر ولا أقلّ!

وضع ابني كميّة من الطعام في صحن ويلما أكثر ممّا في صحني، ثمّ صبّ لنفسه بتقتير.

رفعت صوتي ليعلو على همهمة الكلب وتذمرّه، وقلت:

- لمتني على ازدياد وزني ولكنّي لن أنحف إذا كنت تريد أن تطعمني هذه الكميّة!

نظر إليّ ابني. ورأيت تعاطفاً في عينيه.

همس:

- شرحت ويلما لي حالتك وأدرك الآن سبب بدانتك.

تراجعت مذعورة، ملوّحة بيدي باتّجاهه. كنت أجد أنّه لا سبيل لذكر ما في أحشائي.

بدأت بتناول الطعام. فوجئت بالمذاق الحادّ والمعزّز للّحم والصلصة، وللحال أحسست بإرهاقٍ وبتعبٍ يثقل فكيّ، وبدا لي فجأةً وجوب المضغ أمراً شاقّاً يفوق طاقتي لا سيّما وأنّه كان يترافق مع التركيز على مزايا ما أتذوقّه لكي أجد كلمات أعلّق بها عليه. ومن جرّاء التعب، اكتفيت بأن أقول لابني إنّ الطعام لذيذ جدّاً.

وفي حقيقة الأمر لم يكن لذيذاً، كان طعمه قويّاً لاذعاً واللحم خيطيّ الألياف، فهل كان ابني يريد امتحاني؟

رمقني ابني بنظرة حذرة فحدّقت بدوري إليه بودٍّ راسخ ما جعل وجهه الظريف يتوهّج كلّه سروراً ورضىً، واستعدت الطفل الذي كنت أحبّه خلف ملامح الرجل البالغ العدوانيّ والمتشنّج، العدوانيّ والحاقد، الغريب عنّي، البغيض، المختلف تماماً عن لانتون الذي شعرت بأنّي قريبته منذ أوّل لقاء حصل بيننا، والذي أحببته، أجل، أكثر من ابني، لا بل كنت أفكّر في أنّ موته كان سيشعرني باليأس والإحباط بخلاف موت ابني الذي كان سيريحني خفية ويعتق حياتي من هذا الحمْل الذي آلت إليه علاقتنا العدوانيّة والمتشنّجة، وحينئذٍ لن يعود أيّ اسم كمثْلِ اسم سوهار يفسد سكينتي، ولكن إذا كان بإمكاني أن أستعيد، حين يضيء وجه ابني فجأةً مثل مصباح، الطفل الذي كنت أحبّه، أفلم يكن باستطاعتي أيضاً أن أتعلّم أن أحبّ ولو قليلاً الرجل الذي صاره والذي لم يظفر أساه وحقده في حجب الطفل الذي كنت أحبّه، ولكن هل كنت أحبّه حقّاً، هل كنت أحبّه فعلاً كما يجب؟...

وضعت شوكة الطعام جانباً ومسحت شفتيّ. كان بطني يتخبّط. وهذا لا يمكن رؤيته لأنّ الطاولة تحجبه.

- رالف!

انتفض ابني. كفّ الكلب عن النباح وطوّقنا الصمت.

قلت:

- عليك أن تجيب على رسالة لانتون، لا مفرّ.

قال رالف بصوت شديد البرودة:

- هل تعرفين ماذا يطلب منّي؟

قلت:

- لا.

قال رالف:

- كيف بإمكانك إذن أن تفرضي عليَّ الرد على رسالته ما دمت لا تعرفين شيئاً؟

دفع صحنه بغضبٍ. مدّت ويلما ذراعها وداعبت رأسه. اجتذب ابني نفساً عميقاً ليهدأ.

قلت بصعوبة:

- كلّ ما أعرفه هو أنّك تعرّض حياة آنج للخطر إذا لم تردّ على رسالة لانتون.

نهض مغتاظاً وصرخ قائلاً:

- ترين جيّداً أنّه حثالة، ولكن يبدو أنّك لا تزالين تدافعين عنه!

قلت:

- لا أدافع عنه بل عن آنج.

قال ابني:

- ولكنّ الأمر منتهٍ بالنسبة لآنج.

ثمّ عاود الجلوس ببطء. أغمضت عينيّ، وكانت أذناي تطنّان. همس ابني وقد تلاشى كلّ غضبه فجأة:

- يريدني أن أعود إلى بوردو، يريد أن نستأنف علاقتنا.

قلت محبطة تماماً:

- نعم، لا يزال يحبّك.

بدأت بالبكاء:

- وماذا عن آنج المسكين؟

قال ابني:

- يبدو أنّه قضي عليه في جميع الأحوال.

سألت:

- من قال لك ذلك؟

قال ابني:

- ريشار فيكتور نوجيه.

قلت:

- هو الذي يقتله.

قال ابني:

- لا، لا أعتقد. أظن أنّك أنت يا ماما من يقتله.

جفّف الغضب دموعي، وهتفت قائلة:

- أبداً، هل تسمعني، أبداً لم أسئ لآنج!

قال ابني بنبرةٍ استرضائيّة كانت ترعبني أكثر من أيّ شيء آخر:

- ألم تنتبهي للأمر، لقد قدْتِه إلى حيث لم يكن ينبغي. في البداية، لم يكن لديه، هو، أيّ سبب ليواجه أدنى مشكلة. كان بريئاً.

التفت إلى ويلما، وكأنّه كان يريد أن يوضّح موقفاً لشخصٍ لا يستطيع أن يفهمه تماماً:

- آنج زوج أمّي، إنّه من عائلة راقية وقد تلقّى تربية جيّدة، لم يشعر قط بأنّه غير جدير بالاحترام.

قلت:

- هذا صحيح. وماذا بعد؟

قال ابني:

- لم يكن عليه أن يتزوّج بك، إلّا إذا عشتما بعيداً عن بوردو.

قلت:

- لم يكن آنج ليرغب إطلاقاً في مغادرة بوردو.

قال ابني بحزنٍ لاذع:

- حسناً فهو لن يتركَ أبداً ثانيةً مدينته الغالية.

وردّدت عبثاً وأنا في غمرة اضطرابي:

- لانتون... إنّه لا يزال يحبّك...

ثمّ لذنا بالصّمت وكان السكون مطبقاً، ورحت أتحسّر لأنّ الكلب لم يعاود نباحه.

نهض ابني كاشطاً الأرضيّة بكرسيّه، وذهب لإحضار التحلية: القشدة المخفوقة بالشوكولا. كان لا يزال مرتدياً السروال القصير بالرغم من برودة الجوّ، وكانت ساقاه الرشيقتان الناعمتان تبدوان وكأنّهما ساقا مراهق، وهما تتمايلان بخفّة.

وضعت يداً على بطني وأنا أشعر بحياةٍ غريبةٍ مشوّشة تتحرّك في أحشائي. لم أعد جائعة. كان ذاك الطعام القاتم كلّه يثير قرفي. لكنّ الرجاء المعذّب، شبه الحاقد كان يبزغ من جديد في عينَي ابني وهو يضع قصعة مليئة بالقشدة المخفوقة بالشوكولا أمامي، وهكذا توجّب عليّ أن آكل لكي أهدّئ من روعه، وأن أستطيب التحلية متلذّذة قائلة: «إم... إم..». كانت كلّ ملعقة من التحلية عذاباً. لم أعد جائعة! ومع ذلك تناولت ملعقة أخرى، ثمّ ملعقة جديدة دفعتها إلى عمق حلقي وأنا أشعر بالغثيان، والقشدة عالقة في الفم... ابتلعي وهذا يمرّ عبر الحلق، وينزل إلى المعدة... بقي فقط ملعقتان هائلتان لا يمكن تخطّيهما...

كان ابني يراقبني وبدا سعيداً لرؤيتي أتناول التحلية.

وذلك الذي في أحشائي، هل كان يستفيد من كلّ لقمة؟

قال ابني فجأة:

- كان عليك أن تتركي آنج بسلام، لم يكن يجدر بك أن ترمي بنفسك عليه، كما فعلت.

قلت:

- أرمي بنفسي؟

راح ابني يبحث عن الكلمة الملائمة ثمّ أطلق ضحكة صغيرة، أشبه بنباحٍ حادّ.

- ... أن تغويه، وتدفعيه للزواج بكِ. لو لم توقعيه في شباكك لما كان في الحالة التي هو فيها اليوم.

قلت:

- على الرّغم من سنّك أنت لا تزال تلومني على افتراقي عن والدك!

قال ابني بهدوء:

- لا أتحدّث عن أبي المسكين بل عن زوجك، وتدركين جيّداً مقصدي.

كشطت قعر قصعتي لأمنح نفسي وقتاً لأتماسك. لم أترك شيئاً يضيع من حصّتي الهائلة من القشدة بالشوكولا ولكنّي كنت غير آبهة، في خضمّ غضبي، بهدوء ابني. أُتخِمْتُ أكلاً وكنت أوشك على أن أنفجر من كلّ الجهات.

تحت أيّ شكل تحديداً سيخرج ما في أحشائي، ماذا ستكون طبيعته ودرجة قبحه؟

قلت بنبرة شاكية:

- جئت إليك لظنّي أنّ الطعام سيكون أخفّ على المعدة وأكثر توازناً.

قالت ويلما:

- لا تقلقي يا ماما سنعتني بك.

تساءلت بحزنٍ: هل كان هناك شيء من الحقيقة في تهجّم ابني عليّ؟ ولكنْ ما الداعي لإحياء تلك القصص الجوفاء والحسرات القديمة وزلّات الماضي؟ أفلا يمكن بعد سنوات من السلوك القويم أن يمنحنا الآخر نعمة المغفرة الكاملة؟ كيف لا يزال ابني بإمكانه، هو، أن يحتفظ في ركن من ذاكرته بهذا الشكّ الذي كان قد غذّاه آنذاك لأنّه كان غاضباً منّي ثمّ رماني به لأنّني انفصلت عن والده وكان يجد هذا ظالماً، ذاك الشكّ الذي وفقاً له لم أذهب إلى آنج إلّا لأرتقي اجتماعيّاً وأتبرّأ من دمي؟

آه، كنت أوّد أن أقول له، من هذا العفن المقرف الذي تتمرّغ فيه!

قلت:

- وابنتك؟ وأمّها، ياسمينا تلك، لماذا ليستا هنا، قلْ لي؟

شعرت أنّني لم أستطع ردع تكشيرة لعينة. لم أكن واثقة من سؤالي وتهدّج صوتي. أشاح ابني وجهه بصمتٍ محتقِر ولم يمنحني التفاتة.

لكنّه لم يكن هناك حين وضعت الخطط المعهودة للتقرّب من رجلٍ كان مشتهى، لم يكن ابني هناك حين طفقت أدور حول آنج لأوقعه في شَراك أحابيل الإغواء المعدّة بإتقان، لم يكن ابني هناك... ثمّ ماذا بإمكانه أن يعرف عمّا كنت أشعر به، عن الحبّ الذي كنت أكنّه لذاك الرجل، زميلي، الذي كنت أريده والذي عاهدت نفسي على الظّفر به؟ سيقول ابني لم تكوني تحبّين آنج لكن ماذا يعرف عن ذلك؟ سيقول ابني بوقاحة لم تكوني تحبّينه، ولم تكوني تبحثين إلّا عن نسيان أصلك ومن تشبهين؛ ولكن ماذا بإمكان ابني أن يعرف عن مشاعر والدته حيال رجل آخر غير أبيه؟

قلت:

- أنت لا تعرف شيئاً عن الحبّ أنت الذي تجاهلت لانتون...

قال ابني غاضباً:

- لا تحدّثيني عن هذا السافل ثانية.

غادرت ويلما الغرفة لتعود بعد قليل حاملة علبة معدنيّة مستطيلة وثقيلة ثمّ وضعتها على حافة الطاولة. قالت إنّ الطرد وصل هذا الصباح وإنّه يحوي بالضبط ما كانا يحلمان به.

أطلق ابني صيحة فرح شبيهة بتلك التي كان يطلقها، وتذكّرتها كرهاً عنّي، في صبيحات أعياد الميلاد العديدة التي قضيناها في شارع فوندوديج، وفيما كانت هذه الصرخة المتهلّلة لابننا ترسم على شفتي زوجي السابق ابتسامة حنوناً عذبة، لم تكن تثير فيّ إلّا امتعاضاً؛ كنت أحسد بطريقة تعصى على الفهم ابني رغم تدليلي له: لم أحظَ، من جهتي، بأعياد ميلاد مماثلة زاخرة بالهدايا وكنت أتمنّى في سرّي أن أراه خائباً كما كنت غالباً في مثل سنّه أمام هديّة يتيمة مختارة بطريقة خرقاء.

وبحذرٍ أخرجت ويلما من العلبة عدّة أجزاء معدنيّة وراحت تجمّعها لتعيد تركيب سلاح للصيد. ثمّ ناولته لابني الذي أخذ يروزه ويداعبه. كم كان سعيداً!

صوّب السلاح إلى صدري على سبيل المزاح. وعلى سبيل المزاح رفعت يديّ وقلت:

- الرحمة!

لعلّ نبرة المزاح في صوتي لم تكن مقنعة لأنّ ابني بدا منزعجاً وأخفض سلاحه.

32- ماذا يوجد بينهما؟

كانت الليلة الأولى في منزل ابني شاقّة فعلاً.

وكأنّ المعاينة التي أجرتها لي ويلما منحت تحفيزاً مفاجئاً، لا بل جرأة، للظاهرة التي كانت تسكنني (إلّا إذا كان لحم الطريدة المطهوّ بالصلصة قد جعلها تنمو فجأة، قلت في نفسي)، كانت تشنجات تعبر كلّ جسدي وكذلك ما بدا لي وكأنّه مخالب متوحّشة، مسعورة تنشب في أحشائي.

قلت لويلما حين قررّتُ، بعد أن استنفدت كلّ الوسائل، أن أخرج من سريري في عزّ الليل لأطلب مساعدة أو مواساة:

- لكأنّها مجموعة قططٍ صغيرةٍ موضوعةٍ في كيس.

قرعت على باب غرفتها وسرعان ما فتحت لي ويلما وكانت لا تزال مرتدية ثيابها. كان مصباح ليليّ صغير يضيء الغرفة بنعومة. لمحت خلف ويلما أسلحة عديدة من معدنٍ لامع معلّقة إلى الجدران. كان الرأس الأسمر لابني بارزاً من الأغطية، جامداً. كان نائماً.

همست ويلما:

- لا أستطيع أن أعطيك شيئاً الآن. يجب أن أفكّر في علاج خاصّ لك ماما.

قلت:

- ولكنّي عبثاً أحاول أن يغمض لي جفن.

هزّت كتفيها مظهرة لطفاً عاجزاً. ثمّ أشاحت بصرها عنّي. كنّا ننظر معاً إلى الشعر الأجعد لابني الغارق في الوسادة. كان جامداً وكأنّه لم يعد يتنفّس، لكن لماذا؟ تساءلت، ولِمَ كنت أشعر بأنّ هذه المرأة تحرسه كأنّها سجّانته؟

همست ويلما:

- لا ينفكّ رالف يفكّر بصاحبك لانتون هذا ويلفظ اسمه وهو يحلم.

ثمّ أضافت ساهمة حزينة:

- رالف يحبّه أيضاً، هذا واضح...

قلت:

- لانتون لديه نفوذ كبير في بوردو. إذا أراد الإساءة لآنج فعل ذلك بسهولة تامّة.

قالت ويلما بلهجةٍ قاسية:

- ولكن ماذا بإمكانه أن يفعل له قولي؟ ليلة سعيدة ماما، حاولي أن تنامي ولو قليلاً.

بدأ ظلّ كثيف الشعر بالزمجرة عند السرير حيث كان ابني غارقاً في النوم. قفز الكلب أرنو على الأرضيّة وراحت مخالبه تكشط الخشب. أعادت ويلما إغلاق الباب.

وهذه المرأة المخيفة هي التي اقترحت على ابني رالف أن أرافقه في جولاته التفقديّة لمرضاه. ووافق ابني بكلّ سرور.

كانت الصبيحة مشرقة وجليديّة. أكّد ابني أنّه يجب تناول اللحم عند الإفطار لكي أقدر على مواجهة الساعات الآتية الطويلة وبرودة النزول من الجبل. اقترح عليّ تذوّق فطيرة لحم الأرنب البريّة بالفستق. وإذ لاحظتُ أنّ ويلما تقطع منها قطعة كبيرة وأنّه لم يعد هنالك على الطاولة إلّا قصعة القهوة والخبز، قبلت بحصّتي من فطيرة لحم الأرنب البريّة التي قدّمها لي ابني بابتسامة مشجعّة. ومن جديد كان الطعام لاذعاً، مُسكراً بشكلٍ خفيف، لكنّ الرضى الهادئ الذي لم يعد مذعوراً والذي كان يجعل

ملامح ابني مسترخية فيما كنت أتناول الطعام دون شهيّة أو لذّة، بدا لي وكأنّه مكافأة على الجهد الذي كان يتوجّب عليّ القيام به لكي ألتهم لحماً بريّاً في مثل هذا الصباح الباكر.

أخذت ويلما قطعة أخرى كبيرة وراحت تأكل بنهم واضح. كانت تلتهم الفطيرة دون خبز، بالشوكة، وتحتسي بين لقمةٍ وأخرى جرعات كبيرة من القهوة المرّة.

كنت أودّ أن أقول لابني بنبرة مازحة:

- آمل ألّا تكون الطفلة، صغيرتك، هي التي نتلذّذ بها على هذا النّحو.

ولكنّي لم أقل شيئاً من هذا. كان يبدو لي أنّ نهم ويلما يجعله منزعجاً أمامي. ومع ذلك فهي كانت أنيقة وجميلة، ورشيقة جدّاً في مبذل من الحرير البنفسجيّ، وغير مكترثة بالبرد. حين طلبت منّي مرافقة رالف الذي كان يتوجّب عليه زيارة مرضاه، فعلتْ ذلك بلهجةٍ رقيقة وملحّة.

فهل كانت تريد إذن حارسة بالقرب منه دوماً؟

في الردهة، وضع رالف على كتفيّ سترة من الفرو.

قال:

- لستِ مجهّزة كما ينبغي.

دفعت بشكل غريزيّ سترة الفرو عنّي فانزلقت على الأرضيّة.

قلت:

- اعذرني لكنّي أكره وبر الحيوانات!

التقط السترة وأمسك بها وكأنّه كان يداعبها.

ثمّ قال:

- ومع ذلك عليك أن تتعوّدي عليه.

فقلت:

- وكيف ذلك؟

لم يجب. ابتعد باتّجاه الباب. كان يحمل محفظة طبيب ويرتدي معطفاً طويلاً من الجلد الخمريّ. سألته:

- هل قالت لك ويلما ما رأته في المنظار، هل هذا ما تقصده؟

هزّ رأسه بعنادٍ ليفهمني أنّه لن يجيب.

ثمّ قال:

- هيّا ماما لنذهب.

قالها بشيء من الرقّة (ولفظ كلمة ماما هذه بشيءٍ من الحنوّ) حتّى أنّ شفتيّ بدأتا بالارتجاف جاهزتين لترطنا بشيء لم يكن يخرج منهما مع ذلك وكنت لا أزال أجهل معناه والغاية التي يتوخّاها.

على الرصيف أمام المنزل، كانت بعض النساء ينتظرن متجمّعات في الهواء البارد الساطع. كنّ جميعهن قصيرات القامة مثلي، وعميقات السمرة ومتجهّمات ولهنّ عينا ويلما الدعجاوان المديدتان، وكنّ يرمقنني بنظرات فضوليّة مرحة.

سألت ابني همساً من تكون أولئك النسوة.

قال:

- مريضات يتعالجن لدى ويلما.

وأضاف أنهنّ كنّ يسكنّ المنازل الصغيرة المتلاصقة في أسفل الكنيسة، في الجهة الأخرى من الطريق.

قال ابني:

- بإمكانك الذهاب لزيارتهنّ، فهنّ يصنعن أقنعة جلديّة كتلك التي

رأيتها في ردهة منزلنا.

سألته ما لي وللأقنعة. تردّد ابني في الإجابة. مدّ ذراعه وفتح عن بعدٍ أبواب سيّارته. ثمّ نظر للمرّة الأولى مباشرة إلى عيني، على ما بدا لي.

- بإمكانك أن تطلبي منهنّ صناعة قناعٍ لوجهِ كائنٍ عزيزٍ. وهكذا يلازمك معلّقاً إلى الجدار، ويراك تروحين وتجيئين.

وضع ابني محفظته في صندوق السيّارة ثمّ استوى أمام المقود. استدرت مهرولة نحو المنزل. شيّعتني النساء بنظراتهنّ لاهيات. هل كان ذلك لرؤيتهنّ جوانب صدريّتي تلوح في الهواء لأنّي لم أعد أستطيع تزريرها بسبب بطني المنتفخ؟ سمعت ابني يناديني. صرخت دون أن أستدير:

- أعود بعد دقيقة!

دخلت المنزل ثانية وقلبي منقبض، قلبي الذي لم يعد ذاك الهرم، قلبي العجوز منطبعاً بفتوّة جديدة، خافقاً ببلاهة على اتّساق مع أيّ قلب متوحّش!، اقتربت من القناعين اللذين عاينتهما في الردهة قبالة رؤوس الخنازير البريّة المصبّرة. كانا مصنوعين من الجلد الرقيق، الأملس، البنيّ الفاتح. كان أحدهما يمثّل وجه امرأة شابّة، والآخر وجه طفلة صغيرة. كان الأوّل متجهّماً كئيباً: الفم ملتوٍ والعينان الزجاجيّتان مفعمتان بحزن غامض. وكان الثاني، قناع الطفلة، برغم تشابهه مع الأوّل بملامحه وشكله، مبتسماً، بهجاً.

كانتا إذن هناك، قلت في نفسي... ولكن هل كانتا هناك فقط؟ انتبهت إلى جلبة خافتة آتية من الدرج. كانت ويلما، التي تقف جامدة على الدرجة السفلى، تراقبني شابكة ذراعيها على بذلتها كطبيبة نسائيّة. ما أغرب ضخامة ربلتيها قياساً إلى قامةٍ بهذه النّحافة، قلت في نفسي بطريقة تلقائيّة. بدت غاضبة، متوترّة.

وبحركة رشيقة من معصمها، بدت وكأنّها تريد أن تطرد وجودي وتمحوه من أمامها.

قالت:

- ستجعلين رالف يتأخّر. عليك أن تكوني برفقته.

قلت:

- ألا يمكنه إذن أن يبقى وحيداً؟

قالت ويلما:

- في العادة أنا أرافقه.

أدركت حينئذٍ أنّ هذا ما كان يغضبها، أن أترك ابني وحده في الخارج وليس بسبب تفحّصي الأقنعة.

خرجت من المنزل ثانية. بالأمس حين أرشدتني ويلما إلى غرفتي ثمّ حين عاينتني في عيادتها، ألم يكن رالف وحيداً؟ لا، لا، كان مع الكلب، كان أرنو هو الذي يحرسه.

شعرت بارتياحٍ متخاذل: كان ابني هنا، ينتظرني في السيّارة والمحرّك يهدر. هل كان يجدر بي بالأحرى مساعدته ليتفلّت من قبضة ويلما أم عليّ أن أتمنّى عدم رؤيته وهو ينتظرني بخضوع؟ آهِ، لا أعرف، قلت في نفسي، لا أعرف شيئاً ممّا يريده ابني في هذا الخصوص.

صعدت قربه، توطّدت في المقعد الوثير الذي تنبعث منه رائحة الضواري الخفيّة. انطلق ابني على الفور بسيّارته. كان وريد صغير في صدغه ينبض بعصبيّة.

قلت:

- ويلما تحبّ اللحم كثيراً.

وهتف رالف في الحال:

- لا تتحدّثي عن ويلما، لا أريد أن أسمعك تبدئين بانتقادها. أنت في ضيافة ويلما، ليس لديك أيّ حقّ هنا، ماما!

قلت:

- أنا لا أنتقد أحداً، أشير ببساطة إلى أنّ هذه المرأة تحبّ اللحم مثل... مثل حيوان ضارٍ.

قال ابني صارخاً:

- لا أريد سماع أيّ كلمة بعد!

راح العرق يتصبّب منه فجأة. خفض حرارة المكيّف في السيّارة. غمغمت قائلة:

- لكأنّك خائف منها.

انحدرنا ببطء باتّجاه البحر تاركين خلفنا الظلّ البارد والنور الجليديّ للسماء، والمنازل الرمادية الصغيرة المتلاصقة بخجلٍ في أسفل الكنيسة.

شعرت تدريجيّاً بالحرارة تلفح معدن السيّارة، ثمّ تحتدم لتجتاحها من الداخل. ركن ابني على جانب الطريق متحرّراً من حزام الأمان، منتزعاً معطفه وهو لا يزال جالساً، بالحركات الدقيقة الآليّة لذاك الذي يقوم بها كلّ يوم وفق الترتيب نفسه.

قلت:

- بودّي أن أعرف: هل صحيح أنّك أتيت إلى بوردو هذه السنة وأنّك التقيت آنج؟

قال ابني:

- نعم، هل قال لك ذلك؟

قلت:

- لا، لم يقل لي شيئاً.

كان الشعور بالإهانة والألم يسحقني. شعرت أنّني عدوانيّة وبلهاء، وأنّه ينظر إليّ بطريقةٍ ظالمة. ومع ذلك لم نكن نخفي أحدنا على الأخر شيئاً أنا وآنج؛ آهِ، تُرى هل أحببته من البداية بقدر ما كنت أقول له، كيف بالإمكان التأكّد من ذلك، وهل كنت سأحبّه لو لم يعطني الفرصة لأحيا حياة كريمة في بوردو، محترمة وراقية، كيف بالإمكان التأكّد من ذلك؟

ركن ابني السيّارة في موقف أحد المستشفيات، في بلدة صغيرة مواجهة للبحر، منازلها بيضاء خفيضة، وفيها أشجار نخيل باسقة للغاية تصارع ذراها الهزيلة دوماً الريح الحارقة. كانت عصفات ريحٍ مضطرمة تلفح وجوهنا ما إن نفتح الأبواب. كان ابني يرتدي بنطالاً قصيراً يصل إلى الركبتين وقميصاً من طراز قمصان هاواي. تردّدت في نزع صدريّتي.

قلت في نفسي: أحمل ندوبَ عارٍ سافرٍ حتّى لو لم يكن له اسم.

تركت أخيراً صدريّتي في السيّارة. ووافيت ابني إلى المستشفى ثمّ لحقته إلى قسم الأطفال حيث، حسب قوله، كان هناك مريض صغير يعوده كلّ يوم. فتح باب إحدى الغرف ودعاني للدخول.

ومن الكرسيّ حيث كانت تجلس بالقرب من السرير، والذي لم تنهض عنه، ابتسمت لي ناتالي، أو بالأحرى، أومأت بشفتيها البيضاوين، المتشقّقتين تعبيراً عن امتنانٍ وديّ لم يلبث أن محاه الحزن الذي لا يفارقها.

رأيت بطرف عيني الهيئة المشوّشة لجسد طفلٍ تلفّه كلّه الضمادات؛ آه لم أكن جاهزة بعد للنظر إليه مواجهة.

كان ابني يشدّ على يدَي ناتالي.

قال ابني مستديراً ناحية السرير (وقد بدا حنانه صارخاً حين انحنى صوب الطفل، وكأنّه والده):

- ماذا أيّها الرجل الصغير، كيف حالك هذا الصباح؟

وضعت ناتالي يدها على جبينها بالذات، رافعة شعرها الشاحب. وبما أنّ الطفل لم يجب، تمتمت أنّ حالته لم تكن جيّدة على ما يبدو.

ثمّ نظرت إليّ بعينيها الزرقاوين الصافيتين المطوّقتين بهالاتٍ حمراء. رسم الحزن تكشيرة على فمها أقرب إلى التهكّم. اجتزت ببطءٍ الخطوات الثلاث التي كانت تفصلني عن الكرسيّ حيث تجلس عاجزة عن النهوض، مسمّرة تعباً أو حزناً أو خوفاً (هل ستبعد عن الطفل شبح الموت إن هي لم تفارقه بنظراتها؟) وبالبطء ذاته، وبمشقّة، جثوت أمامها واضعة جبيني على فخذيها.

ما انقضت بضع ثوانٍ حتّى سعيت للنهوض مستندة هذه المرّة بيديّ إلى فخذي ناتالي الهزيلتين. هل أثقلت كثيراً على عضلاتها؟ لأنّها كشّرت ألماً.

تراجعت نحو الباب محاذرة قدر الإمكان عدم النظر إلى السرير.

كان ابني محرجاً ويتظاهر بعدم الاهتمام بي. تحدّث إلى الطفل بحماس مفعمٍ بالتشجيع، لكنّه إذ رآني ساجدة شعر إزاء ذلك بالانزعاج وربما بشيءٍ من الخجل الغاضب. تمتمت مودّعة، ثمّ ولّيت هاربة من الغرفة. اصطفق الباب خلف ظهري واهتزّت لاصطفاقه جميع الأبواب الأخرى.

33- صرّة من الذهب، صرّة من الفضة

حين عدت إلى موقف السيّارات أيقنت أنّه سيكون مستحيلاً عليَّ انتظار ابني في مثل هذا الحرّ بالقرب من سيّارته.

التففت حول المستشفى وتوغّلت في طريق ظليل تحفّ به جدران المنازل الكلسّية العالية التي لا يلمح عبرها لا الباحات ولا الحدائق. كانت النساء القليلات اللائي التقيتهنّ قصيرات القامة سمراوات. ألقين عليّ التحية بإشارة لطيفة من الرأس، وأحياناً بعبارة لم أفهمها، في لغة قريبة مع ذلك من لغتي كما لو أنّ الحرّ وثقل الهواء قد مدّدا أصوات لغتي وأطالا أحرف العلّة فيها وأبطآ الإيقاع.

في اللحظة التي مررت فيها أمام باب منفرج، استوقفني لحن بعيد، غناء خافت كان جزء من كياني يعرفه، والجزء الآخر لا يتذكّر منه شيئاً ويدفعني إلى متابعة طريقي بحيث إن قدميّ كانتا تتردّدان وترتطم إحداهما بالأخرى.

أرهفت السمع، كانت برودة الغرفة التي انفرج بابها قليلاً مشبعة برائحة ليست بغريبة عنّي، أو ماذا لو لم تكن غريبة فعلاً؟

أحسست بأنّني أرتعش وأنّ عرقاً بارداً كان يتصبّب منّي. أردت الابتعاد ومع ذلك بقيت في حالة انتباه وتيقّظ.

تناهت الأغنية إلى سمعي بوضوح أكبر، والصوت، صوت امرأة عجوز، كان صوتاً متهدّجاً ولكنّه لا يزال ثابتاً، معانداً. كنت أعرف الأغنية، أعرفها كما أعرف هذه الكلمات:

هيّا ارقصي يا صرّتي المليئة ذهباً

هيّا ارقصي،

ليس كمثلِ الله أحد،

هيّا ارقصي على نغم البالا(1)

يا دجاجة صغيرة بيضاء، هيّا ارقصي!

ألم أردّد هذه الكلمات بصورة متعثّرة بعد تلك التي كانت تغنّيها لي بهذا الصوت الذي كنت أسمعه من جديدٍ مع أنّ العمر أوهنه وشوّهه، ذلك الصوت الذي كان صبوراً وفرحاً وصلباً خلف الدّعَة الظاهرة؟

لا، ما من أغنية عرفتها وحفظتها عن ظهر قلبٍ مثل هذه الأغنية، حتّى لو كنت قد نسيت أنّني أعرفها، حتّى لو تعمّدت ألّا أغنّيها لأيٍّ كان. توقّف الصوت فجأة عن الغناء كما لو أنّه كان يعرف أنّ أحدهم يستمع إليه سرّاً.

استأنفت السير في الشارع الدافئ والعذب مرتاعة لفكرة أنّ خطوات سوف ترجّع صداها خلفي، وأنّ يداً مجعّدة وقويّة مع ذلك ستتشبّث بكتفي، وأنّه بهذا الصوت ذي النبرة القاسية في لغتي أو في لغة أخرى جهدت لأنساها، ولكنّي سأعرفها رغماً عني، ستقول لي العجوز:

- أهذه أنت ناديا؟ كم صرت سمينة!

وبمَ سيكون عليَّ أن أجيبها؟ هل عليَّ أن أصطنع الدهشة، أن أنفي أنّني كنت ناديا، متحدّثة بهذه النبرة الحادّة قليلاً، بهذه الطريقة العجول التي

(1) البالا bala، وبالفرنسية: balafon، آلة موسيقيّة موسيقية من أفريقيا الغربية تشبه الزايلفون xylophone.

بتّ أتقن الاسترسال فيها دون جهد، منمّقة إيّاها ببعض الكلمات المتكلّفة المصطنعة التي لن تفهمها هذه العجوز الأميّة والتي ستجعلها تتراجع إلى الوراء وكأنّ رصاصة أصابتها في ملء صدرها؟

ولكنّ هذا لا يُعقل، قلت في نفسي، لا يمكن أن تكون هي، لا يمكن أن تكون أمّي.

تعال ارقصْ مع تلك المتوحّدة.

أيّها الشيء الهشّ، سأرقص؛

ليس كمثلِ الله أحد!

بعد وصول والديّ إلى بوردو، لم يغادرا قطّ حاضرة أوبييه حيث كانت لأبي وظيفة مساعد بستانيّ، وكان والداي اللذان يجمعهما تخاذلهما يلتصقان بالجدران كمطلوبين للعدالة يتواصل البحث عنهما لارتكابهما جريمة نكراء، ويتصرّفان حيال كلّ موقفٍ وكأنّهما مذنبان؛ هل يعقل أن يكون هذان الشخصان الفزِعان اللذان بالإمكان اتّهامهما بأيّ جريمة كانت دون أن يبادرا للدفاع عن نفسهما (وربّما قد يمدّ كلٌّ منهما معصميه للأصفاد لتسهيل المهمّة، ويعتذران عن التسبّب بالإزعاج) هل يُعقل أن يكونا هنا، بعيداً عن منزلهما، ينشدان بهناءة أغنية «صرّتي المليئة ذهباً»، ولمن كانا يغنيّانها، لأيّ أذنين صغيرتين، وفي أيّ رأس طفل صغير ستنغرز إلى الأبد هذه الكلمات التي ظننتُ خطأً أنّها امّحت من ذاكرتي، **هيّا ارقصي يا دجاجة صغيرة سوداء على نغم البالا؟**

هذا محال، هذا محال، قلت في نفسي.

لكنّ أيّ خطوة مستعجلة لم تتقدّم في أثري، وأيّ يد لم تتشبت بكتفي. ومع ذلك فإنّ القلق ظلّ يمسك بي متجسّداً من خلال الحاجة الملحّة لإفراغ أمعائي.

ولم أكفّ عن التمتمة:

- ولكن أين، أين، بربّكم أين؟

تقدّمت بخطى صغيرة متشنجّة وبي خشية من سقطة مريعة.

عودي إلى منزل الصرّة المليئة ذهباً، توسّلي إليهم أن يسمحوا لك باستخدام المرحاض، وإذا كانت أمّك العجوز هناك فلن ترفض لك هذا الطلب...

كان الشارع يفضي إلى الجادّة على الواجهة البحريّة. كانت الريح الساخنة محمّلة بالرمل الذي يجلد الوجه ويخز العينين.

كنت تائهة على حافّة الاستسلام (وبي توقٌ، بسبب إرهاقي، إلى تدفّق البول الدافئ الذي لا نستطيع حياله شيئاً) فأسرعت بالدخول إلى حانة في زاوية الشارع. وأحسست بأنّ عينيّ تغرورقان بدموع الامتنان حين ألفيتُني بعد قليل في خلوة المرحاض، جالسة متنعّمة ومستعيدة كرامتي من جديد.

كانت أصوات رجال تدمدم هانئة في القاعة. كان بعضها ينفصل بنبرة أعلى، في ضحكة وجيزة، أو دهشة... وبين هذه الأصوات... كنت لا أزال جالسة على مقعد المرحاض، وانحنيت صوب الباب. انطلقت نكتة بتلك اللغة التي لا أستطيع فهمها. استقبلتها بعض الضحكات، متساهلةً، ودوداً، ثمّ تكلّم الرجل نفسه ثانية.

كنت أعرف هذا الصوت الرنّان، حتّى لو اشتمل على بهجةٍ لم أسمعها فيه من قبل... كان متحرّراً من ارتجافه... من تواضعه المفرط والمَرَضيّ...

بدا هذا الرجل منصرفاً إلى إخبار النكات، وكان هذا أمراً غريباً فعلاً...

وأعاد عارض إسهال جديد لصقي بالمقعد الذي كنت أتهيّأ للنهوض عنه.

كان هو فعلاً، كيف بالإمكان الشكّ في الأمر بعد سماعي صوته؟ هل جاء والداي للإقامة هنا عقب تقاعد أبي من مهنته التعسة كمساعد بستانيّ؟

وضعت جبيني لصق الباب وأغمضت عينيّ. ارتجفت، ارتعشت برداً. كان بطني المنتفخ يستند على ركبتي منتظراً أن يحين خلاصه.

من الآثام الي ارتكبتها، أيّها تحديداً كان هذا الشيء يعاقبه، هذه الفظاعة المستترة في أحشائي؟

ها أنذا قد صرت في الشارع الصغير، سرت ببطء في الاتّجاه المعاكس، منصاعة للمرور مجدّداً أمام منزل الكيس الصغير الذهبيّ حيث عاد لتوّه بالتأكيد، قلت في نفسي، الرجل ذو الصوت الأَرِن الذي كان أبي دون أدنى شكّ، أبي العجوز، الذي لم أره في قاعة المقهى حين غادرت المرحاض أخيراً.

لا بدّ أنّه وقت الظهيرة فروائحُ اللحم المطهوّ بالتوابل والبصل ملأت الشارع.

بأيّ لهفةٍ، بأيّ سعادة، بأيّ راحة ضميرٍ وبهجةٍ كنت أصعد الدرج وأنا طفلة لدى عودتي من المدرسة للغداء حين كنت أشتمّ تلك الروائح! وكم تفاديتها فيما بعد وحاولت أن أعدّ أطعمة لا تمتّ لها بأيّ صلة، لا بل كنت أعود أدراجي إذا ما قادتني إحدى النزهات صدفةً أمام بابٍ أو نافذة كانت تتسرّب منهما هذه الرائحة أو ما بدا لي أنّه نفحة منها!

كان جوع، جوع رهيب يجعل فمي جافّاً. بات منزل والديّ قريباً جدّاً. كان بإمكاني رؤية الباب مفتوحاً. لم أكبح جماح سيري إليه. لكنّ انبهاراً شوّش عليّ الرؤية. كانت حرارة الظهيرة قائظة مسعورة فما بالك بشمسها؟، ولكنّي كنت أدرك جيّداً أنّه لم تكن الشمس فقط هي ما يبهرني.

توقّفت ليتسنّى لي الرؤية السليمة من جديد. ثمّ اقتربت من الجدار المواجه لبيت والديّ لأكون بعيدة قدر الإمكان عنه حين سأمرّ من أمام الباب، ثمّ وافت اللحظة التي كنت فيها بالضبط قبالة الباب المفتوح للبيت الجديد لوالديّ العجوزين التعسين اللذين كنت أعلنت لآنج كونهما ميّتين، دون أن يرفّ لي جفن أو أرتعش مع أنّني كنت أعرف أنّ هذا ليس صحيحاً، وأعرف أيضاً، إذ لا أستطيع أن أجهل ذلك، أنّ صمتي وتنكّري الضمنيّ والأرعن سوف يعجّلان حتماً بموتهما الحقيقيّ الذي سأعلم به عاجلاً أو آجلاً، عن طريق الصدفة، ولكن لن يكون بمقدوري إعلانه لآنج بل سيظلّ سرّاً معيباً مدفوناً في حنايا قلبي النذل.

رحتُ أتملّى منزل والديّ. كنت متقبّلة ومستعدّة لأن تلتقي نظراتي بأدنى نظرة منهما، وأن أجتاز المسافة التي كانت تفصلني عن الباب.

سأدخل بيسرٍ كليّ وألقي التحيّة عليهما وكأنّ شيئاً لم يكن، وكلّ هذا بطريقة لائقة دون استعراض للانفعالات قد يزعجنا نحن الثلاثة.

من مكاني، في الجانب الآخر للشارع الضيّق، كانت الغرفة تبدو معتمة لفرط ما كان النور باهراً في الخارج. لمحت طاولة وخزانة ومجلى.

كان ابني جالساً عند طرف الطاولة، وأمامه صحن ملآن. كان يقرّب ملعقة من فم فتاة صغيرة جالسة على كرسيّ عالٍ. كانت تفتح فمها ثمّ تغلقه وكان ابني ينفجر ضاحكاً موجّهاً الملعقة نحو فمه بالذات، متناولاً

القليل القليل ممّا تحتويه الملعقة بين شفتيه ثمّ يمدّها من جديد للطفلة فتلتهمها في الحال.

قبالتهما جلس عجوزان، رجل وامرأة، وقد عرفتهما، مع أنّهما كانا يديران ظهرَيهما لي، إنّهما أبي وأمّي. كانا جالسين أمام الطاولة وذراعاهما تتلامسان. كان شعر أبي أبيض، خفيفاً، وشعر أمي مغطّىً بلفاع أصفر.

وفجأةً رفع ابني عينيه وتلاقت نظراتنا لبضع ثوانٍ. شرارة الغبطة التي كانت تحرّك كيان ابني تريّثت في عينَيه وعلى شفتيه المنفرجتين، ولكنّني رأيتها تنطفئ تدريجيّاً حالما أدرك أنّني كنت هناك وأنّني رأيته.

34- ماذا فعلتُ بهذا الفتى؟

عدت مسرعة إلى موقف المستشفى. كانت سيّارة ابني لا تزال مركونة هناك تحت الشمس الساطعة.

كان أحدهم يركض خلفي، إنّه ابني، ومن دون كلمة صعدنا إلى السيّارة كلّ في مكانه. كان الجوّ حارّاً جدّاً فما أمكنني إلّا التذمّر.

شعرت أنّ ابني غاضب، وليس محرجاً كما ظننتُ أنّه سيكون. شعرت أيضاً أنّ السخط المتبرّم الذي كنت أشعر به حياله منذ وقت طويل، مذ ترك لانتون، أو ربّما قبل ذلك، ومنذ الأزل **(ألم يحصل هذا حقّاً؟ ألم أتخلّص بوحشيّة من قبضة عناقه حين، في شارع فوندوديج، سقط ذاك الطفل، الملاطف والمفعم قلقاً، إلى الخلف وارتطمت جمجمته بالبلاط، ألم يحصل هذا حقّاً؟ وبعد أن انتشلته وحملته، وكنت قلقة من أجلي أكثر ممّا كنت من أجله، ألم أطلب منه في الحال ألّا يخبر أحداً؟ أجل، كيف بإمكاني أن أنفي ذلك، لا بل كنت مستاءة منه لأنّه كان يرغمني على مثل هذا التصرّف، على مثل هذا الفقدان لرباطة جأشي وجعله شريكاً لي في كتم**

السرّ التافه، لأنّ كلّ شيء فيه كان يغيظني خفية)، شعرت أنّ هذا السخط ما عاد يسكنني.

كنت أوّد أن أضع يداً على فخده وأن أقول له ذلك، وأن أعترف له بتلاشي غضبي، ولكنّي لعدم جرأتي لذت بالصمت جامدة قربه هو الذي كان تبرّمه وحقده يفاقمان ثقل الصمت.

انتهج من جديدٍ طريق الجبل. كان الظلّ المنعش يخيّم علينا. ثمّ سألته مدمدمة:

- لمَ استدعيتهما؟

فصرخ ابني قائلاً:

- من؟

قلت:

- جدّاك.

قال ابني بلهجة قاسية:

- لأنّهما كانا يشعران بتعاسة خانقة هناك، في مدينتهما المرعبة، هذا هو السبب.

قلت:

- ولكنّك لم تكن تعرفهما، لم أصطحبك أبداً إليهما عندما كنت صغيراً.

فزجرني ابني قائلاً:

- وماذا بعد؟ إنّهما جدّاي في جميع الأحوال أليس كذلك؟ تلك هي المشكلة على أيّة حال: أنّني لم أعرفهما في وقت أبكر بسببك، فمن الصعب أن يكون الإنسان مرتاحاً وطبيعيّاً حين يتأخّر إلى هذا الحدّ عن الالتقاء بذويه.

أوقف بغتة السيّارة بالضبط في المكان الذي خلع فيه صباحاً معطفه الجلديّ. كان يشتمّه ويزرّره عندما سألته بيُسرٍ أدهشني أنا نفسي:

- وهل الصغيرة هي سوهار؟

همس ابني:

- نعم.

هل تعيش معهما؟

نعم.

قلت:

- إنّها جميلة. شعرها جميل منذ الآن.

أقلع ابني بسيّارته من جديد ورحنا نعاود صعود الطريق المقفرة، الساكنة، التي كلّما توغّلنا فيها كانت تأخذنا إلى شتاءٍ عدوانيّ. تصلّب فكّه وشفتاه وكأنّهما غارتا داخل فمه. لم يقل لي شيئاً ثانية.

لا، لم أقل له قطّ إنّ والديّ توفّيا، أبقيته ببساطة غافلاً عن وجودهما، غير متلفّظة باسميهما البتّة، غير ذاكرة إطلاقاً طفولتي في أوبييه، بحيث جعلته يفهم ويتقبّل منذ نعومة أظفاره أنّ كلّ سؤال بهذا الخصوص ممنوع بتاتاً؛ أفلَم أكن آمل أن أغرس في ذهنه أن كلّ فكرة أيضاً عن هذه المسألة، ستقع تحت طائلة التحريم نفسه؟

قال لي ابني فجأةً بصوت أليم:

- لم أقل لك ذلك قطّ، الذي حصل هو أنّني يوم بلغتُ العشرين، ذهبتُ لرؤيتهما، في تلك المدينة المقرفة حيث تركتِهما يموتان.

قلت بيأسٍ:

- كان لديك عنوانهما إذن.

قال ابني:

- إنّه بابا الذي أعطاني إيّاه، بابا التعس.

لم أكن أجهل آنذاك ضعف والد ابني، وهواجسه لم أكن أجهلها، ذاك الرجل الضعيف للغاية أمام المشاعر والوساوس، لذا كنت أبقيه تحت السيطرة لتوجّسي من أنّه كان يبحث عن أوّل فرصة لينتهك القانون الذي بموجبه لم يكن يجدر بنا، بأيّ حال من الأحوال، أن نتحدّث عن والديّ لابننا، ولكنّي كنت أعرف زلّاته ومخاوفه، كنت أعرف بمَا كان يفكر: بأنّ عناية إلهيّة ستنتقم يوماً لأهلي لأنّني عاملتهم على هذا النحو بعيداً عن كلّ احترام، وكلّ ورع.

ومن جديد أوقف ابني السيّارة. ستر وجهه بيديه وسمعته يتنهّد. هل لأنّه كان يفكّر بوالده، زوجي السابق؟ أم لأنّي لمّحت إلى سوهار.

شعرت بدفق من الحنان حيال ابني، وكان وهجه يصعد إلى وجهي جاعلاً خدّي ملتهبين تماماً ورطبين.

كان يبدو لي أنّ بإمكاني أن ألفظ اسم ابنتك: سوهار، سوهار!

لمست بشكلٍ خاطفٍ رقبته.

قلت:

- رأيتُ أباك مؤخّراً، حاله جيّدة على الأرجح.

هزَّ ابني رأسه سلباً ومسح عينيه ثمّ أدار محرّك السيّارة.

قال:

- كنت أريد منه أن يأتي إلى هنا لكنّه رفض.

أَسْكَنَ امرأة مريعة في مكتبي القديم، رغماً عن إرادتي، قلت ذلك وسرعان ما شعرت بالندم لقوله.

قال ابني بصوت رقيق:

- أعرف. لا يريد أن يتركها، يقول إنّه يدين لها بالكثير.

لم يكن بوسعي الامتناع عن الضحك تهكّماً ولكنْ سرعان ما أخجلني هذا التهكّم.

قلت:

- ليتك ترسل جواباً إلى لانتون!

ربّت ابني على المقود بأظافره. في الفسحة بين الحاشيتين المغلقتين لمعطفه الجلديّ رأيت فخذه ترتجف، عارية، مسمرّة، ملساء تماماً ورشيقة كما لو أنّ القسم السفليّ لجسد ابني، قلت في نفسي، كان يحتفظ بفتوّة دائمة تجعله يبدو كفتىً في الخامسة عشرة من عمره فيما كان نضج زائد بالمقابل يضفي على نظرته هذه الصرامة المحمومة، وهذا الغياب المحتدم لحسّ الدعابة، اللذين حملاني البارحة على الارتياب بأنّ هذا الرجل المتعنّت كان ابني.

ولكن لأيّ قضية كان متعصّباً، لأيّ عقيدة؟ هل لتحقيق اكتماله الأخلاقيّ بالذات؟ آهِ، هل أقول له أنت لست طيّباً بطبيعتك مثل أبيك، هذا كثير من العذاب والتصنّع، فوق ما تستطيع نفس مثل نفسك تحمّله، فهل كان هذا ضروريّاً فعلاً؟

قال ابني:

- أبداً، أبداً لن يلقى لانتون جواباً منّي.

35- سيلقي محاضرة

كنّا أنا وابني نتناول الغداء برفقة ويلما (وكان مؤلّفاً من بطّتين بريّتين مشويّتين مع قليل من الملفوف والجزر والخضار التي لم تلمسها ويلما قطّ، متذرّعة بأنّها لم تعد جائعة بعد تناولها كميّة هائلة من لحم البطّ، ومع ذلك كان واضحاً أنّ هذه المرأة لا تهوى إلّا اللحم أو لا تقدر على تناول سواه)، وحين سألتني ويلما، هكذا عرضيّاً، إن كنت أمضيت الصبيحة كلّها برفقة

رالف، سهل عليَّ الكذب وأجبتها إيجاباً.

لم يصحّح ابني لي. واقترحت ويلما راضية مطمئنّة أن نفعل الشيء نفسه في اليوم التالي.

وعلى الرّغم من جوعي فقد ألزمت نفسي بأن أكتفي بفخذ من الطير وحصّة من الجزر. وكلّ اللحم الذي تبقّى، نظراً للكميّة القليلة جدّاً التي يأكلها ابني، التهمته ويلما بلذّة فاضحة تحمل الناظر إليها على إشاحة بصره اشمئزازاً.

بعد الغداء ذهب كلاهما لأخذ قيلولةٍ. قالا لي إنّهما سيستأنفان المعاينات في عيادتيهما عند الساعة الرابعة.

خرجت من المنزل. حتّى في هذه الساعة المتقدّمة من النهار ظلّ الطريق بارداً ورطباً مع أنّ السماء كانت صافية فوق السطوح. بدأتُ بصعود الطريق ملتفّة حول تجمّع المنازل، متقدّمة بين صفّين من أشجار التنوّب الخفيضة والهزيلة في البداية ثمّ راحت تزداد علوّاً وكثافة وعافية كلّما ذهبت صعوداً بحيث إنّني ما لبثت أن وجدت نفسي في كنف النضارة الرطبة لقبّة زرقاء حيث لا شيء كان يضجّ أو يرتعش.

بعد عدّة منعطفات يصعب من خلالها تخمين اتّجاهات الطريق، لماذا تنعطف هنا بدلاً من هنالك في هذا التوالي اللامتناهي لأشجار التنوّب المتشابهة، وصلت فجأة إلى فرجة واسعة مكشوفة.

وبدأت صيحات أطفال تدوّي من كلّ حدب وصوب. كان مبنى حديث الهندسة يجمع الخشب والزجاج والألمنيوم منتصباً في عمق الفرجة بأشكاله المستديرة والناتئة، وأمامه باحة جميلة مرصوفة راحت تتدفّق منها جمهرة من الأولاد.

اقتربت والحسرات تنهشني وكذلك الغيرة. أمسكت السياج بأصابعي. كانت أشجار التنوّب الباسقة الزرقاء والرمادية تطوّق المدرسة من بعيد. كان الأطفال الذين يرتدون جميعهم سترات رياضية ذات ألوان فاقعة يركضون ويقفزون في النهار المنتصف، في الظلّ الأبدي القطبيّ لمنحدر الجبل هذا، تحت السماء الصافية المشرقة.

شعرت في الحال أنّ تلك المدرسة جيّدة وراقية، ولا يمكن أن يحدث لي فيها أيّ مكروه. كم أودّ، قلت في نفسي، أن أعمل هنا!

كان الفرح الهادئ الذي يشعّ من وجوه الأطفال السمراء، وألعابهم الهادئة، هذا كلّه كان يؤكّد لي أنّني سأكون هناك في مكاني الصحيح ويُعيي قلبي بوخزاتٍ من الكآبة العذبة.

تركت السياج، ودخلت إلى الباحة. حلقة الأساتذة تتّسع لدى اقترابي. كانوا يقرّبون منّي، بفضولٍ ورقّةٍ، وجوههم السمراء العميقة، وينعطفون ناحيتي، أنا القصيرة القامة، مثل أشجار تنّوب لطيفة...

قلت مندهشة في البداية: آهِ أنا منهم!

ثمّ تلاشت دهشتي، ومعها انزعاجي وخجلي، وشعرت كم كان طبيعياً وبديهيّاً وإيجابيّاً تشابهي مع هؤلاء المجهولين الذين راحوا يتسمون لي بهيئة متحرّية وصَبور، واثقين من نزاهتي ومن حقّي في اجتياز ملعب هذه المدرسة.

قلت بعد التحيّات المعهودة:

- أوّد أن ألتقي بالسيّدة المديرة.

وأجابوني بلغتهم، بتهذيب وبنبرة أعرفها، نبرة والدي ووالدتي التي احتقرتها فيما مضى بكلّ كياني.

انتفضت في سرّي بردّة فعلٍ غريزيّة. وعلى النحو ذاته داهمني شعور خفيّ بالاحتقار انعكس على شفتيّ، شعرت به، عبر ابتسامة خاطفة باردة لم تلبث أن تلاشت. شكرتهم بودّ راجية في داخلي أن يُسمح لي عمّا قريب الانضمام لهذه الجماعة التي سينتهي الأمر بي لتبنّي لهجتها من جديد على غير علمٍ منّي.

اتّجهتَ نحو الباب الذي دلّوني عليه، تحت الملعب المسقوف. ما إن طرقت عليه حتّى أجابني صوت واضح بالفرنسيّة بأن أدخل، وطالعني وجه نوجيه ما إن فتحت الباب.

مرتعبة، أعدت إغلاق درفة الباب. هتف الصوت من الجهة الأخرى متعجّباً ففتحت الباب من جديد.

قالت السيّدة المديرة:

- هيّا ادخلي!

كانت امرأة شابّة باسمة الثغر، مهذّبة. ذكّرتني الارتعاشة الدائمة لفمها الواسع المكتنز بكورينا داوي في زمن شبابنا في أوبييه، وكذلك انبعث من عينيها السوداوين ظلّ من عذاب غامض، مسحة ألم قديم أو دفين على الرغم من الابتسامة.

كانت تجلس خلف مكتبها. وفوقها، قبالة الباب، ملصقٌ مثبّت بالدبابيس يصوّر وجه نوجيه: لحيته مشذّبة بعناية، شعره رماديّ مملّس إلى الخلف، وخدّاه المجوّفان وُضعت عليهما لمسة خفيفة من البودرة الورديّة. قرأتُ في أسفل الصورة: ريشار فيكتور نوجيه، في ٢٩ آب، في تمام الساعة الثامنة، قاعة الاحتفالات.

سألتها مندهشة:

- نوجيه سيأتي إلى هنا؟

استدارت السيّدة المديرة ناحية الملصق.

قالت:

- نعم، إنّه لشرف كبير لنا، أليس كذلك؟

قلت:

- ولكن بأيّ صفةٍ سيأتي؟

- حسناً، لنقلْ...

كانت مندهشة بدورها وتنظر إليّ بريبة محبّبة.

قالت:

- بصفته نوجيه، بكلّ بساطة.

- يعني؟

سألتني فجأة بصوتٍ يلوح فيه شيء من الانزعاج:

- ألا تشاهدين التلفزيون؟

قلت:

- لا، أنا وزوجي، لا نملك جهاز تلفزيون.

نظرتها التي كانت لا تزال ودودة ويخامرها مع ذلك حذر وشيء من التجرّد، انزلقت من وجهي إلى صدري، ثمّ إلى بطني حيث تريّثت مفكّرة لتعود من جديد إلى عينيّ. وبحركة واسعة من ذراعها دلّتني على مكتبة لصق الجدار.

قالت:

- لا بدَّ أن لديّ مجموعة مؤلّفاته الكاملة.

اقتربت من المكتبة وأخذت منها كتاباً.

قالت المديرة:

- هذا هو أوّل بحث صغير له عن التربية، سأطلب منه أن يوقّعه لي.

جعلتُ أتصفّحه قارئة بعض الجمل هنا وهنالك. فبدا لي أنّني أسمع صوت آنج يقول: «إنّ غرفة الصفّ يجب ألّا تكون بأيّ حال من الأحوال رحماً مريحة، بل مكاناً لصرامة معتدلة وعدالة حاسمة. يا أخوتي ماذا فعلنا بأطفالنا؟ لا يفترض بنا أن نأتيهم بالحليب، ذاك الحليب الحُلْوِ، يكفي أنّه أُعطي لهم بوفرة في سنواتهم الأولى، بل يجب أن نمدّهم بنقيضه، أي الدّم، المعدنيّ، والمنفّر، والسامي».

نعم، هي ذي تحديداً الطريقة التي كان آنج يهوى من خلالها التعبير، وكانت تزعجني وكنت قد تعلّمت أن أسدّ أذنيّ كلّما كان يشرع بقراءة ما كتبَ، فأنظر إليه بعينين شاردتين، مدندنةً في داخلي (هيّا ارقص يا كيسي الصغير الفضيّ!) لكي أتوه عنه ولا أعود أسمعه.

أطلقت ضحكة صغيرة تعبيراً عن عجبي ممّا كنت أقرأ، وكلّما قلّبت الصفحات، كانت الحقيقة البديهيّة تنجلي لعينيّ: كانت هذه المواضيع تشكّل بالضبط مادّة المقالات التي كان آنج ينجح ليس من دون مشقّة أو من دون فخر متعاظم بأن ينشرها في بعض المجلّات، ولم أكن أستطيع حينذاك أن أتجنّب قراءتها لأنّ ذلك كان سيتسبّب له بإزعاج شديد. بدا لي أنّني كنت أقرأ لديه شذرات جمل أعرفها، وتعابير، وحتّى نَفَساً ما، بدا لي أنّني كنت أسمع آنج يتنفّس!

أعدت الكتاب إلى مكانه واستدرت نحو السيّدة المديرة. كانت بقيّة من أمل تحدوني لأن أسألها:

- هل تعرفين آنج لاكوردير؟

قالت لي:

- لا.

كتب مقالات عن هذا الموضوع، إنّه...

قاطعتني السيّدة المديرة وهي تبتسم ابتسامة يلوح فيها بعضٌ من عجرفة:

- غالباً ما يُنْحَلُ ريشار فيكتور نوجيه، لكنّ أسلوبه الخاصّ به يسهل تمييزه في الحال. على أيّة حال، هناك ناحلون يصعب تمييزهم عن الأصل، هذا صحيح.

- متى أصدر كتابه الأوّل؟

قالت السيّدة المديرة:

- منذ عشرين سنة على الأقلّ.

لم يكتب آنج مقالة بهذا القِدَم... لكن لو كان نَحَلَ نوجيه أفما كان سيُعرَف؟ هل يستحيل أن يفكّر شخصان بالشيء نفسه بعبارات مماثلة مع فارق زمنيّ بينهما؟

انتهت الفرصة. سمعت الجرس يُقرَع. اختلست السيّدة المديرة نظرة إلى ساعتها، بطريقة ساحرة. تلفّظت ببضع كلمات في هذه اللغة التي لا أعرفها أو التي ربّما عرفتُها ونسيتها لفرط ما لعنتُها، وإذ رأت أنّني لا أفهم ما تقوله، ارتبكت قليلاً وكأنّ القلق ساورها فجأة لأنّها قاربتني باعتباري نظيرة لها، كما لو أنّه كان بإمكاني أن أكون عدوّة محتجبة خلف وجه صديق.

قالت مبتسمة ابتسامة اعتذار:

- يجب أن أستأنف عملي.

قلت:

- نعم، بالطبع.
شبكت يديّ على صدري.
قلت بنبرة أكثر توسّلاً ويأساً ممّا كنت أرجو:
- أليس لديك عملٌ ما تعهدين إليّ به في مدرستك؟ أنا أستاذة وأمارس مهنة التدريس منذ زمن طويل!
جمدت ذهولاً وانزعاجاً. لم تستطع أن تمنع عينيها من أن تتفحّصاني مرّة أخرى وبسرعة كبيرة من قمّة رأسي إلى أخمص قدميّ.
أجابتني بتروٍّ:
- أنا آسفة، ليس لدينا منصب شاغر.
هزتّ رأسها كما لو أنّها كانت تستدرك كلّ إلحاحٍ من جانبي. ومع ذلك استأنفت كلامي متوسّلة:
- أستطيع الاكتفاء بالمراقبة أثناء الفرص وأوقات تناول الطعام في مطعم المدرسة.
قالت السيّدة المديرة بتهذيب ورهافة:
- لكنّك لا تتحدّثين إلّا الفرنسيّة على ما يبدو. وهذا لن يوافق تلاميذنا.
قلت:
- أشعر بأنّني قادرة تماماً على تعلّم لغتكم.
تنهّدت رافعةً كتفيها. نهضت مشيرةً إليّ بأنّ عليّ الذهاب. آهِ، لا رغبة لي إطلاقاً في الرحيل.
في الواقع، لغتكم أعرفها، وددت أن أقول لها؛ في الواقع، أنا أتظاهر بأنّني لا أعرفها، ولكن ما من لغة أخرى كنت أعرفها بهذا الشكل الوثيق، اسمحي لي بالبقاء، أتوسّل إليك.

لم تكن لديّ في الواقع أيّ رغبة في الرحيل. كم كنت أشعر بالارتياح وبالأمان فعلاً في هذه الفرجة التي تحفّ بها أشجار التنّوب الزرقاء الجامدة المتنبّهة وتحت النظرة الودود الراعية للأساتذة الذين يشبهون أشجار التنّوب الباسقة المتعاطفة. أمّا ما يختلج ويتخبّط في بطني أفلن يفضي به الأمر للاستسلام في مثل هذا الجوّ الخالي من الأحلام الموبوءة؟

وضعت السيّدة المديرة يدها بين كتفيّ ودفعتني برفقٍ خارج المكتب. بات الملعب فارغاً، وساكناً. وحده هدير خافت كان يتناهى من الصفوف المقفلة أبوابها، وبدا وكأنّه يحرّك قليلاً الهواء الصافي المتجمّد لشدّة صفائه.

كان عليّ فعلاً والحالة هذه الخروج من المدرسة، والابتعاد عن الفرجة. التفتُّ مرّة أخيرة قبل أن ألج الطريق. شيّعتني السيّدة المديرة بنظراتها من البوّابة. رفعت يدها ولوّحت لي بها على مهل.

36- في شارع «إسبري ديه لوا» يشربون ويضحكون

لدى عودتي إلى منزل ابني، تجرّأت على رفع سمّاعة الهاتف في غرفة الطعام. طلبت رقم بيتنا في بوردو.

كان منزل ابني مليئاً بهواء راكد، ولكنّ الجوّ متجمّد ههنا موتاً وإكراهاً ورعباً، قلت في نفسي وقد أتاني حدس قاطع، الجوّ متجمّد أيضاً بسبب تقطيع لحوم كثيرة وفرمها ومزجها فيما بينها. بدا لي أنّني سمعت أرنو يلهث خلف باب العيادة.

رنّ الهاتف طويلاً. وحين رُفِعَتِ السّماعة، بقيتُ صامتة، والانفعال يخنقني.

قال صوت نوجيه:

- هذه أنت ناديا؟

همست قائلة:

- كيف حال آنج؟ بالله عليك، بالله عليك... هل يمكنني التحدّث إليه؟

لم يُجِبْ. لم أعد أسمع شيئاً وكأنّه وضع يده على سمّاعة الهاتف. هتفت:

- سيّد نوجيه؟

قال:

- نعم، أخشى ألّا يكون ذلك ممكناً. ناديا، لا، لا أستطيع أن أمرّر لك آنج.

تناهت إلى سمعي عندئذٍ جلبة ارتطام أقداح بأعناق الزجاجات، وضحكات.

قلت بحماسٍ:

- ولكن كيف حال آنج؟

قال نوجيه:

- سيّئة بالأحرى.

بدا لي بعيداً، ضجراً وكأنّه كان يجدني مزعجة بصورة لا تحتمل.

- هل تقيم احتفالاً في بيتي يا سيّد نوجيه؟

- آه، في بيتك... اسمعي يا ناديا، الأفضل أن أمرّر لك أحد مدعويّ. عليّ الاهتمام بفطيرة الكيش والمورّقة[1] وتلك الهلاليّات الصغيرة اللذيذة بالجبنة...

ووضع السماعة جانباً فجأةً (على طاولتي الرخاميّة الصغيرة؟) ونادى أحدهم.

(1) فطيرة من العجين المورّق المحشوّ باللحم المفروم.

- آلو. من يتكلّم؟

كان هذا صوت زوجي السابق، والد ابني.

قلت بصوت خافت:

- هذه أنا ناديا.

- آه هذه أنت؟ مرحباً، مرحباً!

أخذ يضحك. سمعت بوضوحٍ خلفه صوت كورينا داوي القاسي، الأجشّ. سألته بإلحاح ودِعة:

- قل لي كيف حالُ آنج!

- من هذا؟

- آنج! آنج زوجي!

- أنا زوجك. أنا يا حبّي!

وواصل الضحك، دون قسوة، بلطفٍ تقريباً. ثمّ انقطع الاتّصال. هل أقفل زوجي السابق السمّاعة؟ أم أنّ نوجيه هو من فعل ذلك؟

بدأ أرنو بالنباح. غادرت الغرفة بسرعة وهرولت للالتجاء إلى الحديقة، خلف المنزل. كانت الحديقة مهملة، تكاد تكون مزروعة فقط بأشجار الكستناء. كان الجوّ شديد العتمة حتّى أنّ الأشجار والتراب والجنبات القليلة التي باتت بريّة، وكلّ شيء هناك بدا مسودّاً. الحديقة شديدة الانحدار وملتصقة بجنْبة الجبل. نزلت بضع خطوات وأنا أَحرِف قدميّ تفادياً للسقوط. كنت أصطدم طيلة الوقت بما ظننته مُحْصَبَةً، فأدفع الحجارة أمامي وأرى أشكالاً فاتحة اللون تتدحرج. ثمّ انزلقتُ على ردفيّ برفقٍ.

بقيت لوهلة جالسة أرضاً وراحت أصابعي تنبش التراب بطريقة آليّة.

التقطت حينئذٍ إحدى تلك الحصَيات... لم تكن حصاة، إنّها عظْمة. ثمّ عظمة ثانية، ثمّ ثالثة، إنّها عظام متكدّسة، إنّها كومة عظام من كلّ حجم. لم أستطيع أن أكبت صيحة دهشة مرتاعة. نهضت سريعاً ونفضت الغبار عن ملابسي. قلت في نفسي: قتلا إذن حيوانات كثيرة، حيوانات كثيرة...

عدت أدراجي، صعوداً باتّجاه المنزل. كانت العظام تتدحرج تحت قدميّ، تحت يديّ الباحثتين عن متّكأ، وتتهاوى نحو الوادي، نحو أشجار الصنوبر المحروقة، نحو النهر ذي المياه الراقدة والقاتمة.

كانت هذه هي الليلة الثانية في منزل ابني، نهضت من نومي غير قادرة على أن يغمض لي جفن بسبب الانقباضات الفظيعة التي انتابتني. لم أعد أحتمل، اتّجهت إلى غرفة ابني وويلما. كنت على أهبة أن أقرع، لكنّي أرجأت ذلك إذ سمعت ضجّة، أنفاساً هادرة، جبّارة. هل كان أرنو هو الذي يزفر هكذا، بهذه القوّة التي يهتزّ لها الباب؟ لكنّ أرنو، قلت في نفسي، لم يكن كلباً بهذه الضخامة... كان ثمّة طمأنينة بهيميّة في هذه الأنفاس، ثقة متوحّشة، صبور، ثمّة كبرياء مستكينة ومتيقّظة في آنٍ معاً كمَنْ وضع على صدر ضحيّته رجله الثقيلة.

ابتعدت بأقصى حذر ممكن، خائفة من رؤية الباب يفتح أكثر من أيّ شيء آخر. حين صرت في غرفتي، أوصدت الباب خلفي. ثمّ فتحت النافذة متلهّفة لهواء منعش. كان قمر أبيض بارد ينير الحديقة. خطرت لي المدرسة الصغيرة في الفرجة، وتساءلت ما إذا كان الأطفال يبقون فيها للنوم أو يمضون فيها طيلة عهد الطفولة، شريطة ألّا يعودوا إلى القرية! قلت في نفسي. كانت الحسرة لعدم وجودي فوق في الفرجة البيضاء، وفي الظلّ الوديّ لأشجار التنّوب، تضنيني. كم سأولي اهتماماً كبيراً بهؤلاء

الأطفال، أيّاً تكن مشاربهم!

هل كنت عادلة ومُحبّة مع أولئك التلامذة الذين كانوا يذكّرونني بمدينة أوبييه، وكانوا قلّة في الحيّ الذي كنت أدرّس فيه، هل كنت نزيهة دوماً مع الفتيات الصغيرات اللواتي كنّ يشبهن إلى حدّ ما الفتاة التي كنتها؟ في الواقع، لم أكن لا عادلة ولا مُحِبّة ولا نزيهة مع أولئك الأطفال؛ كنت قاسية ومتعالية، لا بل متهكّمة، متمنّية في قرارة قلبي ابتعادهم وذهابهم السريع بعيداً عن مدرستي العزيزة، أفلم يحدث لي أن كنت أتخيّلهم كحمائم يمكن اصطيادها دون عقاب لفرط ما كانت كثيرة وقذرة وعديمة النّفع؟

قلت في نفسي: أمّا الآن فسأهتمّ جيّداً بهؤلاء الأطفال!

37- لا يزالان يريدان السهر على ابنتهما العزيزة

كانت بداية الصبيحة هذه في منزل ابني كسابقتها في الأمس.

قالت ويلما:

- سوف ترافقين رالف في جولته، ماما.

قلت:

- نعم، بكلّ سرور.

ورضخ ابني للأمر راضياً فيما ويلما كانت تضع في صحنها قطعاً ضخمة من لحم البطّ المفروم وتحملها إلى فمها بأصابعها، مرتعشة قليلاً من رغبة وشهيّة ترْقيان في التوّحش والضراوة إلى حدّ الألم.

وعاودتُ النزول إلى الساحل في سيّارة ابني. قلّما كنّا نتكلّم، ومع ذلك شعرت أنّه بات معتاداً على حضوري. شعرت أنّه ينسى نوعاً ما أنّ والدته التي أوحت له بالكثير من الغضب والضغينة كانت إلى جانبه. أمّا أنا فلم أنسَ أنّ لديّ هنا ابني بجانبي.

كنت سعيدة فعلاً لمرافقته في السيّارة، وكنت سأقول له ذلك لكنّي كنت أخشى ردّة فعله. ووددت أن أسأله: هل أنت من كنت تتنفّس بهذه القوّة الليلة الفائتة؟ أو: هل كنت تنتظر متدثّراً بالغطاء مرتاعاً، أن تنام هذه المرأة أخيراً؟

ركن سيّارته في موقف المستشفى. كان يريد الذهاب ليعود ابن ناتالي. قلت له:

- نلتقي هنا. لا أرغب في الصعود.

حدّق إليّ بثبات ثمّ استدار دون كلمة سائراً بخطى حثيثة نحو مدخل المستشفى، تاركاً محفظته الطبيّة الضخمة ترتطم بربلة ساقه كما كان يفعل فيما مضى بحقيبته المدرسيّة. ومن دون أن أتكلّف عناء التأكّد ممّا إذا كان يراني أم لا (لأنّ ابني كان يعرف جيّداً إلى أين ستقودني خطواتي، يعرف ذلك جيّداً وربّما كان الأمر يسرّه) عدت في الحال إلى الشارع الصغير.

سأمرّ ثانية أمام منزل والدتي، قلت في نفسي، ومع ذلك فلن أدخل، ليس بعد. شعرت باحمرارٍ يصعد إلى خديّ، وإلى جبيني أيضاً... ما كدت أخطو في الشارع الذي تضربه الرياح برفقٍ حتّى تصاعدت كلمات أغنية جديدة مدندنة في الهواء العذب المتموّج:

«أنا ألِد
أنا ألِد
الطفل يبكي
آه هل سيبكي طويلاً؟»

عرفتُ هذه المرّة أيضاً صوت والدتي مع أنّ كبر سنّها أفقده عذوبته. لكنّ صوت هذا الجرس القديم الصغير معاند، يتطاير في الشارع ويحجب دمدمة التلفزيون أو الأحاديث التي تتصاعد من جدران المنازل الأخرى.

«أنا ألِد وأتألم

أمّاه ما أشدّ ألمي!

هل سوف يبكي الطفل دوماً؟»

لم يسبق لي أن سمعت هذه الأغنية. ولكن، قلت في نفسي وبي شيء من الغيظ، هل يليق بهذه الأغنية فعلاً أن تسمعها أذنا طفلة صغيرة؟

كان صوت أمّي، صوتها الذي يشبه جلجلاً قديماً، ثابتاً يجذبني رغماً عنّي. اقتربت من المنزل. كان الباب مشرّعاً على مصراعيه. كانت والدتي تغنّي آنئذٍ بأعلى صوت ممكن. خائرة الساقين، دخلت إلى منزل أهلي.

توقّفت أمّي عن الغناء. كانت واقفة بالقرب من المجلى، صغيرة القدّ نحيلة في المطبخ الشديد البرودة. كان شعرها الأبيض مشدوداً على شكل كعكة هزيلة عند رقبتها. كانت ترتدي ثوباً طويلاً من القطن الرمليّ اللون مزداناً بزخارف عربيّة.

كانت الطفلة سوهار تتشبّث بقضبان الحاجز بأصابعها وترمقني بنظرة ضجرة قليلاً، ومتعالية. ثمّ نظرت إلى والدتي منتظرةً أن تعرف ردّة فعلها لكي تقتدي بها، على الأرجح. بدت أمّي محرجة، في حالة ترقّب، فماذا كانت تترقّب يا إلهي؟

سألتْ أخيراً بلغتِها:

- من هناك؟

ارتبكت، وهمست قائلة:

- هذه أنا ابنتك.

- أيّ منهنّ؟ سألت أمي بالفرنسيّة بعد هنيهة.

قلت:

- ناديا.

كرّرت أمي:

- ناديا؟

وضعت يديها على شعرها، كأنّها كانت تريد أن تخفيه، كما لو أنّه لم يكن لائقاً أن ترى الابنة شعر أمّها العجوز التي هجرتها هيَ. رمت سوهار بنظرة وقد بدت حائرة. قلقت الطفلة لرؤيتها الحيرة على وجه جدّتها وارتجف ذقنها. عندئذٍ جهدت والدتي للابتسام لكي تطمئنها، لكنّ سوهار المرتابة بدت وكأنّها تتحيّن اللحظة التي ستتبدّد فيها هذه الابتسامة الزائفة لكنّ أمّي احتفظت بها بشجاعة.

قلت:

- ألم تعرفيني؟

قالت أمّي:

- بلى، بلى، عرفتك.

قلت:

- لا، أرى فعلاً أنّك لم تعرفيني.

وهكذا، وبعد أن أمضيت خمساً وثلاثين سنة من حياتي وأنا أصارع بكلّ قواي بهدفِ أن يعجز أفراد عائلتي، إن التقيتهم صدفة في المدينة،

عن تذكّر وجهي ومشيتي، وألّا يلحظوا أيّ شبهة كافية تدفعهم للاقتراب منّي، وفيما حاربت لأمحو في داخلي كلّ أثر ملحوظ لتربيتي تشي به ملامحي أو طريقتي في الكلام أو في الحضور، وبعد أن كان البرهان الأعظم لنجاح هذه الجهود، ذلك الذي كان سيسعدني أكثر من أيّ شيء، هو أن ألتقي هذه المرأة دون أن أستعيد شيئاً من ذكراها الأموميّة، ها أنذا كنت خائبة بشكل غامض وشبه مصدومة.

قالت أمّي:

- اجلسي يا ناديا.

تلفظّت اسمي وكأنّها لا تريد المجازفة بنسيانه. جلست على كرسيّ أمام الطاولة. حملت أمّي سوهار وضمّتها إلى صدرها وجلست بدورها والطفلة في حضنها. سألتُها رغبة منّي في الكلام أكثر ممّا في المعرفة:

- هل تعرفين أين هي والدة الصغيرة ياسمين؟

بدأت أمّي ترتجف بكلّ جسدها من رأسها حتّى قدميها المنتعلتين شبشباً سمعته يصطفق فجأة على البلاط. امتلأت عيناها للحال بالدموع. نهضتْ وذهبتْ إلى غرفة أخرى. وحين عادت، لم تكن الطفلة بين ذراعيها. همست أمّي أنّها وضعتها في السرير. ثمّ جلست من جديد.

همست لي:

- هل رأيتِ المرأة فوق؟

- ويلها؟ نعم.

قالت أمّي بصوت خافت، صافر، أليم:

- هي التي التهمت ياسمين.

كرّرتُ:

- التهمتها؟

زمّت أمّي شفتيها لتردع نفسها عن الكلام. وبحركة رشيقة، تظاهرت برمي شيء في فمها.

همست بسرعة:

- يجب ألّا تأكلي اللحم فوق. إذا عرضتْه عليك فارفضي. لم تأكلي منه، أليس كذلك؟

قلت مرتاعة:

- لا.

لأنّني شعرت بأنّني لو قلت الحقيقة لاضطررت إلى مغادرة منزل أهلي في الحال.

مدّت أمّي يدها ملامسة يدي.

قالت:

- أظنّ أنّني أعرفك جيّداً الآن مع أنّك أصبحت سمينة جدّاً. ما الذي حدث لك لكي تصيري سمينة على هذا النّحو؟

قلت:

- إنّه انقطاع الحيض.

قالت أمّي:

- نعم، هذا محتمل، يا ابنتي الصغيرة.

أحدثت خطوات أبي صدىً أمام الباب. وإذ سمع أصواتنا، تردّد في الدخول.

قالت أمّي بلغتها وبصوت فرح:

- إنّها ناديا، هنا، ابنتك ناديا، عادت.

أطلق أبي صرخة ابتهاج.

لاحقاً، بعد قليل، في هدأة المطبخ الذي بدا وكأنّه عاد إلى ذاته، وفيما سوهار كانت نائمة، أسرّت لي والدتي:

- اصطحب رالف الصغيرة إلى هنا لكي لا تلتهمها هذه المرأة هي أيضاً. كان خائفاً.

ووافق أبي محرّكاً ذقنه بحيويّة. رمقني بنظرات خجلة ومع ذلك مفعمة فرحاً.

قال:

- نعم هذا صحيح. كان خائفاً على الطفلة.

قالت أمّي:

- هذه المرأة سحرتْه.

لم يكن في نبرة صوتها حقد ولا نقمة بل تقبّل لحكم القدر، وإقرار بالروابط التي لا يمكن فسخها. باغتُّ عندئذٍ أبي ينظر إلى صدغيّ، نظرة سعيدة مفعمة عاطفة. قلت في نفسي: لا يزال يحبّ إذن هذه المرأة القبيحة التي صرتُها، لا يزال يحبّها.

وأضاف أبي:

- لا تعودي إلى فوق وإلّا فسوف تلتهمك أنت أيضاً.

قالت أمّي:

- ابقي هنا، لدينا غرفة لك.

قلت لاهثة:

- أليس لديكما ضغينة عليّ؟

نظرا إليّ دون أن يفهما قولي، مبتسمين ابتسامة غامضة فهما كانا يجهلان

معنى هذه الكلمة.

قلت أيضاً:

- ابني المسكين، رالف المسكين، عليّ إذن أن أتركه وحيداً في هذا المنزل معها...

قالت أمّي:

- لا يمكن فعل شيء حيال هذه الأمور.

38- جميعهم برئوا

لاحظ نوجيه وجودي في الحال ضمن الجمهور الذي جاء للاستماع إليه في قاعة الاحتفالات، وإليّ أنا كان يتوجّه مع أنّ عينيه الصغيرتين كانتا تجولان الحضور بسرعة فائقة وهو يدلي بالعبارات الواضحة والصادمة لمحاضرته.

كان نظيفاً وحسن الهندام يرتدي بذلة وربطة عنق، ولكنّ جسده الملتبس، المضطرب، كان يمنعه من أن يبدو أنيقاً أو حتّى لائقاً كما يجب. تسلّلت فيما بعد إلى صفّ القرّاء المصطفيّن للتوقيع. جالساً خلف الطاولة، استقبلني بابتسامة ساخرة. انحنيت صوبه، قريبة من أذنه، وقلت:

- سيّد نوجيه، أنا جاهزة لسماع ذلك... قلْ لي... هل توفّي آنج؟

هتف متظاهراً بالاستنكار:

- توفّي؟

وانطلق بضحكة هازئة ثمّ قال:

- ناديا! ناديا! لم يسبق لآنج أن كان على هذه العافية، حسب ظنّي.

- هل هذا صحيح؟

جعلني الارتياح أترنّح تقريباً. وأخذ نوجيه ينقّب في حقيبة موضوعة عند قدميه وأخرج منها محفظة نقوده ثمّ ناولني صورة قائلاً:

- انظري، إنّه آنج مع صديقته الجديدة. الصورة ترقى إلى خمسة عشر يوماً حين ذهبنا جميعاً إلى أحد المطاعم.

كان الرجل الذي رأيته في الصورة لا يشبه آنج حقّاً. بالمقابل عرفت في الحال المرأة. إنّها كورينا داوي، وكان يلتصق أحدهما بالآخر ويبتسمان سعيدين.

قلت غير مصدّقة:

- لا يعقل أن يكون هذا آنج.

قال نوجيه:

- بلى، انظري بتمعّن.

قرّبت الصورة من عينيّ. عاينت الجبين، والأنف المستقيم، والفم المكتنز، أجل، هذا الرجل بإمكانه أن يكون آنج وقد هزل وازداد شباباً، ولكنْ بإمكانه ألّا يكون هو أيضاً.

قلت وأنا أعيد الصورة إلى نوجيه:

- أنا سعيدة حقّاً بشفائه.

قال نوجيه ببرودة:

- كان يكفي لذلك ألّا تعودي إلى هناك.

خلفي كان القرّاء قد نفد صبرهم. أردت الابتعاد، لكنّ نوجيه تشبّت بذراعي وأرغمني على الاقتراب مجدّداً.

قال بين أسنانه:

- حسناً يا ناديا، بطنك ضمر فهل ولدْتِ ابني؟

قلت:

- ماذا دهاك، إنّه انقطاع الحيض.

أطلقت ضحكة متوتّرة منزعجة من التحدّث إليه بهذا الموضوع.

قال:

- أنت محظوظة.

أفلت ذراعي مشيراً إليّ بالتنحّي وإفساح المجال لهؤلاء الذين كانوا ينتظرون خلفي.

خرجت من قاعة الاحتفالات وطفقت أمشي على الرصيف، فاصطدم رجل طويل القامة بكتفي وقال لي:

- المعذرة.

كان يرتدي قبّعة ذات واقية تضيق برأسه. في الظلّ البنفسجيّ للواقية، حدّق إليّ هنيهة. ثمّ اختفى مسرعاً الخطى وكأنّه يخشى أن أرغب في إبقائه.

لدى عودتي إلى منزل أهلي، وجدت ابني وقد جاء في زيارته اليوميّة لسوهار. كانت الطفلة مسرورة لرؤيته تغمر خدّيه بالقبلات فيما هو يداعبها ويدندن لها كلمات جميلة في أذنيها. كان أمّي وأبي هنا، جالسين أحدهما قرب الآخر، منحنيين قليلاً، وقد بدا عليهما التعب.

حين رفع ابني وجهه عن كتف سوهار، رأيت الدموع تلتمع في عينيه.

قال لي:

- بابا توفّي.

هزّني الخبر فسألت ببلاهة:

- بابا؟

رافقت ابني حتّى سيّارته. وحين استقرّ داخلها، قال لي:

- إنّه لانتون، صديقك العزيز الذي اتّصل بي ليعلمني بذلك.

قلت:

- أرأيت؟

- أنا واثق من أنّه قتل أبي بطريقة أو بأخرى، قال رالف وكأنّه حقّق ظفراً باهراً.

أقفلت باب السيّارة. حيّاني كالعادة بإشارة صغيرة من يده. رأيته يجفّف دموعه عندما استدار بسيّارته مبتعداً. لمحت أيضاً رأسه من الخلف ورقبته الهزيلة عبر الزجاج، والمسافة زادت من الانطباع الذي كانت تثيره فيَّ دوماً رؤية ابني في أنّه لم يكن في تلك السيّارة الضخمة رجلاً بل فتىً خائفاً يحاول أن يُبلي حسناً، وكلّ يوم كنت أشعر لدى رؤيته بأنّ الحنان يعتصر قلبي، قلبي اللطيف الرقيق، قلبي العجوز التعس.

عدت ببطء إلى منزل أهلي. استطعت أن أشعر عبر نعل حذائي بالحرارة الشديدة للرصيف. وتناهى إلى سمعي الصوت المرتجف لوالدتي تغنّي لسوهار:

«فارقني البؤس، فارقني البؤس
وأستطيع أن أرقص الآن.
ولّى البؤس هارباً
والآن أستطيع الرقص!»

كانت أمّي، هذه المرأة العجوز الصلبة، تحضّر كلّ يوم طبقاً من السميد بالزبدة وفراخ الدجاج المشويّة أو السمك المقليّ مصحوباً بالباذنجان

أو البندورة. كنت ألتهم هذا الطعام بامتنان دون أيّ توجّس أو خشية. وحين دخلت إلى المطبخ، وشممت رائحة الزبدة وهي تذوب في السميد الساخن، لم أستطع الامتناع عن التفكير بأنّ هذا السميد المفتّت كلّ صباح بأصابع نزيهة، هو الذي ساهم بأن يطرد من أحشائي ما كان قد سكنها مستوطناً.

لأنّ هذا الشيء الأسود واللامع والأملط، قلت في نفسي، رأيته ينزلق على أرضيّة غرفتي ذات مساء فيما كنت أخلع ملابسي قبل النوم. من أين استطاع أن يتدفّق إن لم يكن من جسدي؟ كان شيئاً أسود، لامعاً، زلِقاً، ترك على الأرضية أثراً خفيفاً من الدم وزحف باتجاه الباب.

أجل، قلت في نفسي، إذا كان يفترض بي أن أجبر على ذكره بأدقّ طريقة ممكنة، إذا لم يكن لديّ خيار آخر إلّا الكلام عنه ووصفه، فإنّ صورة الأنقليس هي ما يرد على خاطري إذا أردت أن أشبّه هذا الشيء الأسود واللامع والعابر بشيء معروف، إنّه أنقليس قصير وسمين مع أنّ من غير المستبعد أن يكون ذلك الشيء شعرة متلاصقة وململسة بفعل الرطوبة والدم والبلغم.

ترك هذا الشيء الهارب أثراً خفيّاً باتّجاه الباب.

نظّفت على الفور الأرضيّة بالإسفنجة. ومع ضآلة الاحتمال بأن يكون والداي، المنصرفان إلى مشاهدة أحد برامجهما المفضّلة على التلفزيون - حيث كانت تحاول كائنات يائسة أن تعثر على أقرباء لها مفقودين على نحو غامض- قد رأيا هذا الشيء الأسود الهارب لدى عبوره المطبخ، فإنّ أحداً لم يره أو سيقدر لاحقاً على إيجاد أدنى صلة بيني وبينه فيرغب على سبيل المثال في أن يعيده لي.

كان والداي يضحكان من كلّ قلبيهما، مثل طفلين، أمام التلفزيون. ويحدث لهما أيضاً أن ينفعلا أيّما انفعال. كانا يوّدان أن أشاهد معهما هذا البرنامج ولكن كيف بإمكاني أن أقدر على ذلك؟

كنت سأقول لهما بشيء من العدوانية المتعجرفة:

- أنا وزوجي لم نكن نشاهد التلفزيون.

لحسن الحظّ لم تخرج هذه الكلمات من شفتيّ.

بعد الغداء، مستفيدة من القيلولة، اتّصلت بلانتون. رمتني نبرة صوته في بلبلة منعتني من الكلام بادئ الأمر.

قال بغضب:

- آلو! آلو!

وهمست أخيراً:

- لانتون...

قال فجأةً بصوت خفيض مضطرب:

- هذه أنت يا ناديا.

ولم يضف شيئاً. سمعته يتنفّس بمشقّة.

قال حينئذٍ:

- اشتقت إليك كثيراً. أعتقد، كما تعرفين... (أكرهَ نفسه على الضحك قليلاً ليخفي حرجه) أعتقد، بطريقة ما، أنّني لا أستطيع العيش من دونك. لا أستطيع أن أهنأ بالعيش من دونك.

قلت بصعوبة:

- لانتون، هل آذيت والد رالف، زوجي السابق؟ هذا ما يعتقده رالف. هل هذا صحيح يا لانتون؟

قال لانتون:

- ذاك الرذيل، تجرّأ على العودة لرؤيتي من أجل بطاقة هويّته فتخلّصت منه، هذا كلّ شيء.

قلت:

- تخلّصت منه... ماذا يعني هذا يا لانتون؟

قال لانتون شبه لاهث:

- لا أريد أن أتكلّم عن هذا الشخص، أرجوك، لا ترغميني على ذلك. ناديا؟

قلت:

- إلى اللقاء عزيزي لانتون.

بعد أن أقفلت السمّاعة، بقيت طويلاً عاجزة عن الحراك، متجمّدة على مقعد والديّ الصغير، قرب الهاتف.

بعدما أنهت سوهار قيلولتها، اصطحبتها لأنزّهها في عربتها على طول الشاطئ، على الرصيف الخشبيّ. كنت أمشي، وأدندن باسمها، سوهار، سوهار الصغيرة، هل تريدين أن تكوني كيساً من ذهب أم كيساً صغيراً من فضّة؟ منحنية إلى الأمام، مديرة ظهرها لي، منتبهة، كانت الطفلة تحاول مع ذلك إفهامي من خلال هزّات رأسها واختلاج كتفيها أنّ هذه الكلمات تسعدها مع أنّها لا تستطيع أن تفهم معناها تماماً بعد.

كانت تمدّ ذراعها وتدلّني على مشهد يسلّيها. كان رجل وامرأة يركضان على الشاطئ وأحدهما يمسك بيد الآخر، ويقفزان ويثبان مثل عنزتين فتيّتين. ومع ذلك كانا متقدّمين في السنّ حسب ما يمكن ملاحظة ذلك من هذه المسافة نظراً لشعر الرجل الشائب والهزال الأعجف للمرأة. كانا

يرتميان على الرمل وينهضان سعيدين بطريقة بدوا معها مثل معتوهين. اتّجها صوبنا أنا وسوهار فتوقّفنا ننظر إليهما جامدين.

أعرفهما. آهِ، قلت في نفسي، أعرفهما جيّداً.

كان الرجل هو آنج، وكانت المرأة المرتدية ثوباً قصيراً فيروزيّاً كورينا داوي. كان آنج يرتدي بذلة من الكتّان وتحتها «تي شيرت» أبيض. وجهه نضر ومتعافٍ ومسمرّ مثل مستجمّ. كورينا نفسها تغيّر لون سحنتها ولم تعد زرقاء ضاربة إلى الرماديّ بسبب عقود من تدخين السجائر والفقر المدقع.

لم يظهرا أيّ دهشة أو اضطراب لرؤيتي، وقبّلاني كلّ بدوره، القبلات الرّنانة نفسها على خديّ، وكأنّنا أسرة واحدة. تأرجحتُ منتقلة من قدم لأخرى متشبّثة بمقابض العربة. سألاني في الوقت نفسه، ضاحكين على الفور لأنّهما تكلّما معاً.

- كيف حالك؟

تجاهلت السؤال بإشارة من يدي وبابتسامة مكرهة. نظرت شاخصة إلى عيني آنج، لكنّهما كانتا فارغتين من كلّ مغزىً خفيّ ولم تردّا لي إلّا نظرة تعبّر عن الهناءة والراحة المطلقة للضمير.

قالت كورينا:

- هيّا نذهب لشرب كأس.

وقال آنج:

- هيّا، أو فنجان قهوة.

قلت:

- لا أستطيع، يجب أن أعيد حفيدتي إلى المنزل.

عبّرت كورينا عندئذٍ عن افتتانها بجمال الطفلة، وشعرها الأجعد الأسود الرائع. وبصوت خافت همست لآنج:

- هل شفيت؟

حدّق إليّ بنظرات غامضة يشوبها بعض الحيرة وكأنّه كان يبحث في ذاكرته عمّا قصدته بسؤالي.

قال أخيراً:

- آه، نعم، بالطبع، نعم.

رفع «تي شيرته» ووضع إصبعه على ندبة ورديّة اللّون عند مستوى خاصرته.

قال بهدوء وهو يخفض «التي شيرت»:

- كورينا، هي لم يحدث لها أن شعرت بالعار من أيّ شيء.

وكأنّه بهذه الطريقة يريد الإجابة على سؤالي.

عانقته كورينا وقبّلت عنقه.

قلت بانزعاج:

- و... العمل؟

قال آنج:

- عدت إلى التدريس، وكورينا ستذهب للعمل في المدرسة هي أيضاً، وسوف تساعد التلاميذ الذين يعانون من صعوبة في التركيز.

قالت كورينا:

- نرحل بعد غد. أنت واثقة من أنّك لا تريدين المجيء معنا لاحتساء شيء ما؟

هزرت رأسي عاجزة. أمسكت كورينا يدي وضمّتها بقوّة إلى صدرها

وطبع آنج قبلة باردة في زاوية فمي. مبتسمَين، لطيفَين، ابتعدا وهما متخاصران.

استأنفت سيري، دافعةً عربة سوهار باتّجاه المنزل.

استقبلنا صوت والدتي ما إن أصبحنا في الشارع، صوتها المجلجل الذي يحمله هواء دافئ، خافق.

أمّاه، كم من المشاكل،
البعض يعرفون أشياء
أمّا أنا فلا أعرف شيئاً
إلّا المشاكل يا أمّي!

نبذة عن المؤلّفة

ولدت ماري ندياي **Marie NDiaye** في بيتيفييـه، قـرب باريـس، في الرابع من حزيران 1967، لأب سنغاليّ، وأمّ فرنسيّة، ونشأت في فرنسـا. ولم تكن تجاوزت سنّ السـابعة عشرة عندما صـدرت روايتها الأولى «أمّـا عـن المسـتقبل الثـريّ» في منشورات «مينوي» الباريسيّة، واجتذبت الأنظـار إليها فـوراً. بعد ذلـك كتبت روايات أخرى وأعمالاً مسرحيّة حقّقت لها رصيداً أدبيّاً كبيراً بلـغ ذروته مع روايتها «روزي كارب»، التـي تُوجّـت بجائزة «فيمينـا» للرواية في 2001، ثمّ مع «ثلاث نسـاءٍ قديرات»، التي نالـت عنها جائزة غونكـور للروايـة في 2009. يخـوض شخوص أغلب أعمالها عودة شائقة وشاقّة إلى الجذور وبحثاً مريراً عن الهويّة. هي في الإجمـال شـخوص غريبـة، مأزومـة بغموضٍ، وعلى حافّة الانهيار، أو كائنات بسيطة تكاد تكون غفلاً ولكن تكشف عن أعـماق مهولة وقدرات باهـرة على تخطّي مصائرها. هذا إلى براعة الكاتبة في تطويع اللّغة، وعبارتها السّاحرة، الآتية من ارتياد كبار الآثار الأدبيّة دون أن تفصح عن تأثرٍ بأيٍّ منها. أصدر مشروع «كلمة» ترجمات روايتيها «ثلاث نسـاء قديرات» و«طقس سيّئ» وهذه الرواية.

نبذة عن المترجمة

ماري طوق كاتبة ومترجمة من لبنان، من مواليد 1963، حصلت على إجازة في الأدب الفرنسيّ من الجامعة اللبنانية عام 1990، وتقيم وتعمل حاليّاً في مجال التعليم في مدينة جبيل بلبنان. نشرت قصصاً قصيرة ومقالات نقدية في الصحف اللبنانية والعربية، ونقلت إلى الفرنسية قصائد لشعراء عرب ومجموعة سيناريوهات للمخرجة الراحلة رندا الشهال. ترجمت إلى العربيّة عدداً من الأعمال الأدبيّة من أهمّها «الجميلات النائمات» لياسوناري كواباتا، و«المرأة العسراء» لبيتر هاندكه، و«خفّة الكائن التي لا تُطاق» لميلان كونديرا، و«أوريليا» لجيرار دونرفال، و«تاريخ بيروت» لسمير قصير، و«ملك الغائبين» لالياس صنبر، وأصدر مشروع «كلمة» عدّة ترجمات أدبية لها، منها: «المثقّفون» لسيمون دوبوفوار، و«جبل الروح» لغاو شنغجيان (بالاشتراك مع الشاعر والمترجم الراحل بسّام حجّار)، و«العصفور الأزرق وحكايات أخرى» لماري كاترين دونوا، و«نصوص الصِّبا» لغوستاف فلوبير، و«بنيّات اللهب» لجيرار دونرفال وثلاث روايات لماري ندياي.

قلبي في ضِيق

في البداية، كان يخامرني أحياناً الانطباع بأنّهم ينظرون إليّ شـــزراً. فهل كانوا حقّاً مستائين منّي أنا بالذات؟

حين أقدمت على ذكر هذا التغيّر المفاجئ أمام آنج، على طاولة العشاء، أجابنـــي، بعد تردّدٍ قليلٍ حياءً أو حرجاً، أنّه لاحظ الشيء نفســه فيما يخصّه. ثمّ سألني وهو يحدّق إليّ إنْ كان التلامذة، برأيي، يعيبون عليه شيئاً ما أم أنّهم كانوا يريدون استهدافي عبره لمعرفتهم بأنّني زوجته.

أثار هذا السؤال حيرتي: فما الذي فعلتُه، وبحقّ من؟

كان القلق بشأني يطفح من عينَي آنج وكأنّه يودّ أن أقول له إنّه هو، هو وحده، من تســتهدفه نظرات تلاميذه الخبيثة، أو إنّه إليه بالذات تتّجه نظرات تلامذتي المصوّبة نحوي...

أنهينا طعامنا بصمتٍ، وكلانا واعٍ بالمخاوف التي تختلج في فكر الآخر، لكنّ أحداً منّا لم يكن يجرؤ على المكاشفة بها بصراحة لأنّنا كنّا معتادين على الســلام والتناغم والتفهّــم التلقائيّ لكلّ ما يحيــط بنا. وهكذا، بمعنىً ما، كان خوفنا بالذات يروّعنا وكأنّه وصمة عار.

السعر 100 درهم

9 789948 393535

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

Abu Dhabi Culture & Tourism

كلمة KALIMA